


# النقد الأدبي في المغرب العربي

## الجزء الأول

دكتور
عبده عبد العزيز قلقيلة

أستاذ النقد الأدبي والبلاغة
كلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

( صدق الله العظيم )

الإهـــداء

إلى زملائى وطلابى فى المغرب العربى الكبير

عبده قلقيله

القاهرة ١٨/٨/١٩٨٧

# تقـــديم

قال أبو حامد الفاسى المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ ١٦٤٢ م فى كتابه « مرآة المحاسن » : —

« إن جماعة وسموا المغاربة بالأهمال ودفنهم فضلاءهم فى قبرىِ تراب وإخمال ، فكم فيهم من فاضل نبية طوى ذكره عدم التنبيه فصار اسمه مهجوراً كأن لم يكن شيئاً مذكوراً »[1]

ويظهر أن هذه الصرخة من أبى حامد كانت الدافع إلى انعقاد مؤتمر المؤرخين المغاربة بتونس فى الفترة من ٨ إلى ١١ ربيع الثانى سنة ١٣٩٢ هـ الموافق من ٢١ إلى ٢٤ / ٥ / ١٩٧٢ وقد أعلن المشاركون فى هـذا المؤتمر أن ثمة أسباباً تاريخية فرضت على الدراسات المغربية إطاراً معيناً أدى إلى سوء فهم حقيقة تاريخ المغرب ، وأكدوا ضرورة تضافر الجهود فى الكفاح ضد المفاهيم الخاطئة ووضع حد للانعزال الذى أريد للمغرب ، كما أوصوا بتبادل الخبرات والأبحاث الموجودة فى الجامعات المغربية وبأنشاء معهد عال تكون مهمته تنسيق الأبحاث العلمية على الصعيد المغربى[2] .

قرأت هذا الكلام وأنا فى موقع العمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قسنطينة فأمنت عليه بشقيه ولا عجب فقد كنت مستغرقا فى دراسة النقد الأدبى بالمغرب العربى وكنت وأنا أدرس هذا النقد اكشف عن بيئاته وأجد من مؤلفاته ما يجعلنى أطبق قول الفاسى على مجال تخصصى .

---

(١) ص ٤ من طبعة فاس الحجرية سنة ١٣٢٤ هـ

(٢) جريدة النصر اليومية وهى تصدر فى قسنطينة العدد ٢٨٨ بتاريخ ١٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٩٢ هـ الموافق ٢٦ /٥/ ١٩٧٢ ص ٦ .

فأقول بعده أو معه : إن كثيراً من نقاد المغرب قد دفنوا فى قبرى تراب وإخمال فكم فيهم من فاضل نبيه طوى ذكره عدم التنبيه ، ثم أتجاوب مع مؤعر الخريجين بالاجتهاد فى إخراج هذا السفر المبين عن جانب أحسبه من أبرز الجوانب فى التفكير المغربى وهو النقد الأدبى .

وقد يسأل البعض : — هل يوجد نقد أدبى فى المغرب العربى ؟ وأجيب عن خبرة وبكل ثقة : نعم يوجد نقد أدبى فى المغرب العربى ، وإذا خلت بعض أقطاره منه ، وبعبارة أدق : إذا كنا لم نعثر إلى الآن على كتب أوحتى على نتف من النقد فى بعض البيئات المغربية كطرابلس الغرب ،فأن ذلك يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادة هذه البيئات وأهلها مثل كونهم تابعين لغيرهم أو موزعين بين شرق وغرب . لقد أهمنى أمر النقد فى ليبيا ، وكثيراً مابحثت ودرست عساه أصادف ناقداً منها أو أثراً فى النقد بهـا فلم أوفق ، ولم أهدأ بعض الشىء إلا بعد أن قرأت للتجانى قوله عن إطرابلس[٣] «وجميع الخواص من هذه البلدة مقهورون تحت أحكام العوام منهم لبعد بلدهم عن الحضرة وانقطاعهم عن الأوامر » .

والحضرة هى تونس فقد كانت طرابلس تابعة لها أما برقة فكانت داخلة فى حكم مصر[٤] . وفيما عدا ليبيا فأن النقد الأدبى قد وجد فى المغرب العربى وهو فى جملته نقد أصيل خصب ولا بأس من أن نبرهن على وجوده ومن أن نمثل له فى هذه المقدمة بالأمور الآتية : —

---

(٣) هكذا بالألف تفرقه بينها وبين طرابلس الشام وانظر رحلة التجانى ص ٢٧٠ — ٢٧١ طبعة تونس سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م تحقيق المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

(٤) رحلة التجانى ص ٢٥٨ . وانظر « النشاط الثقافى فى ليبيا من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر التركى » للدكتور أحمد مختار عمر ص ٨ ومن ص ٢٨٥ إلى ص ٢٩١ الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م و «مدينة توكره » لعلى سالم لترك ص ٩ ومابعدها. ١٣٩٢ هـ . ١٩٧٢ م

— ١ —

نقرأ فى رحلة التجانى أنه لما تولى يحيى بن تميم الصنهاجى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٠١ ﻫ ولى على صفاقس ابنه أبا الفتوح فقام عليه أهلها ونهبوا قصره وأرادوا قتله فغضب يحـــيى لذلك وأخذ فى تفريق كلمة أهل صفاقس وتشتيت شملهم ، ولم يزل يوالى عليهم البؤس ويملأ منهم الحبوس إلى أن شفى نفسه منهم ثم عفا عنهم بعد ذلك ، وفى هذا قال ابو الصلت قصيدة مطلعها :ـ

قضى الله ان يفـــنى عداك وان تبقى
وتخلد حـــتى تملك الغرب والشرقا .

ومنها : —

ورب أناس أججـــوا نار فتنـــة
يجنيها الأتقى ويصلى بهـــا الأشقى .
وجرّ عليهم جهلهم حـــلم مالك
يرق ويحنـــــــو كلمـا ملك الرقا .
ولو شـــاء روى السيف منهم فطالما
نضاه فسقاه من الدم ما استســـقى .
ولـكن دعاه الحـــلم والفضل والحجى
إلى ان يكون الأحـلم الأكرم الأتقى .
سجية مجهـول السجايا على الهـــوى
إذا غضب استأنى وإن ملك استبـــقى.

قال ابو الصلت : — انشدت يحيى هـذه القصيدة وخاصته بين يديه وعبد العزيز بن عمار فى الجملة وكان فى هذه الصناعة أبصر الجماعة فقال يحيى :

كيف ترى ما تسمع ؟ فقال : حسن الحوك محكم السرد . فقال : اتعرف قائله ؟ قال: لا . قال : هو ذاك الجالس — يشير إلى، فعلاه فتور ونفور عن الاستماع بحسب ما يعرض من العوام والرعاع عندما ينشدون لمن جمعهم وإياه مكان وزمان وإن كان فى اول جريدة ذوى الأحسان وإنما عنوا بامتداح القديم وتعظيم العظم الرميم وسبب ذلك الحسد فكثيراً ما يعيد الصواب محالا ، والعداة آلا ، والقوام اعوجاجاً ، والعذب ملحاً احاجا[٥] .

— ٢ —

ومن تداعى المعانى ان التجانى الذى اورد المثال السابق فى رحلته قد استقبل العبدرى بتونس واشترك معه فى نقد مقامات الحريرى . قال العبدرى عنه : « وهو بالجملة من خواص اهل العلم وآحادهم جالسته كثيراً وسمعت كلامه فى الأدب وغيره وقرات عليه مقامات الحريرى ، وكان يرد منها رداً حسناً وينقدها نقداً محققاً ، وذاكرته فيها بمواضع عديدة كنت أتعقبها فأثبت قولى فيها واستحسنه[٦] .

— ٣ —

وجاء فى كتاب الأنشاذات والأفادات للأمام الشاطبى وهو من أعلام الفكر الأندلسى قال : — أفادنى صاحبنا الوزير الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة فى علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً هى : —

( ١ ) الفقه فى اللغة :

وهو النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملها العرب . ومن مثل هذا

(٥) رحلة التجانى ص ٧٣ — ٧٤ :

(٦) رحلة العبدرى ص ٢٥٧ .

الوجه قرم وعام إذا اشتهى لـكن لا يستعمل قرم إلا مع اللحم ، ولا يستعمل عام إلا مع اللبن فتقول : عمت إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع وأحمر قانى ولا يقال العكس[٧] .

(ب) تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والابتذال فـلا يستدل بالحوشى من اللغات ولا المبتذل فى ألسن العامة .

( جـ ) اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه . إذ المقصود الوصول إلى بيان المعنى إلى أقصاه والأتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه فى الذهن ، وتحرى كل صيغة تمـكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، وأخبرنى أن أدباء المغرب يحافظون فى شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ويذمون ما عداها من طرق المولدين بأنها خارجة عن الفصاحة . وهذه المعانى الثلاثة لا توجد إلا فيها[٨] .

وهذا الـكلام من ابن زمرك ولو أنه قد قاله فى أدباء العصر المرينى إلا أنه يمكن أن يكون حكما على الأدب المغربى كله أى فى عصوره المختلفة وفى بيئاته المتعددة .

— ٤ —

ومن مجالس الحـكم فى الأدب أى من مجالس النقد الأدبى ما ذكره ابن رشيق عن شيخه القزاز لما قدمت له القصائد الـكثيرة التى قيلت فى واقعة المشارقة ليختار أحسنها . قال : « فجعل يوازن بينها ويأخذ ويترك من أبياتها

---

(٧) النبوغ المغربى لعبد الله كنون حا ص ١٦٥
وقد جاء فى فقه اللغة للثعالبى : أسود حالك وأبيض يقق وأصفر فاقع وأخضر ناضر وأحمر قانى كما جاء فيه : فلان جائع إلى الخبز وقرم إلى اللحم وعطشان إلى الماء وعيمان إلى اللبن وبرد إلى التمر وجعم إلى الفاكهة وشبق إلى النـكاح . ص ١٣٥ ، ص ٢٥٨ طبعة المـكتبة التجارية.

(٨) النبوغ المغربى حـ١ ص ١٦٦ .

إلا قصيدة واحدة اختيرت بأجمعها »[٩]، وما كتبه ابن خلدون عن والده قال: وكان مقدما فى صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه . عهدى بأهل الأدب يتحاكمون إليه ويعرضون حوكهم عليه[١٠].

ثم ما كتبه عن أستاذه أبى العباس أحمد بن شعيب المتوفى بتونس سنة ٧٥٠ ﻫ من قوله « وكانت له إمامة فى نقد الشعر وبصر به »[١١].

— ٥ —

وتستوقفنا تراجم بعض الأعلام لأنها تشتمل على ما يثبت أنهم ألفوا فى النقد، واشتهروا به، أو كان لهم فيه مذهب.

كيحيي بن عبد المعطى بن عبد النور الزواوى أبى الحسين زين الدين أحد أئمة عصره فى النحو والأدب ٥٦٤ — ٦٢٨ ﻫ ١١٦٩ — ١٢٣١ م وهو شاعر مجيد . أصله من زواره وهى قبيلة بظاهر بجاية سكن دمشق ولقى ابن عساكر فسمع منه ثم رغبه الملك الكامل فى الانتقال إلى القاهرة فسافر إليها ودرس الأدب العربى فى الجامع العتيق وعكف على التأليف . له كتب كثيرة فى النحو، وله « البديع فى صناعة الشعر »[١٢].

وكعبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم الأصولى أبى زيد مات سنة ٦٣٩ ﻫ وهو شاعر أديب من بجاية سكن تونس ومدح السلطان يحيى بن عبد الواحد الحفصى، فقد ذكر المؤرخون أن له كتاباً اسمه« نكت الناقد فى الأدب»[١٣]

---

(٩) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ص ٨٣ـ٨٤

(١٠) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا تأليف ابن خلدون وتحقيق محمد ابن تاويت الطنجى طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧٠ ﻫ ١٩٥١ ﻫ ص ١٤.

(١١) التعريف بابن خلدون ص ٤٨ .

(١٢) معجم اعلام الجزائر لعادل نويهض طبعة بيروت سنة ١٩٧١ ص ٢٠١ .

(١٣) معجم أعلام الجزائر ص ٨٧ .

وكأحمد بن العباس النقاوسي الذى لقيه أبو البقاء خالد ابن عيسى البلوى الأندلسى قبل سنة ٧٦٥ هـ وذكره فى رحلته المسماه « تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق » فقال : —

كان حافظاً مجيداً وناقلا سديداً وناقداً شديداً وعارفاً مديداً ومدرساً مفيداً . رحل من تلمسان قبل الحصار وهو الآن أحد مدرسيها العظام وأوحد من برع فى علمى البيان والكلام أديب عصره ونحويه وبيانيه وحكيمه ومنطقيه، قرأت عليه تأليفه المسمى « الروض الأريض فى علم القريض » ، وتأليفه فى الأدب ، وحديقة الناظر فى تلخيص المثل السائر »[١٤] .

وكمحمد بن أبى الفتح بن ميخائيل القرشى قال ابن رشيق عنه : —

هو من أهل سوسه وسكن القيروان ، كان يسلك مسلك قدامة فى انتقاد الشعر ومطالبة الحقائق[١٥] .

* * *

هذا الجو المشبع ببخار النقد دليل قوى على أن الشمال الأفريقى كان يموج بالنقد ، ولعل ذلك هو السبب فى أننى تعمدت أن تكون موضوعات الرسائل الجامعية التى أشرف عليها موضوعات مغربية .

كالأدب بتلمسان فى ظل بنى زيان .

والأدب فى قلعة بنى حماد .

والأدب بتيهرت .

والبلاط الأدبى للمعز بن باديس .

---

(١٤) معجم أعلام الجزائر ص ٢٥

(١٥) رحلة التجانى ص ٣٣ عن أنموذج الزمان فى شعراء القيروان .

والأدب فى ظل الدولة المرابطية .

والأدب فى ظل الدولة الموحدية .

والحركة الأدبية بتونس عصر الدولة الحفصية .

والأدب الجزائرى تحت الاحتلال الفرنسى .

والاتجاهات القومية فى الأدب الجزائرى الحديث .

وأدب ما بعد الاستقلال فى الجزائر .

وجمعية العلماء وأثرها فى الأدب الجزائرى الحديث .

ومعهد الحياة وأثره فى نهضة الأدب الحديث بالجزائر .

ومراكز الثقافة فى المغرب العربى الكبير .

وبكر بن حماد ، وتميم بن المعز ، والبشير الإبراهيمى ، وأحمدرضاحوحو، ومحمد العيد آل خليفة ، ومفدى زكريا .

وأدب المرأة المغربية ...

هذه الموضوعات وغيرها يتناولها أصحابها ملتزمين فيها بمنهج الدراسة التاريخية النقدية المقارنة وكلنا أمل فى أن ينيروا أفق المغرب بهذه الأبحاث التى يتوفرون عليها جادين فيها ومخلصين لها .

* * *

إن النهضة الحديثة فى المغرب العربى الكبير ، والدور الخطير المطلوب من المغاربة القيام به تحقيقاً لذا تيتهم أولا ، ومشاركة إيجابية فى النهضة العربية الشاملة ثانياً لكفيلان بأحياء التراث الأدبى والنقدى والحضارى فى هذه المنطقة الحيوية من مناطق الأمة العربية ، وأنا منذ حللت بالجزائر فى ٧ / ١ / ١٩٧١ قد اعتبرت نفسى مغربياً ، ويشهد الله أننى لكذلك بالقلب والعقل . لقدوقفت

نفسى على المغرب وسوف لا أخرج منه علميا وأدبيا . وسيكون لقائى القادم بحول الله وطوله مع بيئاته الثقافية ومدارسه الأدبية .

والكتاب الذى بين يديك أيها القارىء الكريم مكون من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

عرفت فى التمهيد بالمغرب العربى تاريخيا وجغرافيا ، علميا وأدبيا .

وفى الفصل الأول عرضت النقاد المغاربة و نقدهم فى دراسة تاريخية تحليلية.

وفى الفصل الثانى تكلمت عن القضايا النقدية وتطورها عندهم ابتداء من عبد الكريم النهشلى فى الممتع وانتهاء بابن خلدون فى المقدمة .

أما الفصل الثالث فكان عن أصالة النقد المغربى . وفى الخاتمة أجملت ما فصلت واقترحت متابعة العمل فى حقل النقد المغربى سواء من جانبى أو من جانب غيرى .

* * *

وقد التزمت فيه بالمنهج التاريخى المتمشى مع الزمن ، فكل وقت فى نظرى متحمل لخصائص ومقومات معينة ، وإذا أضيفت هذه الخصائص والمقومات الزمانية إلى مثيلاتها المكانية برزت معالم حضارية وثقافية ذات ملامح مستقلة عن غيرها . ومخالفة حتى لأخواتها النائيات عنها فى الزمان أو المكان أو كليهما .

انطلاقا من ذلك الفهم كان هذا الكتاب محاولة جادة ومخلصة لتوضيح ناحية واحدة من نواحى المغرب العربى هى ناحيه النقد الأدبى فيه ، وأنا أهديه إلى طلاب جامعة قسنطينه فهو من وحيهم وعلى وجه التحديد هو المحاضرات التى كنت ألقيها عليهم بمعدل ساعة كل أسبوع .

والدور عليهم فى الـكتابة عن وطنهم وتراثهم
وفقهم الله وسدد خطاهم وبارك لهم فى أوقاتهم .
سلام عليهم أينما كانوا .
والحمد لله أولا وآخراً ؟

عبده قلقيلة

قسنطينة فى ٧ / ١ / ١٩٧٣

# تمهيد

## المغرب العربى جغرافيا وتاريخيا

للمغرب العربى أكثر من مدلول .

— ١ —

فهو يطلق ويراد به كل مايقابل المشرق العربى.

وتدخل فيه بهذا المعنى مصر والأندلس أو الأندلس فقط قال ابن عذارى المراكشى تحت عنوان « حد المغرب وأفريقية وما اتصل بهما وعد معهما »:- إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية التى تلى بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلا . وينقسم أقساماً :-

فقسم من الأسكندرية إلى طرابلس وهو أكبرها وأقلها عمارة .

وقسم من طرابلس وهى بلاد الجريد ، ويقال أيضاً بلاد الزاب الأعلى .

ويلى هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل وحدها إلى مدينة تيهرت .

ويليها بلاد المغرب وهى بلاد طنجة وحدها مدينة سلا وهى آخر المغرب ، وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب وداخلة فيه لاتصالها به(١) .

وفى دار الكتب المصرية ١٠٥٠ ورقة من كتاب المغرب فى حلى المغرب لأبى الحسن على بن موسى بن سعيد المغربى منها ٥٣٦ خاصة بمصر وهذا يعنى أن المغرب فى نظر ابن سعيد يمتد من المحيط الأطلسى حتى حدود مصر الشرقية

(١) « البيان المغرب » ج١ ص ٥ — ٦ وانظر « فتح العرب للمغرب » تأليف حسين مؤنس ص ٣ و « أحسن التقاسيم » للمقدسى ص ٢١٧ و « مراكز الثقافة » لعثمان الكعاك ص ٦.

وهو نفس ماذهب إليه فى كتابيه « الجغرافية » و « عنوان المرقصات والمطربات »[٢].

ولعل الذين عدوا مصر من بلاد المغرب قد راعوا أنه ليس ثمة حدود طبيعية تفصله عنها كالبحر الذى فصله عن أوربا ، وكالصحراء الكبرى التى فصلته عن بلاد السودان وما جاورها.

أما الذين أدخلوا الأندلس فيه وعدوها منه فقد يكون ذلك لأنها كلها أو بعضها قد حكمت به وتبعته فى بعض الأحايين من دول المرابطين والموحدين والحفصيين .

وقد يطلق المغرب العربى ويراد به الشمال الأفريقى بحدوده المعروفة وهى مدينة السلوم شرقاً والمحيط الأطلسى غرباً والبحر الأبيض شمالا ، أما جنوباً فتشاد وغربى السودان من جنوبه الشرقى ومالى والنيجر من وسطه والسنغال من جنوبه الغربى .

وهو بهذا المعنى ثلاثة أقسام : —

المغرب الأدنى : ويبتدىء من مدينة السلوم المصرية شرقاً إلى مدينة بجاية الجزائرية غرباً .

والمغرب الأوسط : وهو من مدينة بجاية شرقاً إلى وادى ملوية غرباً وهذا الوادى يقع بين مدينتى تلمسان الجزائرية وتازا المغربية[٣] .

---

(٢) الأول ص ١٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ م تحقيق اسماعيل العربى والثانى ص ٢٥٦ طبعة القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ :

(٣) « تازا » كلمة بربرية معناها الصخرة العظيمة وهى مدينة فى المغرب الأقصى كما قلنا . وتوجد ثلاث مدن بهذا الاسم هذه ، وثانية فى الاندلس قرب مدينة « لوقا » وثالثة فى العراق بين كركوك وجلولاء وبعقوبة وبغداد وانظر « قادة الفتح فى المغرب العربى » لمحمد شيت خطاب حـ ١ ص ١٤ طبعة أولى ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦م والمسالك والممالك والمفاوز والمهالك لابن حوقل ص ٤١ طبعة ليدن سنة ١٨٧٣ م والاستبصار فى عجائب الأمصار ص ١٨٦ .

والمغرب الأقصى : من وادى ملوية شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً[٤].

قال ابن خلدون وهو بمصر : إن المغرب كله على ساحل البحر الشامى من جنوبه فالأقرب إلى هنا برقة وأفريقية ، والمغرب الأوسط تلمسان وبلاد زناته، والأقصى فاس ومرا كش[٥].

وإذا كان ابن خلدون قد أطلق كلمة « أفريقية » على ليبيا وتونس كما هنا وكما فى الحلل السندسية للوزير السراج[٦] . فأن صاحب كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار « قد أطلقها على المغرب العربى كله بقوله : « وحد أفريقية طولا من برقة شرقاً إلى مدينة طنجة غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى هى حاجز بين بلاد أفريقية وبلاد السودان[٧] .

وتقسيم المغرب العربى إلى ثلاثة الأقسام السابقة تقسيم قديم يرجع إلى عهد الخليفة الأموى عبد الملك آخر القرن الأول للهجرة وقد ظل إلى القرن العاشر الهجرى ، ثم لما استولى الأتراك على المغربين الأدنى والأوسط قسموهما تقسيماً جديداً حسب الدول التى أنشئوها فيهما فانقسما إلى ليبيا وتونس والجزائر. أما المغرب الأقصى فلأنه سلم من الاستعمار التركى ظل له اسمه العربى القديم وهو المغرب مع كلمة الأقصى أو بدونها ولو أنه كان يعرف إلى عهد قريب باسم مرا كش عاصمة الجزء الجنوبى منه .

---

(٤) تاريخ المغرب العربى الكبير لمحمد على دبوز حـ١ ص ٣ — ٥ طبعة أولى ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م.

(٥) التعريف بابن خلدون ص ٣٧٠ .

(٦) حـ١ ص ٢٣٥ .

(٧) « الاستبصار فى عجائب الامصار » ص ١١ وهو لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى لكنه مجهول. نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد طبعة جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٧ م وانظر تحفة الملوك ص ٣٩٧ ووصف أفريقية للبكرى ص ٢١ والأدب المغربى للدكتور عفيفى ص ١٨ .

وإذا كان الاستعمار التركى قد قسم المغربين الأدنى والأوسط ذلك التقسيم، فأن الاستعمار اللاتيني بوجهيه الإيطالى والفرنسى قد جسده وأكده تطبيقاً لحكمته الخالدة « فرق تسد » .

ولربما استعملوا المغرب العربى مراداً به الشمال الأفريقى باستثناء ليبيا .

ومن هؤلاء الأستاذ نقولا زيادة والدكتور صلاح العقاد فالمغرب العربى عند الأول يمتد من الحدود الغربية لطرابلس إلى المحيط الأطلسى، ومن شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء الكبرى ويشمل فى عرف التقاسيم السياسية الحديثة تونس والجزائر ومراكش[٨] . وقد جعل الثانى عنوان كتابه هكذا « المغرب العربى : الجزائر . تونس . المغرب الأقصى » ثم قال : وقد يتساءل القارىء : لماذا لم يشمل الكتاب ليبيا وقد جرى العرف على حسبانها من بلاد المغرب ؟ والجواب عن ذلك ينطوى على حقيقة مؤسفة وهى أن الاستعمار ترك فى بعض البلاد العربية آثاراً بعيدة بحيث أوجد رابطة خاصة من نوع جديد بين البلاد التى خضعت لاستعمار واحد، ولم تشارك ليبيا جيرانها فى الخضوع للاستعمار الفرنسى وتتضح هذه الحقيقة من مؤتمر طنجة الذى انعقد سنة ١٩٥٨م لبحث وسائل التقريب بين أقطار المغرب فمع أن ليبيا قد دعيت إليه إلا أنها لم تلعب فيه دوراً يذكر[٩]

وقد أكدت الأحداث ما ذهب إليه المؤلف فها هى ذى ليبيا قد اتحدت مع مصر وسورية ثم طورت ذلك بأن كونت هى ومصر دولة واحدة، أما بقية دول المغرب فأنها تسعى جاهدة لإقامة وحدة مماثلة أو شاملة فيما بينهما بما فى ذلك موريتانيا التى كانت إلى عهد قريب جزءاً من المغرب الأقصى . قال

---

(٨) صفحات مغربية ص ٢٥٣ .

(٩) المغرب العربى ص ٥ وشمال افريقية لسعيد العريان بالاشتراك ص ١١ .

الأستاذ م. ع. الهوارى فى جريدة الشعب الجزائرية اليومية : « إن بلدان المغرب العربى اليوم تهدف أول ما تهدف إلى بناء وحدة مغربية واقعية تعيد هذا الجزء من الوطن العربى إلى وحدته السابقة وإلى إعطائه نفس المكانة التى كان يحتلها من قبل موحداً بدون حدود ولا فوارق مع الاعتقاد الكامل بأن هذه الوحدة وحدة المغرب ما هى إلا جزء من الوحدة العربية الشاملة إن لم تكن خطوة أساسية فى سبيل تحقيقها . لقد التقت أقطار المغرب العربى فى عديد من المواقف النضالية التى باركها الدم بعد لقاء التاريخ واللغة والدين وأكدت شعوبها من خلال هذه المواقف ذلك الترابط المتين الذى يشد كل جزء من شعب المغرب العربى إلى الجزء الآخر منه ، وإذا حاولنا أن نعدد هذه المواقف لوجدناها كثيرة وعديدة فى تاريخ المغرب العربى قديمه وحديثه[١٠]

وما قاله الأستاذ الهوارى حق ، فالمغرب العربى وطن واحد له مقومات الوحدة الشاملة من لغة ودين وثقافة بالإضافة إلى وحدته الجغرافية فلا توجد حواجز طبيعية تميز أى دولة عن غيرها وتفصلها عنها بل بالعكس نلاحظ أن التقسيمات الجغرافية تتخلل أقطاره عرضاً وتمتد بمحاذاة البحر فتبدأ من الشمال بإقليم ساحلى خصب تشقه أنهار قصيرة تستمد مياهها من منطقة التل وتنزل منحدرة نحو البحر ، ويلى هذا الإقليم جنوباً منطقة الأطلس الصغير أو التل ثم منطقة الهضاب العليا أو الأطلس الكبير ، وتقع الصحراء الكبرى وراء هذه الأقسام الثلاثة . أجل إن هذه التقسيمات لا تشمل ليبيا فالأطلسان يمتزجان فى تونس وينتهيان عندها وتمتد الصحراء فى ليبيا إلى الشواطىء نفسها لكن هذا لا يسوغ سلخها عن المغرب فهى امتداد له تجمعها به وحدة الجنس والتاريخ والحضارة المشتركة ، والمحققون يقررون أن وحدة المغرب تستند إلى

---

(١٠) العدد ٢٤٨٦ بتاريخ ١٨ شوال سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٦ ديسمبر سنة ١٩٧١ م ص ٣

حقائق إنسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية كما أن لها عوامل ثقافية تمخضت عن وحدة الفكر والتراث .

والخلاصة أن المغرب العربى وحدة واحدة فى جميع مظاهر حياته المادية والمعنوية : أرومة واحدة . لغة واحدة . دين واحد . بقاع متلاحمة كالحلقة المفرغة ، أما القطر الليبي فهو امتداد طبيعى له ولا يمكن فصله عنه وإن خالفه جغرافياً وسياسياً[١١] .

والمغاربة الحاليون يمثلون الامتزاج عبر القرون بين السكان الأصليين وهم البربر وبين الفاتحين العرب ، ويختلف هذا الامتزاج قوة وضعفاً ، فهو أقوى ما يكون فى السهول المنبسطة ، وأضعف ما يكون فى المرتفعات الجبلية ، وقد أدى انعزال السكان الأصليين فى هذه المناطق إلى احتفاظهم بلغتهم الأصلية وهى البربرية ، ويبلغ عدد المتكلمين بها فى المغرب الأقصى حوالى ٣٦٪ من عدد السكان وفى الجزائر ٢٥٪ وفى تونس ١٪ ولكن عدداً كبيراً من هؤلاء يعرفون اللغة العربية ويستعملون اللغتين فى حياتهم اليومية وهم يسلمون بأن اللغة العربية هى لغتهم الثقافية الوحيدة ومن ثم لم يتمسكوا بتراث بربرى ولم يحاولوا كتابة لغتهم كما فعلت شعوب إسلامية أخرى مثل الفرس الذين أصبح تراثهم الخاص نواة لقيام قومية منفصلة عن القومية العربية وهو ما يعرف فى التاريخ السياسى باسم الشعوبية .

ولا يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم[١٢] . بل يعرف الشخص نفسه

---

(١١) أنظر « الفكر والثقافة المعاصرة فى شمالى افريقية » لأنور الجندى ص ١٠٠ ـ ١٠٤ و « هذه مراكش » لعبد الله جلون ص ١٨ « وتاريخ الجزائر العام » لعبد الرحمن جيلالى حـ١ ص٧

(١٢) لما فتح المسلمون بلاد المغرب أخذوا كلمة « بربر » عن حكامه السابقين وهم الرومان الشرقيون وأطلقوها على سكان البلاد الأصليين فبقيت لاصقة بهم إلى اليوم واصل الكلمة يونانى فقد كان اليونان يطلقونها على كل من ليس بيونانى كما كان العرب يطلقون كلمة « أعجمى » =

باسم المجموعة القبلية التي ينتمي إليها فهم في المغرب الأقصى يسمون أنفسهم « الأمازيغ » أي الأحرار الشجعان ويسكنون سوس ، وفي الجزائر تعرف أكبر مجموعة منهم باسم القبائل وهم السواد الأعظم في ولاية تيزي وزوشمالي قسنطينة والبربر كلهم يزعمون أنهم من العرب ، فأما لواته ومزاته فيدعون أنهم من قيس وفران يدعون أنهم من لخم ، وتزعم هوارة أنها انتقلت من الشام وزويلة تدعى أنها من جرهم أما صنهـــاجة و كتامة فتقولان إنهما من حمير[١٣] .

وبعد فسنقصد بالمغرب العربي في هذا الكتاب الشمال الأفريقي بما فيه ليبيا أي أننا سنبحث عن النقد الأدبي فيما يعرف الآن بليبيا وتونس والجزائر والمغرب وأيضاً في صقلية التي انتقل إليها من المهدية ابن رشيق وابن شرف[١٤] فقد كانت امتداداً ثقافياً للمغرب العربي كما كانت امتداداً سياسياً له، وقد ظلت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة العربية منذ فتحها المسلمون إلى أن فقدوها وبعد أن فقدوها بحوالي مائتي سنة[١٥] وانجبت من الأدباء والعلماء عدداً لا يحصى

---

= على كل من ليس بعربي . وقد أخذها الرومان عن اليونان بنفس المعنى لكنهم لم يطلقوها على اليونان ثم أخذت الكلمة تضيق حتى انحصرت شيئاً فشيئاً في شعب شمالي أفريقيا وانظر شخصيات أدبية ص ١٤٥ وجغرافية العالم العربي ص ١٤ — ١٥.

(١٣) الصحافة الأدبية وأثرها في تطور الأدب الحديث بالمغرب الأقصى لمحمد الصادق عفيفي هامش رقم ٦ ص ٢١ مخطوط، وهدى كامل المرد لوحة رقم ٩ وهو الذي قيل عنه إنه قطعة من اختيار الممتع .

(١٤) تقع جزيرة صقلية في منتصف البحر الأبيض المتوسط بين قارتي أوربا وأفريقيا، ويفصلها عن قلوية بايطاليا مضيق مسينا Messina وهو لا يتجاوز ثلاثة كيلو مترات، ويفصلها عن البلاد التونسية ممر صقلية وعرضه ١٢٠ كم اما ساحتها فتبلغ ٢٥٤٦١ كم مربعا وهي الآن جزيرة إيطالية وانظر « المسلمون في صقلية » لاحمد توفيق المدني ص ٨ + طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر .

(١٥) مدة حكم المسلمين لصقلية ٢٣٣ سنة [ ٢١٧ — ٤٥٠ هـ ] وقد استمر وجودهم بها بعد انتهاء حكمهم لها ١٩٣ سنة « ٤٥٠ — ٦٤٣ هـ » كان نفوذهم فيها عظيما جدا حتى ليمكن القول بان أزهى عصور المسلمين في صقلية إنما هو العصر الذي عملوا فيه أعمالهم =

كابن حمديس الصقلى الشاعر وهو أشهر من أن نعرف به هنا[١٦] وعلى بن جعفر ابن على السعدى المعروف بابن القطاع والذى يرتفع نسبه إلى إبراهيم بن الأغلب ولد بصقلية سنة ٤٣٣ هـ وبها عاش وتعلم وتأدب ، كان إمام وقته فى علوم العربية وفنون الأدب وهاجر إلى مصر آخر عمره فأكرمه الأفضل ووكل إليه تعليم أولاده ، مما روى عنه كتاب الصحاح للجوهرى وله عليه حواش نفيسة ، ومن تصانيفه « الدرة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة » وقد اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت ، وكتاب « فرائد الشذور وقلائد النحور » فى الأشعار ، وكتاب « العروض والقوافى » وكتاب «الأسماء فى اللغة » جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب «الأفعال » هذب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما فى ثلاث مجلدات توفى بالقاهرة سنة ٥١٥ هـ[١٧] أما أبو الحسن على بن حبيب اللغوى الصقلى فكان من علماء اللغة المعدودين وأكابر البلغاء المبرزين وممن يشار إليهم بالبنان فى نقد الشعر وتحليل معانيه ، وكذلك طاهر بن عمار الرقبانى قال عنه الشيبانى « إنه لم يكن فى زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها ونثرها ونظمها[١٨] .

ونختم الكلام عن صقلية وعلمائها بقولنا : إن قاعدتها « بلرم » كان فيها أكثر من ثلاثمائة معلم يؤدبون الصبيان كما قصه علينا الرحالة البغدادى

---

= التمدينية الباهرة تحت سلطة أمراء النرمان ، ولقد سار هؤلاء سيرة ملوك المسلمين قبلهم فلبسوا لباسهم وتحلوا بأخلاقهم وسكنوا مساكنهم واستعملوا فى دواوينهم العربية أى أن صقلية كانت جزيرة نرمانية إسلامية حوالى مائتى سنة .

(١٦) أنظر ترجمته فى « المسلمون فى جزيرة صقلية » للمدنى ص ٢١٧ — ٢٢٨ وقد كتب الاستاذ على المصراتى عنه عددا من أعداد المكتبة الثقافية وجعله الاستاذ سعد شلبى موضوع رسالته للماجستير .

(١٧) النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ٢٠٩ ، والوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ١١٥ للدكتور محمد حمدى المناوى ، والمسلمون فى صقلية ص ٢٠٦ .

(١٨) المسلمون فى صقلية ص ٢١٤ .

أبو القاسم بن حوقل الذى زار المغرب فى منتصف القرن الرابع الهجرى . وقد وقد أردف كلامه المتقدم بقوله : — « وهؤلاء المعلمون يرون أنفسهم أفضل السكان وأجلهم وأنهم أهل الله »[١٩]

## المغرب العربى علميا وأدبيا

لم يمض القرن الأول للهجرة وبعض الثانى حتى أصبحت العربية هى اللغة الرسمية للسكان المغاربة ، وقد ساعد على ذلك أمور منها :

١ — أنه لما استقرت أمور المغرب لحسان بن النعمان ٧٧ — ٨٨ ﻫ بانتصاره على الكاهنة[٢٠] وقتله لها أراد أن يضيف إلى أمجاده الحربية أمجادا أخرى سياسية وإدارية فدون الدواوين وأدخل البربر فيما يصلحون له منها. وقد انتهز هؤلاء هذه الفرصة وساعدهم طموحهم على انتهازها إلى آخر المدى .

٢ — أن موسى بن نصير ٨٨ — ٩٥ ﻫ كان قد أمر جنوده العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقه واللغة ، روى الرفيق مؤرخ القيروان أن موسى ابن نصير أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين[٢١].

وذكر غيره أن موسى ترك سبعين رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام وكان عقبة بن نافع قبله قد ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن[٢٢] .

---

(١٩) المسالك والممالك لابن حوقل ص٨٧.

(٢٠) ملكة بربرية أسمها « دهيا » كانت زوجا لرجل من رؤساء قبيلة جراوه إحدى قبائل البتر العظيمة المقيمة بجبل أوراس جنوب قسنطينة . عاشت ١٢٧ سنة وتملكت ٢٥ سنة أما عاصمتها فهى تسيدروس قرب خنشله ولما كانت تدعى الاطلاع على الغيب وتتكهن للناس فقد عرفت لكاهنة وانظر جيلالى ح ١ ص ١٩٧ .

(٢١) البيان المغرب لابن عذارى ح١ ص ٢٧ .

(٢٢) ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية لحسن حسنى عبد الوهاب ح١ ص٧٨.

٣ — البعثة العلمية التى أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان بقصد تثقيف البربر وإرشادهم إلى شرائع الإسلام وتعاليمه العالية ولقد كانت هذه البعثة مدرسة بل أكثر من مدرسة ، فقد اختط كل واحد من أفرادها دارا لسكناه وبنى بحذائها مسجدا لعبادته ومجالسه واتخذ بقربه كتابا لتحفيظ القرآن وتلقين مبادىء العربية لأطفال البلد[٢٤] . وهكذا تسنى لأبناء العرب والبربر على السواء أن يتلقوا التعليم الابتدائى فى كل حى من أحياء القيروان ومع الزمان تدرجت الدراسة من الكتاتيب إلى المساجد والتف الطلبة حول الشيوخ من حفاظ القرآن وقرائه ورواة الحديث وحملة الفقه وما إلى ذلك على غرار ما كان موجوداً بأمصار المشرق .

تلك كانت طريقة التعليم فى عاصمة المغرب ، أما طريقته فى البوادى والقرى حيث كانت الأغلبية للعنصر البربرى فقد نقل الينا أقدم المؤرخين الأفريقيين وهو سلام بن عمر خبراً مفيداً يرشدنا إلى وسيلة تعلم أبناء البربر لشرائع الدين قال : — أخبرنى أبو صالح النفوسى بتوزر قبل سنة أربعين ومائتين أن أول من علم القرآن بجبل نفوسه[٢٤] عمر بن يمكتن ويقال إن عمر هذا إنما تعلم القرآن بطريق مقمداس كان يتلقى فيها السابلة والمارة من المشرق فيكتب عنهم لوحه من القرآن وينصرف إلى منزلة فاذا حفظ مافيه رجع إلى المحجة فيكتب من المارة والرفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلم العلم وذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن فى أول الإسلام وقلة المعلمين فى البلدان . وكان عمر

---

(٢٣) كانت هذه البعثة مكونة من عشرة رجال هم : — ١ — عبدالله بن يزيدالمعافرى
٢ ـ اسماعيل بن عبيد الانصارى ٣ ـ عبد الرحمن بن رافع ٤ ـ سعيد بن مسعود التجيبى
٥ ـ موهب العافرى ٦ ـ حيان بن ابى جبلة القرشى ٧ ـ بكر بن سوادة الجذامى .
٨ ـ أبو سعيد جعثل ٩ ـ اسماعيل القرشى المخزومى ١٠ ـ طلق بن جعنان الفارسى ،
وانظر طبقات علماء إفريقية وتونس لابى العرب محمد بن أحمد بن تميم القيراونى ص ٨٤ ـ ٨٥ طبعة تونس سنة ١٩٦٨ (٢٤) ـ فى الجمهورية العربية الليبية ولاية طرابلس وبه قرى كثيرة عامرة

ابن يمكتن المذكور يعيش فى أوائل الدولة العباسية حوالى ١٤٠ هـ[٢٥] .

٤ — ولما وضعت حروب الفتح أوزارها امتزج العرب والبربر بالمصاهرة والمجاورة ، وقد أثمر هذا الامتزاج إخاء ومحبة فدان البربر بالإسلام وتعلموا لغته ، وما هى إلا أن تنشط الحركة الثقافية وتتعدد مراكزها فلم تعد القيروان وحدها بل شاركها غيرها كطرابلس وقابس والمهدية وسوسة وتونس وبونة وطبنه وأشير وصقلية والجزائر وتيهرت وبجاية والمسيلة وقسنطينة وتلمسان ووهران وفاس وأصيلا ومراكش وسبته وطنجة .

* * *

ولم يزدهر النقد الأدبى فى الأعم الأغلب إلا بتونس على عهد بنى الأغلب والفاطميين والصنهاجيين ثم الحفصيين ، وستثبت الدراسة صدق هذا القول فمعظم النقاد الذين عرضنا لهم إن لم يكن كلهم كانت بيئتهم أو قد خرجتهم تونس ، يقولون : إن ابن خلدون لما وضع أصول مقدمته سنه ٧٧٦ هـ بقلعة ابن سلامة فى جبل بنى راشد بالجزائر[٢٦] واحتاج إلى مراجعة أمهات الكتب نزل إلى تونس بقصد التزود والاستقصاء من المكتبة الحفصية بالقصبة وقد وصل عدد المخطوطات فيها إلى ستة وثلاثين ألفاً ، ولندعه هو يتكلم قال :

---

(٢٥) ورقات حـ١ ص ٨٠ — ٨١ .

(٢٦) موقعها فى الجنوب الغربى قرب مدينة فرندة من مقاطعة وهران ـ ولاية سعيدة الآن ـ وانظر جيلالى حـ٢ ص ٤٤ وص ١١٠ ، وفى هامش رقم ٤ ص ٢٢٨ من كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » مانصه : قلعة ابن سلامة أو بنى سلامة وتسمى قلعة تاوغزوت Taough zout تقع فى مقاطعة وهران oran وتبعد بنحوسته كيلومترات إلى الجنوب الغربى من مدينة frenda كما تبعد عن مدينة تيارت Tiaret فى الجنوب الغربى أيضا بتسع مراحل ، أما سلامة الذى تنسب إلى ابنه أو أبنائه هذه القلعة فهو سلامة بن على بن نصر بن سلطان رئيس بنى يدللتن من بطون توجين سكن تاوغزوت واختط بها القلعة فنسبت إلى ابنه أو بنيه .

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة ثم طال مقامى هنالك وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان وعاكف على تأليف هذا الكتاب » فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته وتشوقت إلى مطالعة الكتب والدواوين التى لا توجد إلا بالأمصار بعد أن أمليت الكثير من حفظى وأردت التنقيح والتصحيح فحصل عندى ميل إلى مراجعة السلطان أبى العباس والرحلة إلى تونس[٢٧]. ولم تكن المكتبة الحفصية وحدها هى المكتبة العامة بتونس فقد أنشأ السلطانان أبو عمرو عثمان الحفصى وحفيده أبو عبد الله محمد المكتبة العبدليه بجامع الزيتونه ونقلوا إليها ما كان فى قصورهم من المؤلفات العلمية والأدبية[٢٨].

* * *

ومن المفيد فى هذا التمهيد أن نقسم حالة العلم والأدب فى المغرب إلى المراحل الآتية : —

١ — عصر النشوء الثقافى: — ويبتدىء بعد الفتح الاسلامى بقليل وعلى وجه التحديد سنه ٥٠ هـ ببناء القيروان وتأسيس جامعها ، وينتهى بقيام الدولة الأغلبية سنة ١٨٤ هـ .

٢ — عصر نهضة العلم . — ويبتدئ بقيام الدولة الأغلبية وينتهى بسقوطها سنة ٢٩٦ هـ :

٣ — عصر ازدهار العلم والأدب : — ويبتدىء بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ وينتهى بسقوط بنى زيرى على يد الموحدين سنة ٥٤٧ هـ .

٤ — عصر نضج العلم والأدب : وهو عصر دولة الموحدين والدول التى

---

(٢٧) أنظر التعريف بابن خلدون ص ٢٣٠ .

(٢٨) المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ص ١٥٦ ـ ١٦١ وورقات حـ١ ص٣٣ وقد تولى الأول سنة ٨٣٩ هـ وتوفى سنة ٨٩٣ هـ وتولى الثانى سنة ٨٩٩ هـ وتوفى سنة ٩٣٢ هـ .

تفرعت عنها كالمرينيين والسعديين بالمغرب الأقصى ٥٩٢ — ٩٥٨ ﻫ وكبني زيان فى الجزائر ٦٣٣ — ٩٥٨ ﻫ .

والحفصيين بتونس ٦٢٧ — ٩٨١ ﻫ(٢٩) .

والآن مع كل عصر من هذه العصور فى كلمة موجزة .

## ١ — عصر النشوء الثقافى

وفيه تغلبت العلوم الدينية واللغوية، وكان القرآن الكريم محور كل حركة فكرية ، فهو قوام الدين ودستور السياسة وقاموس اللغة وديوان الثقافة ، ولم يكن من الطبيعى أن يقول المغاربة الشعر أو النثر أوائل هذا العصر لأنهم كانوا فى دور التلمذة ، لكن ما إن توسط القرن الثانى حتى أخذوا فى إنتاج الأدب شعره ونثره .

وأول عالم أديب نبغ فى هذه الفترة هو عبد الرحمن بن زياد القيروانى ومن شعره فى الحنين إلى وطنه لما كان بالمشرق : ـ

ذكرت القيروان فهاج شوقى ‏ ‏ وأين القيروان من العراق ؟
مسيرة أشهر للعيس نصاً ‏ ‏ على الابل المضمرة العتاق .
فأبلغ أنعما وبنى أبيه ‏ ‏ ومن يرجى له ولنا التلاقى .
بأن الله قد خلى سبيلى ‏ ‏ وجد بنا المسير إلى مزاق(٣٠)

وقد امتاز نثر هذا العصر بوضوح الفكرة وبساطة العبارة. أما الشعر فقد

(٢٩) جيلالى حـ٢ ص ١١١ ـ ١١٢ والمغرب العربى لرابح بونار ص ٤٩ — ٥٠ .
(٣٠) مزاق هى فحص القيروان . سمى بذلك لأن السحاب يتمزق فيه وانظر طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٠٢ .

طرق به أصحابه موضوعات الفخر والحماسة والوعيد والعتاب والحنين ونحوها أى أنهم عبروا به عن ذواتهم وحاجاتهم النفسية ، وقد اتسم لهـذا بالصدق ووقدة العاطفة .

## ٢ — عصر نهضة العلم والأدب

وقد سبق أنه يبدأ بقيام الدولة الأغلبية سنة ١٨٤ هـ وينتهى بقيام الدولة الفاطمية سنه ٢٩٦ والسبب فى هذا التحديد ان حكم الأغالبة قد اقترن فى نفوس المغاربة بشعورهم باستقلالهم وسريان الروح الوطنيه فى صفوفهم ، وأن الدولة الفاطمية قد صحبها بل سبقها تغيير جذرى فى المفاهيم السياسية والمذهبية .

وإنما كان هذا العصر عصر النهضة لأنه العصر الذى نضهت فيه العلوم ونهض فيه الأدب لأكثر من سبب ، وأكبر هذه الأسباب وأبرزها هو قيام الأغالبة بتأسيس بيت الحكمة القيروانى الذى ترأسه الأديب الكبير أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيبانى[٣١] وقد جلبوا إليه نفائس الكتب من العراق والشام ومصر واستقدموا له عددا من القساوسة الصقليين الذين عكفوا على الترجمة من اليونانية واللاتينية إلى العربية فى شتى الموضوعات من فلسفة وتاريخ وطب ونبات وحيوان وغيرها ، وكانت هذه الترجمات تتم بأشراف العلماء المغاربة والمتضلعين فى العربية كأسحق بن عمران[٣٢] الذى أشاع الفلسفة فى القيروان وفسر غامضها كما نشر علم الطب وما يتفرع عنه من فنون الحكمة والصيدلة وقد ظل بيت الحكمة يشع أضواءه العلمية فى المغرب إلى أن نقله الفاطميون إلى القاهرة بعد فتحهم لها وتحولهم إليها سنة ٣٦٢ هـ لكن نقله إلى القاهرة لم يمنع

---

(٣١) ترجمته فى الورقات حـ١ ص ٢٤٤ ومابعدها .
(٣٢) ترجمته فى الورقات حـ١ ص٢٣٣ ومابعدها .

من امتداد روحه وسريان تأثيره فى العقلية المغربية إلى مدينة فاس وما وراءها من بلاد الأندلس كقرطبة .

والسمات المميزة لهذا العصر هى :

١ — التفاف أبناء المغرب وصقلية حول جامع القيروان لقراءة الكتب التى ألفها مغاربة كتفسير محمد بن عبد السلام وكتب الطب لإسحق ابن عمران وبنى الجزار والكتب التربوية مثل آداب المعلمين لمحمد بن سحنون وأحكام المعلمين والمتعلمين لأبى الحسن على بن خلف القابسى ، وسياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار صاحب زاد المسافر وقوت الحاضر(٣٣) .

٢ — مشاركة المرأة فى العلم والأدب كخديجة بنت سحنون التى كانت تدرس فى حلقة وأبوها يدرس فى أخرى ، وكمهرية بنت الحسن بن غليون التى أتقنت العربية ونبغت فى القريض ، ومن شعرها هذه المقطوعة فى الحنين إلى أخيها الذى ارتحل إلى المشرق ولم يعد :

ليت شعرى ما الذى عاينته ... بعد طول الصوم مع نفى الوسن
مع غروب النفس عن أوطانها ... والتخلى عن حبيب وسكن
يا شقيقا ليس فى وجدى به ... غلة تمنعنى من أن أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى ... فكذا يبلى عليهن الحزن(٣٤)

٣ — الرحلة إلى المشرق ، وقد كثر ذلك حتى قل أن نجد عالماً أو أديباً لم يرتحل .

وهذا العصر كسابقه فى غلبه الثقافة الدينية ورجالها عليه فبينما نجد عشرات

---

(٣٣) المغرب العربى لرابح بونار صفحات ٦٣ — ٦٨ ، ٢٤٤ — ٢٤٦ ، ٢٦٢ — ٢٦٣ .
(٣٤) المجمل لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧١ والمغرب العربى ص ١٠٧ .

من الفقهاء فى كتب التراجم، لانجد إزاءهم من الأدباء إلا أفرادا قلائل، وحتى أولئك الأدباء نجد فيهم من جمع بين الفقه والأدب لـكن مقاطعهم الشعرية نقية الأسلوب متوهجة العواطف فصيحة الألفاظ ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تمـكن الروح الأدبية فى نفوس المغاربة .

ومن الأدباء غير الفقهاء أبو عبد الله محمد بن زرزر قالوا : كان حافظاً للغريب بصيراً بالعربية وشعره كثير جداً ، وأبو عقال غليون شقيق مهرية ، ومهرية .

وإذا كان الأدباء غير الفقهاء يمثلون الطبقة المتوسطة فى شعر النهضة فإنه قد نبغ منهم من يمكن تسميتهم بالشعراء المطبوعين أوالمبرزين كعبد الملك بن قطن المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ ، وقد كان عبد الملك هذا إمام أهل اللغة والرواية بالمغرب وأحفظ أهل زمانه لأنساب العرب وأيامهم وأشعارهم ، أما الشعر فله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة وجيدة ، وكمجير بن سفيان المتوفى سنة ٢٨٥ ﻫ وهو من أسرة بنى الأغلب ، وتولى لهم أعمالا عدة آخرها ولاية صقلية ، وقد خرج منها غازياً أرض قلوية فأسره الروم وحملوه إلى القسطنطينية ومن شعره فى هذه المحنة : —

ألا ليت شعرى ما الذى فعل الدهر ... بأخواننـا ياقيروان ويا قصر

ونحن فأنا طحطحتنـا يد النوى ... فلم يجتمع شمل لدينـا ولا وفر

رأينا وجوه الدهر وهى عوابس ... بأعين خطب فى ملاحظها شزر

لعل الذى نجى من الجب يوسـفا ... وفرج عن أيوب إذ مسه الضر

وخلص إبراهيم من نار قومـه ... وأعلى عصا موسى فذل له السحر

يصبر أهل الأسر فى طول أسرهم
على معضلات الأسر لا سلم الأسر (٣٥)

و نصل من شعراء هذا العصر إلى أميرهم وذروة سنامهم بكر بن حماد الزناتى التيهرتى أعظم شخصية فى الشعر الغنائى بالمغرب ومن لا نظير له به فى عمق تفكيره وأصالته البيانية . نشأ بكر بتيهرت وأخذ عن علمائها ثم التحق بالقيروان حوالى سنة ٢١٧ ﻫ واخذ بها عن سحنون وعون ابن يوسف وغيرهما ، ولما ارتحل إلى المشرق طاف بحواضره العلمية والأدبية واتصل بشعرائه الفحول أمثال دعبل وأبى تمام ومسلم بن الوليد وعلى بن الجهم وغيرهم ، وقد فتق هذا الاتصال موهبته الشعرية ، ولم يعد بكر إلى القيروان إلا وهو شاعر يشار إليه بالبنان .

وموضوعات شعره هى الموضوعات التقليدية ، ثم إنه حاول الابتكار فيما يمكن تسميته بالشعر الدينى الفلسفى .

اما اسلوبه فأسلوب عربى فصيح ، موسيقاه منسجمة وعباراته مختارة منمقة ، ومن شعره فى وصف برد تيهرت :

ما اخشن البرد وريعانه    واطرف الشمس بتيهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت    كأنها تنشر من تخت
فنحن فى بحر بلا لجة    تجرى بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس إذا ما بدت    كفرحة الذمى بالسبت

وقال يمدح احمد بن القاسم حاكم مدينة « كرت » بالمغرب الأقصى وهو من الأشراف الأدارسة :

(٣٥) مجمل تاريخ الأدب التونسى لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٦٧ — ٦٨ ، والمغرب العربى لرابح بونار ص ١١٦ — ١١٩ .

إن السماحة والمروءة والندى جمعوا لأحمد من بنى القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت فافخر بفضل محمد وبفاطم[٣٦]

ومن شعره السياسى قوله يمدح المعتصم العباسى ويحرضه على قتل دعبل : —

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشى على الأرض العريضة دعبل
أما والذى أرسى ثبيرا مكانه لقد كانت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يقول فيفصل
وعاتبنى فيه حبيب وقال لى لسانك محذور وسمك يقتل
وإنى وإن صرفت فى الشعر منطقى لأنصف فيما قلت فيه وأعدل[٣٧]

وحين نترك الجزائر وشاعرها بكر بن حماد لنلقى نظرة على المغرب الأقصى نجد أنه لبعده عن المد العربى الذى انساح من المشرق لم يتخذه العرب دار إقامة لهم اللهم إلا الولاة ومعهم بعض الجنود الذين لا حول لهم ولا طول وليسوا فى قليل أو كثير من شئون العلم والأدب ، والدليل على ذلك أن جيش طارق وهو اثنا عشر ألفاً لم يكن به سوى ثلاثمائة عربى ، وقيل ثلاثة عشر ، وأن ادريس الثانى لما استقبل فى سنة ١٨٩ هـ من الوفود العربية نحو الخمسمائة فارس فرح بهم وقربهم لأنه كان فريداً بين المغاربة وليس معه إلا عدد قليل من العرب فلا عجب إذا بقى المغرب الأقصى على جهله وتأخره ولم يسرع إلى التطور والتعرب والنقل عن أساتذته الجدد كما رأينا فى المغربين الأدنى والأوسط ، ولولا ذلك الشعاع الضئيل الذى انبعث من جامع القيروان ابتداء من سنة ٢٥٤هـ

---

(٣٦) أعاد الشاعر واو الجماعة على جمع مالا يعقل وهو خطأ نحوى .
(٣٧) الاستبصار ص ١٧٨ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٧٢ – ٧٤ والمغرب العربى ص١٢٠ – ١٣٤ .

وهى السنة التى أسسته فيها أم البنين الفهرية لـكان الليل حالـكا ، والجهل مطبقاً ، وإذا كان هذا المسجد قد أدى رسالته بشقيها الدينى والثقافى فى فاس ، فإن مساجد أخرى فى أصيلا والبصرة[٣٨] وسبتة وطنجة قد قامت بعده وأدت مثله رسالتها المزدوجة ، ومن الطبيعى أن تـكون حركة التعليم فى هذه المساجد وغيرها قاصرة على الفقه واللغة ، أما الأدب فيأتى بعد ، ونحن لهذا نعجز عن تبين ملامح أدبية فى المغرب الأقصى لهذا العهد .

## ٣ — عصر ازدهار العلم والأدب

وكانت السيادة فيه على المغرب الـكبير للدولة الفاطمية ٢٩٦ — ٣٦٢ هـ ثم الصنهاجية بفرعيها : بنى زيرى فى المغرب الأدنى ٣٦٢—٥٤٣ هـ وبنى حماد فى المغرب الأوسط ٤٠٤ — ٥٤٧ هـ ، وأخيراً المرابطين فى المغرب الأقصى ٤٤٠ — ٥٤٢ هـ .

وإنما ازدهر العلم والأدب على امتداد هذه الرقعة فى الزمان والمـكان لأن الفاطميين والصنهاجين والمرابطين كانوا جادين فى نشر مذهبهم وترسيخ حكمهم ، ومن هذا المنطلق كان إغداقهم على العلماء والأدباء وتشجيعهم لهم ، ولقد اصطنع الخلفاء الفاطميون .

الفضل بن نصر المعروف بابن الرايس ت ٣٤٤ هـ

وأبا القاسم القزارى ت ٣٤٥ هـ

وابن هانىء الأندلسى ت ٣٦٣ هـ

---

(٣٨) مدينة البصرة المغربية أسست فى عهد الادارسة ( ١٦٩ ـ ٣٧٥ ) بالقرب من مدينة القصر الـكبير وكانت داخلة فى ولاية القاسم بن إدريس لماقسم أخوه محمد المغرب بين إخوته وقد ازدهر عمرانها ثم خربت على يد أبى الفتوح بن زيرى الصنهاجى فى العصر نفسه . وانظر الاستبصار فى عجائب الامصار ص ١٨٩ والنبوغ المغربى حـ١ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

وعلى بن محمد الأيادى ت ٣٦٥ هـ

وغيرهم باعتبارهم صحفاً سياسية تؤيد دولتهم وتنشر دعوتهم[٣٩] كما اصطنع الصنهاجيون كثيرين كأبى اسحق الحصرى القيروانى ت ٤١٣ هـ وابراهيم ابن القاسم المعروف بالكاتب الرقيق القيروانى ت ٤٢٥ هـ ، وعبد العزيز ابن خلوف الحرورى ت ٤٣٠ هـ ، وأبى الفضل محمد ابن عبد الواحد الدرامى البغدادى ت ٤٥٤هـ وابن رشيق ت٤٥٦هـ وابن شرف ت٤٦٠هـ، وعلى بن يوسف التونسى ، ويعلى بن ابراهيم الأركشى ، وأبى حفص عمر بن فلفول وعلى ابن زيتون ويوسف بن المبارك ، وابن قاضى ميلة ، وابن أبى المليح الطيب ، وابن حمديس الصقلى ، والقرشى وغيرهم[٤٠]. وقد اشتهرت مراكز ثقافية كثيرة كانت مغمورة كتيهرت التى بناها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٤٨ هـ غربى المدينة الرومانية الحالية تيارات واتخذها عاصمة له وقد ظلت كذلك إلى انهيار الدولة الرستمية سنة ٢٩٦[٤١]

وكطبنة عاصمة الزاب غربى أوراس ، جددها بأمر من الخلافة العباسية عمر بن حفص المهلبى المعروف بـ هزار مرد والمشهور بأبى الدوانق سنة ١٥٤هـ[٤٢] وإليها ينسب الأديب الكبير والشاعر المفلق أبو مضر محمد بن الحسين التميمى الطبنى المتوفى سنة ٣٩٤ ومنها كان ارتحاله إلى الأندلس سنة ٣٢٥هـ ، وقد ذكر ابن سعيد أنه أصل بيت الطبنى بقرطبة[٤٣] ، وأسست مراكز جديدة لم تكن

---

(٣٩) أنظر المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص٨٣ ـ ١٠١ وشخصيات أدبية ص٢٩٤ ـ ٣١٠

(٤٠) أنظر فى تراجم هؤلاء البيان المغرب لابن عذارى جـ١ ص ٢٦٧ والمغرب العربى لرابح بوتار ص ٣٠٤ ـ ٣٥٠ وبساط العقيق فى تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٨١ ـ ١٣٤ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٢١ ـ ١٥٤ .

(٤١) الاستبصار ص ١٧٨ وجيلالى حـ١ ص٢٢٠ .

(٤٢) الاستبصار ص١٧٢ وجيلالى حـ١ ص٢٩٦ .

(٤٣) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد حـ١ ص٢٠١ وانظر جيلالى حـ١ ص ٢٧٩ ، المغرب العربى لرابح بونار ص٢٩٢.

موجودة كالمهدية التي بناها عبيدالله المهدى سنة ٣٠٣هـ ، والمحمدية التي اختطها القائم بأمر الله أبو القاسم محمد سنة ٣١٥ هـ [٤٤] ، وأشير التي أسسها زيرى ابن مناد سنة ٣٢٤ هـ وسورها ابنه بلكين سنة ٣٦٨ هـ [٤٥] ، والقلعة التي انشأها حماد بن بلكين سنة ٣٩٨هـ في المكان المعروف الآن بقلعة أبي طويل . قال صاحب الاستبصار : « ولبنى حماد بالقلعة مبان عظيمة وقصور متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسوارى ما يقصر عنه الوصف » [٤٦] .

وبجاية التي بناها الناصر بن علناس سنة ٤٦٠ هـ على مقربة من صلداى الفينيقية ثم انتقل إليها ورغب الناس في سكناها برفع المكوس عن اهلها . قال الادريسى عنها : مدينة بجاية مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بنى حماد ، وقال العمري في مسالك الأبصار « بجاية ثانية تونس والعاصمة الثانية لأفريقية » وما أروع هذه الأبيات في وصفها للشاعر أبي علي حسن بن الفكون القسنطيني وقد سماها « الناصرية » نسبة إلى بانيها قال :

دع العراق وبغدادا وشامهما ... فالناصرية ما إن مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به ... مسارح بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع ... حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
إن تنظر البر فالأزهار يانعة ... او تنظر البحر فالأمواج تطرد

---

(٤٤) جاء في الاستبصار انها بنيت سنة ٣١٣ هـ ص ١٧٢ .

(٤٥) جاء في الاستبصار أنها كانت مدينة قديمة ، وإنما بنى زيرى سورها وحصنها وعمرها ص ١٧٠ .

(٤٦) الاستبصار ص ١٦٨ .

ياطالبا وصفها إن كنت ذا نصف     قل جنة الخلد فيها الأهل والولد(٤٧)

وقد أمضيت ببجاية وقلعتها يوم ١٩٧٢/٤/٣٠ وشاهدت فيها قصر اللؤلؤة الذى بناه الناصر ابن علناس وقد كان أحد عجائب الدنيا. وبجاية تشبه مدينة بور سعيد فى موقعها على البحر الأبيض المتوسط وفى تحضرها. أما القلعة فهى تشبه قلعة صلاح الدين فى تحصينها، وبها قصر العروسين الذى بناه الناصر، ويطل على القلعة وبجاية معا أعلى منار فى العالم وهو المنار الذى بناه المنصور ابن الناصر. وفى هذا الخضم الحافل بالآثار التاريخية توجد عين سلام وهى عين بالوادى المعروف بوادى جراوة من نواحى القلعة. لكن جاء فى كتاب الاستبصار أن بين بجاية والقلعة مسيرة أربعة أيام(٤٨).

ويمكن التوفيق بين القولين بأن هناك قلعتين قلعة بنى حماد وموقعها بجبال المسيلة شرقى صنهاجة وجنوبى زوارة وهى التى ذكر صاحب الاستبصار أنها تبعد عن بجاية مسيرة أربعة أيام وكانت العاصمة، وقلعة بجاية، ويظهر أنها بنيت وحدها فى مكانها بقصد التحصين والدفاع ضد الهجمات البحرية ثم بنيت بجاية شماليها على البحر واتخذت عاصمة بدلا من القلعة الأولى.

وقد خرجت هذه البيئات الجم الغفير من العلماء والأدباء، وأمها غير واحد من هؤلاء وهؤلاء قال ابن الكفاة القيروانى وقد شد الرحال إلى آل حماد: —

قالت سعاد وقد زمت ركائبنا     مهلا عليك فأنت الرائح الغادى

---

(٤٧) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية لأبى العباس أحمد الغبرينى تحقيق رابح بونار ٣ — ١١ وص ٢٨٠ طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧٠ والمغرب العربى لرابح بونار ص ٢٠٥ — ٢٠٦.

(٤٨) ص ١٢٩ وانظر دليل متحف سصيف إعداد الطيب جغيان ص ٢٠ طبعة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

فقلت تا الله لا أنفك ذا سفر        تجرى بى الفلك أو يحدو بى الحادى
حتى أقبل ترب العز منتصراً        بالناصر بن علناس بن حماد(٤٩)

وإذا كان هذا العصر قد امتاز بشيوع المناظرات بين دعاة الشيعة وأهل السنة وباتساع الأبحاث الفقهية والدينية بصفة عامة حتى إن الفقهاء لدى المرابطين كانوا هم القوامين على شئون الدولة إلا أن الازدهار الأدبى كان واضحاً وملموساً ، فقد اتسعت موضوعات الأدب وترقت وطرأت عليه فنون جديدة لم تكن موجودة كالقصص الشعرى وشعر التوسلات والموشحات.

ويمكن القول بأن هذه المناظرات كانت سبباً من أسباب ازدهار العلم والأدب فى هذا العصر ، لأن العبيديين لما اصطفوا عدداً من الشعراء وأجزلوا لهم العطاء حتى إن المعز لدين الله وصل ابن هانىء بستة آلاف دينار جائزة له على أول قصيدة أنشأها فيه ، نقول : إن هذا العمل من جانب الشيعيين كان له رد فعل يكاد أن يتعادل معه من جانب السنيين ، فأى تكتل لابد أن يسعى إلى بسط نفوذه وتدعيم مذهبه وكل حزب بما لديهم فرحون ، وقد نشأ عن هذا الحوار بل عن هذا الشجار ازدهار فكرى فكثر عدد العلماء والأدباء وتولد الاختراع فى المعانى والتسابق إلى الإجادة ، ولم تقتصر أسباب الازدهار على هذا الصراع بين الأفكار ، بل انضمت إليه روافد أخرى منها التمدن الإسلامى الذى وصل إليه المغرب العربى بفضل الولاة الأمويين والعباسيين وعلى يد الأغالبة والفاطميين .

ومهما يكن من أمر فإن العصر الذهبى للمغرب العربى إنما هو العصر الصنهاجى الذى بلغت فيه البلاد قمة رقيها ومجدها وذروة حضارتها ونضارتها

(٤٩) المغرب العربى ص ٢١١ .

فتمتع الناس بالثروة والعلم والفنون الجميلة ومالوا إلى اقتناء الكماليات المادية والمعنوية فزها الأدب وسار الشعر فى مدارج الرقى وراجت سوق الأفكار رواجاً عظيماً . وقد ساعد على ذلك إقبال الصنهاجيين على العلم والأدب وأخذهم بيد العلماء والأدباء رغبة منهم فى بث المعارف وتقديراً لأصحاب المواهب ، كان المعز بن باديس وقد حكم أكثر من أربعين سنة — لا يسمع بعالم جليل أو شاعر عظيم إلا أحضره إلى حضرته وجعله من خاصته حتى سار بذكره الركبان وانتجعه العلماء والأدباء من كل مكان، وقدبالغ فى إكرامهم وعول على آرائهم ومنحهم أسمى المراتب وأعلى الرواتب ولا عجب .

فهم علماء الناس ما عنهم غنى　　　وهم شعراء الملك ما منهم بد

وقد ترجم له الكاتب الأندلسى أمية بن أبى الصلت فقال : — ولم يكن أحد فى زمانه أشد بأساً فى الملاحم ولا أطول يدا بالمكارم ولا أعنى بلسان العرب ولا أحنى على الأدب منه ، وكان متوقد الذهن حاضر الخاطر حاذقاً بطرائق الألحان عالماً بالمنثور والمنظوم من الكلام ، مدحه كثير من الشعراء فأجزل لهم العطاء(٥٠) وقال ابن خلكان : كان المعز بن باديس محباً لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء وكانت حضرته محط بنى الآمال.وقال فى حق ابنه الأمير تميم : كان محباً للعلماء معظماً لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار وكان يجيز الجوائز السنية ويعطى العطاء الجزيل(٥١) .

واقتدى الرؤساء والكبراء بسيرة ملوك صنهاجه نحو ذوى القرائح فقدح هؤلاء زناد عقولهم وتسابقوا فى إظهار علمهم وأدبهم وكانت مدينة القيروان

---

(٥٠) البيان المغرب حـ١ ص ٣٠٦ .

(٥١) حـ٣ ص ١٩

— وهى سادسة الأمصار العربية مع القاهرة وبغداد ودمشق والكوفة وقرطبة — قد بلغت منتهى عمرانها فقصدها الناس من كل حدب وصوب للارتزاق أو للعلم والأدب أو اللهو والطرب والتقى فيها الحجازى باليمنى والعراقى بالشامى والمصرى بالأندلسى والسودانى بالصقلى وغيرهم وقد وصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى فقال : —

كانت مصراً بهياً عظيماً قد جمع أضداد الفواكه والسهل والجبل مع علم كثير لا ترى أرفق من أهلها ، ليس بينهم غير حنفى ومالكى مع ألفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية فهى مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان . أرقى من نيسابور وأكبر من دمشق وأجل من أصبهان ، بها جامع بموضع يسمى السماط الكبير وهو أكبر من جامع ابن طولون[٥٢] ولم تستقل القيروان بتبحر العمران فإن بقية الحواضر المغربية وبخاصة المهدية قد كان لها حظ وافر من المدنية الإسلامية ومشاركة كبيرة فى الحركة الفكرية[٥٣] فلا عجب إذ اخطر الأدب من نثر ونظم فى حلل التفنن والرقة وظهر فيه الاختراع الجيد وتوليد المعانى العميقة مثلما حدث بالعراق فى مبدأ الدولة العباسية لما طعمت اللغة العربية بالآداب الفارسية والهندية وبالفلسفة اليونانية .

ولنذكر أنه فى عهد الصنهاجيين تطور النثر الفنى تطوراً عظيماً من حيث

---

(٥٢) شخصيات أدبية ص ١٢١ .

(٥٣) نقل التجانى فى رحلته عن إبراهيم بن القاسم الرقيق أن عبدالله المهدى لما بنى المهدية سنة ٣٠٣ هـ جعلها دار مملكة ، ثم ذكر أن المنصور بن القائم لما انتصر على أبى يزيد سنة ٣٣٦ هـ انتقل إلى مدينة صبرة وهى ملاصقة للقيروان أول سنة ٣٣٧ هـ ، وهذا هو السبب فى تسميتها بالمنصورية ولم تزل صبرة دار ملكهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة ، وحكم الصهاجيون من صبرة إلى أن اضطر المعز بن باديس إلى الخروج عنها إلى المهدية سنة ٤٤٩ هـ ( الرحلة ص ٣٢١ ومن ص ٣٢٨ إلى ص ٣٢٩ ) — وقد ذكر صاحب الاستبصار : أن إسماعيل هو الذى بنى مدينة صبرة وسماها المنصورة لا المنصورية كما جاء فى الرحلة وانظر الاستبصار ص ١١٥ .

أسلوبه وأفكاره وموضوعاته وعلت منزلة أصحابه حتى كان ابن أبى الرجال الرجل الأول فى البلاط الصنهاجى .

وفى عهدهم ازدهر النقد الأدبى واشتهر أبرز رجاله كالنهشلى وابن رشيق وابن شرف ، وفيه أيضاً راج استعمال البديع وتركت الألفاظ الوحشية جرياً مع تيار الحضارة وقد أثر ذلك فى القوالب الشعرية وفى الصياغة الأدبية بصفة عامة .

وجملة القول أن أدباء هذا العصر كانوا أوسع مادة وأرحب أفقاً وأنبل غرضاً لأنهم كانوا يعبون من المحيط الحضرى المتمدن ويرفلون فى حلل البلاط الصنهاجى .

ولم يتخلف المغرب الأقصى عن موكب التقدم كالمرة السابقة ، فقد خطا الأدب فيه خطوات موفقة لامتزاج المغاربة بالأندلسين على عهد المرابطين ، فكما كانت الأندلس هى المهجر لمن لم تساعده الحال من أبناء المغرب فى العصر السابق ، صار المغرب هو المهجر بالنسبة للأندلسين فى هذا العصر ، ولما بنى أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين مدينة مراكش سنة ٤٥٥ هـ صارت مهوى أفئدة المثقفين ومطمح أنظار المتأدبين . يقول ابن عذارى فى المغرب : وانقطع إلى أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباسى فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار .

وهذا الكلام لابن عذارى يدحض القول بأن غير الفقهاء لم يكن لهم قبول فى هذه الدولة ، فالأمر على ما يظهر إنما يتعلق بالنفوذ والسيطرة ، وتلك هى سيادة القانون التى يمثلها الفقهاء دائماً ، على أن أغلب أهل العلم والأدب فى العصور المتقدمة كانوا ممن درسوا الفقه وشاركوا فى معرفة أصوله وفروعه .

والقب « فقيه » كثيراً ما كان يطاق على العالم بأى علم كان ولو لم تكن له ممارسة للفقه ، فربما عنى المؤرخون الذين يتحدثون عن تقريب الدولة للفقهاء واختصاصها لهم انها قربت أهل العلم واختصتهم بالرعاية من دون الزعماء وأهل العصبيات القبلية كما كان الشأن فى الدول التى قبلها والتى بعدها . قال ابن خلدون فى المقدمة : « إنما كان القضاء فى الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومن إليها كما هى الوزارة لعهدنا بالمغرب(٥٤) .

## عصر نضج العلم والأدب

وقد قلنا انه عصر دولة الموحدين والدول التى تفرعت عنها كالمرينيين والسعديين بالمغرب الأقصى ؛ والحفصيين بالمغرب الأدنى وبنى عبد الواد أو الزيانيين بالمغرب الأوسط .

كانت الغاية المتوخاة من حركة عبد الله بن ياسين أستاذ المرابطين هى نشر الدين والتمكين لتعاليمه من النفوس ، ولما قام المهدى ابن تومرت أستاذ الموحدين بحركته المناوئة للمرابطين كان يرمى إلى غاية أبعد من غاية سلفه وهى تجديد الدين، وتجديد الدين مهمة تقتضى من التوسع فى العلم أكثر مما يقتضى نشر الدين ومن هنا كانت العلوم على اختلافها من عقلية ونقلية ألزم للدعوة الموحدية من أختها المرابطية ، وإذا كان هذا منطقا مجرداً فإن الواقع التاريخى يشهد له بأنه قد وضع موضع التنفيذ ، واسمع المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ثالث خليفة موحدى وهو يقول بحضرة كافة الموحدين وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه

---

(٥٤) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس للرعينى ص ١٠٧ وانظر النبوغ المغربى لعبد الله كنون حـ١ ص ٧١ .

يا معشر الموحدين : أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجـأهم إلىَّ فزعهم وإلىَّ ينتسبون .

قال المؤرخون ، فمنذ ذلك اليوم عظم أمر الطلبة وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم[٥٥]

ويعقوب هذا هو الذى منع الطبيب أبا بكر بن زهر من مغادرة حضرته حرصا عليه وحباله حتى قال يوما يتشوق إلى ولد له صغير :

ولى واحد مثل فرخ القطـا صغـير تخلفت قلـبى لديه
وأفردت عنـه فيـا وحشتى لذاك الشخيص وذاك الوجيـه
تشـوقنى وتشوقتـه فيبكى علىَّ وأبـكى عليـه
وقـد تعب الشوق ما بيننا فمنـه إلىَّ ومنى إليـه

ولما سمع المنصور هذه الأبيات رق لصاحبه وأرسل المهندسين إلى أشبيلية ليأخذوا فـكرة عن بيته وموقعه ، فلما عادوا إليـه أمرهم أن يقلدوا بمراكش ما رأوه فى أشبلية ، وحين أنجزوا ما أمرهم به نقل عيـال ابن زهر وحشمه وأسبابه إليه ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع ورآه يشبه بيته فاحتار لذلك وظن أنه يحلم فقيل له : ادخل البيت الذى يشبه بيتك ودخل فإذا ولده الذى تشوق إليه يلعب فى البيت[٥٦] .

ولا شك أن هذه همة عالية فى رعاية العلماء والشغف بهم وعدم التفريط فيهم .

---

(٥٥) النبوغ المغربى حـ١ ص ١٢٠ .
(٥٦) النبوغ المغربى حـ ١ ص ١٣٥ .

هذا الخليفة بذكر المؤرخون له أنه جمع من كتب السنة أحاديث فى العبادات كان يمليها بنفسه على الناس ويكافئهم على حفظها وقد انتشر هذا المجموع فى جميع بلاد المغرب وحفظه الخاصة والعامة . وعلى الجملة كان الموحدون يدعون إلى الاجتهاد فى الدين غير متقيدين فى ذلك الا — بالكتاب والسنة وحتى مذهب مالك لم يكن له عندهم ما كان له عند من قبلهم ومن بعدهم بل إنهم حاربوه كما حاربوا غيره من المذاهب والأصول . قال الحافظ أبو بكر ابن الجد :

لما دخلت على أمير المؤمنين يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لى : — يا أبا بكر : أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله .

أرأيت يا أبا بكر ؟ !! المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا . فأى هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ ؟ ! ! فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقطع كلامى بقوله : يا أبا بكر : ليس إلا هذا — وأشار إلى المصحف أو هذا ـ وأشار إلى سنن أبى داود ـ أو السيف[٥٧] وإذا كان الظاهر من هذا التصرف أنه ضغط على حرية العلماء والمفكرين وتضييق لدائرة عملهم ، فأن الحقيقة أنه ضغط نحو العمق واتساع فى أصول الدين ومصادر التشريع وذلك لما ترتب عليه من عكوف العلماء على الكتاب والسنة ونبوغ الكثير منهم فى علوم التفسير والحديث والكلام والأصول .

والموحدون كالعباسيين فى تنشيط العلوم الحكمية وتشجيع رجالها المبرزين

(٥٧) النبوغ المغربى ﺣ ١ ص١١٩ .

وقد زاد عليهم فى ذلك يوسف بن عبد المؤمن فهو الذى ناصر الفلسفة ورعى أهلها وكان هو نفسه مشتغلا بها مشاركا فى جملة من فنونها ،وممن صحبه من رجالها أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف الاسلامى الكبير وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد وامتدحه له وألحقه بخـــدمته ، ثم هو الذى وجه ابن رشد إلى تلخيص أرسطوطاليس ، حكى ابن رشد قال : ـ لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يثنى على ويذكر بيتى وسلفى ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى ، فكان أول مافاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألنى عن عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال :

ما رأيهم فى السماء — يعنى الفلاسفة — أقديمة هى أم حادثة ؟ فأدركنى الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بالفلسفة ولم أكن أدرى ماقرره معه ابن طفيل ، وفهم أمير المؤمنين منى الروع والحياء فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التى سألنى عنهـــا ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت فعرف ماعندى من ذلك فلما انصرفت أمر لى بمال وخلعة سنية ومركب . وقد استدعانى أبو بكر بن طفيل يوما فقال لى : إن أمير المؤمنين يشتكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول :— لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرب مأخذها على الناس ،فأن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وأنى لأرجو أن تفعل لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة ،وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سنى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى إلى ماهو أهم عندى منه . قال ابن رشد فكان هذا

الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس[٥٨] .

* * *

وبعد الموحدين جاء المرينيون وهم فخذ من زناته يمتون فى عداد قبيلتهم هذه إلى قيس عيلان فهم عرب خلص .

قال شاعرهم عبد العزيز الملزوزى :

فجاورت زنانة البرابرا فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى أقوالهم ولم يبدل منتهى أحوالهم

ويقتضينا الأنصاف أن نقول : — إن بنى مرين كانوا مخلصين للعروبة والعربية أكثر من الموحدين بدليل أنهم لم يكونوا — متعصبين للبربر والبربرية كما كان الحال فى عهد الموحدين ، وقد أعاد سلاطينهم إلى الأذهان ما كان من أبهة الخلافة أيام الأمويين والعباسيين فكان خروج السلطان لصلاة الجمعة والعيدين وفى المناسبات الأخرى يقع فى مشهد عظيم وموكب فخم ، وكثيراً ما أغرت هذه المظاهر كبار العلماء والأدباء فى المغربين الأدنى والأوسط وفى الأندلس فغادروا بلادهم وأموا الحضرة الفاسية ليتمتعوا فى كنف الدولة المرينية بما يشاءون ، ومن هؤلاء ابن خلدون وابن الخطيب وابن الأحمر وابن رضوان وابن مرزوق وابن جزى والمقرى وغيرهم ممن لا يتسع المقام لذكرهم ، وقد بالغ المرينيون فى تقريبهم إليهم واحتضانهم لهم حتى ان كثيراً منهم ذهب ضحية هذا الاحتضان وذلك التقريب ،قالوا : إن عدد من غرق من العلماء مع أسطول أبى الحسن المرينى فى الميـــاه الأقليمية لتونس سنة ٧٤٩ هـ أربعمائة عالم[٥٩] ،وإذا كان هذا عدد من غرق فما الظن بمن لم يغرق أو بمن لم يصحب

(٥٨) النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٣٤ .
(٥٩) النبوغ المغربى جـ ١ ق ١٨٥ .

السلطان أصلا؟ الا بد أن العلماء كانوا من الكثرة والوفرة بحيث أن من يصحب السلطان فى خرجة من خرجاته يبلغ مثل هـذا العدد ولا عجب فأن ما عمله المرينيون فى هذا الصدد يجعلهم جديرين بلقب دولة العلم وهو لقب يطلقه عليهم المؤرخون ويسمون عصرهم لهذا عصر إنشاء المدارس ومعاهد التعليم ، وهم محقون ، فقد تفوق المرينيون على من سبقهم وعلى من جاء بعدهم من ملوك المغرب : —

أنشأ السلطان أبو عنان خزانة القرويين وأودعها الكثير من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى وعين لها قيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٥٠ هـ(٦٠) .

وقبل أبى عنان اشترط السلطان يعقوب المرينى على ملك الأسبان شانسو الرابع فى معاهدة الصلح التى عقدها معه أن يعيد إليه جميع المخطوطات العربية التى حازها أيام استيلائه على قرطبة وأشبيلية فبعث إليه شانسو المذكور ثلاثة عشر حملا من الكتب وزعها يعقوب على خزائن المغرب(٦١) .

وليس هذا فقط بل إن السلاطين من بنى مرين كانوا علماء أدباء إذ كان الواحد منهم يعكف فى نشأته على الدراسة والتحصيل ولا يمنعه ما هو مأخوذ به من قيود الملك والرياسة أن يدأب على النظر فى فنون العلم والأدب حتى يصير

(٦٠) تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٩٨ . والنبوغ المغربى ج ١ ص ١٨٥ .
(٦١) تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ١٠١ . والنبوغ المغربى ج ١ ص ١٨٦ .

من رجالهما المعدودين. كان السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم وكان أخوه الأمير أبو مالك ممن لهم اليد الطولى فى الأدب ، والعارضة القوية فى قرض الشعر .

وكان السلطان أبو الحسن بن أبى سعيد من كبار العلماء ، ففى حياة والده كان معدوداً فى الأطباء،وفى مدة توليه الحكم أكثر من مجالسة العلماء والأدباء ومذاكرتهم ومحادثتهم وكان شديد الألف لهم لا يصبر على فراقهم

وكذلك أخوه الأمير أبو على كان محباً للعلم مولعا بأهله منتحلا لفنونه له بصر بالبلاغة واللسان وملكة فى نظم الشعر،وقد تنافس مع أخيه أبى الحسن على الكاتب عبد المهيمن الحضرمى فى حياة والدهما حتى كادا يقتتلان عليه فألحقه والدهما بخدمته ، وكان السلطان أبو عنان ابن أبى الحسن فقيها يناظر العلماء الفضلاء عارفا بالمنطق وأصول الدين مجوداً للقرآن ملما بناسخه ومنسوخه حافظا للحديث عارفا برجاله فصيح القلم كاتبا بليغاً حسن التوقيع شاعراً مجيداً له مقطعات شعرية حسنة . ومثل هذا يقال عن السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم بن أبى الحسن وولده أبى فارس عبد العزيز[٦٢] .

فلا غرو أن تنشط الحركة العلمية فى هذا العصر وهى تحظى برعاية ملوك من هذا القبيل ، ولا غرو أن تعيش العلوم الأدبية فى ظل المرينيين عصرها الذهبى وأن يبلغ الإنتاج الأدبى فيه ذروة التجويد .

* * *

وبعد المرينيين جاء الوطاسيون ثم السعديون . وفى عهدهما تعثرت خطا

(٦٢) النبوغ المغربى ج ١ ص١٨٨ — ١٨٩ .

العلم والأدب لانستثنى من ذلك إلا الفترة التى حكم فيها أبو العباس أحمد بن عبد الله السعدى المشهور بالمنصور الذهبى ، ففى عهده عاد لد ولة الأدب سالف مجدها وسابق عزها فصرنا نرى أفواج الشعراء تموج فى بلاط ذلك السلطان وبلغاء الكتاب يغص بهم ديوانه وعدنا نشهد مساجلة السلطان لأهل مجلسه ومطارحته إياهم الطرائف والملح ، وإنك لتعد من نوابغ عصره ولاتعدهم لكثرتهم وتعدد اتجاهاتهم ، أما زعيمهم فهو عبد العزيز القشتالى ( ٩٥٢ — ١٠٣٢ ﻫ ) الذى كان المنصور يقول عنه « نفتخر به على ملوك الأرض ونبارى لسان الدين بن الخطيب » .ولا عجب فعبد العزيز من أفضل أدباء المغرب الذين برزوا فى الصناعتين وهو صاحب ديوان الانشاء فى دولة المنصور ، وهناك أديب قشتالى آخر هو الوزير أبو عبد الله محمد بن على بن إبراهيم القشتالى ت ١٠٢١ ﻫ كان كاتباً شاعراً أيضاً ، وأديب ثالث هو أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى ، وهو يعتبر بحق شاعر الدولة فقد كان شديد الاتصال بالمنصور ينهض بين يديه فى الاحتفالات الرسمية وفى المواسم والاعياد ينشده شعراً متنبي النزعة جزل المعانى فخم الالفاظ .

ومن الشعراء الذين كانوا يمثلون النزعة الأندلسية فى الشعر المغربى أبو الحسن الشامى والقاضى الشاطبى والوزير الشيظمى ، وهناك طائفة من الشعراء كانت تمزج الجد بالهزل وتنفخ فى الفن روح الفكاهة ، وكان المنصور يعجبه ذلك منها ويثيبها عليه كثيراً وقد انفرد عصره بهذا المذهب أو كاد إلا أنه لم يتمكن من القوة والظهور لأن وفاة المنصور قضت عليه فى مهده .

ومن أفرادهذه الطائفة أبو عبدالله محمدبن عمر والشاوى ورابح بن عبدالصمد وأبو اسحق الزرويلى هذا فضلا عن الأدباء غير المغاربة ممن أووا إلى حرم المنصور وتفيئوا ظله كأبى العباس المقرى صاحب نفح الطيب ، ولقد انتظم فى

مجلسه يوما وفد عمدته ثلاثة أشخاص : مكى ، ومدنى ، ومقدسى ، فقام المكى وقال : يا أمير المؤمنين : إن المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال قد شد أهلها إليك الرحلة وأنشد :

إن أمير المؤمنين أحمـــد ... بحر الندى وفضـله لا يجحد
فطيبـــــة ومكة أهلهما ... والمسـجد الأقصى بذاك تشهد

ثم قال : نصرك الله إنه لم يتفق مثل هذا لملك قصدت إيالته ، قال المقرى : فتبسم لذلك أيده الله وأجزل لهم فى العطاء وإجراء النفقة عليهم كما هو دأبه بكل وافد عليه من أى بلد كان .

والمنصور نفسه كان أديباً شاعراً ، أنزله مؤرخو الأدب من ملوك المغرب منزلة ابن المعتز من ملوك المشرق بجامع البديع ، وإذا كان ابن المعتز قد ألف بل هو أول من ألف فيه ، فإن المنصور الذهبى قد التزمه وأغرم به وشجع عليه . هذا فى الأدب ، أما فى العلم فقد جزم علماء عصره بأنه المجدد فى القرن العاشر الهجرى[٦٣] .

* * *

إلى الآن كان كلامنا فى هذه المرحلة عن المغرب العربى ونحن وقوف عند حده الغربى وهو المحيط الأطلسى ، فكنا نصف ما بين أيدينا وما أمامنا ونحن ننظر فى اتجاه الشرق إلى المغربين الأوسط والأدنى بل وما وراءهما إلى الحدود الغربية لجمهورية مصر العربية ، لكن المجال واسع والمدى فسيح ، ولا بد للرؤية عند نهايتها من أن تضعف ثم تضعف إلى أن تتلاشى . وقد آثرنا لهذا أن نلقى نظرة ثانية على المغرب ونحن وقوف فى الاتجاه العكسى أى ونحن فى تونس الحفصية إلى حين تخليصها من الأسبان ، على يد الأتراك العثمانيين

(٦٣) النبوغ جـ ١ ص ٢٦٠ — ٢٦٦ .

سنة ٩٨١ ه[٦٤] ، ولا بأس بعد ذلك من أن ننتقل إلى منطقة الوسط ، وأن ننظر عن يمين وشمال لنرى ماذا فعلت دولة بنى زيان فى تلمسان بين الحفصيين والمرينيين .

* * *

ينتسب الحفصيون إلى رجل من خاصة ابن تومرت هو أبو حفص عمر ابن يحيي الهنتاتى نسبة إلى قبيلة هنتانة وهى فرع من المصامدة ، وقد برهن أبو حفص هذا على كفاءته وإخلاصه فى جميع الأعمال والولايات التى تولاها لدولة الموحدين بالمغرب الأقصى والأندلس ، ولما مات سنة ٥٧١ه كافأته الدولة الموحدية على إخلاصه لها بأن أحلت أبناءه محله فيما كانت تكله إليه من أمر ، وظل ذلك تقليداً متبعاً إلى أن تولى عرش الموحدين الخليفة محمد الناصر ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فعقد على ولاية تونس لأبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص يوم ١٠ شوال سنة ٦٠٣ ه وكان أبو محمد هذا متزوجاً عمة الخليفة فاستمر فى ولايته على تونس إلى أن مات سنة ٦١٨ ه وفى سنة ٦٢٥ه أفضت إمارتها إلى أبى زكريا يحيي بن الشيخ أبى محمد بن عبد الواحد ابن أبى حفص الذى أعلن استقلاله عن دولة الموحدين سنة ٦٣٤ ه ولم يتسم بأمير المؤمنين وإنما اقتصر على الأمير ، ولما قال له أحد الشعراء :

ألا صل بالأمير المؤمنينا  فأنت بها أحق العالمينا

زجره ولم يقبل قوله .

وفى سنة ٦٣٥ ه وصلته بيعة زيان بن مردنيش صاحب شاطبة .

وفى سنة ٦٤٠ ه وصلته بيعة سبتة والمرية .

---

(٦٤) المؤنس ص ١٦٤ — ١٧٩ .

وفى سنة ٦٤٣ هـ وصلته بيعة أشبيلية وغرناطة .

هكذا كان حال الحفصيين فى مبدأ أمرهم ، أما منتهاه فقد كان على يد العثمانيين سنة ٩٨١ كما قلنا ، وقد حكموا ٣٧٨ سنة[٦٥] .

وإذا كان ما قلناه هو الواجهة السياسية للدولة الحفصية ، فإن الحركتين العلمية والأدبية تمثلان الواجهة الفكرية والثقافية ولقد كانت واجهة مشرقة . وأسباب ذلك كثيرة منها :

١ — أن الدولة الحفصية فى مبدأ أمرها كانت دولة موحدية وقدأخذت عنها تشجيعها للعلم والأدب واستمر ذلك بعد استقلالها عن أصلها الموحدى .

٢ — اتساع رقعة الدولة الحفصية ، فقد امتد نفوذها إلى المغربين الأوسط والأقصى والأندلس بينما وقفت دولة بنى زيان بتلمسان عند ظلها لم تتجاوزه ، أما دولة بنى مرين فلم يتعد طموحها حدودها إلا إلى تلمسان فى بعض الأحيان وحين تعدى ذلك إلى تونس فى عهد أبى الحسن المرينى دفع هذا السلطان ثمن هذه المجازفه غالياً : عرشه وجيشه وأسطوله وصفوة الصفوة من علمـــاء وأدباء دولته .

٣ — أن تونس كانت ولا زالت باب المغرب ، وقد كثر خروج أهلها إلى المشرق للتعلم والتأدب ورجوعهم إليها علماء أدباء ، ومعهم ما أمكنهم حمله من كتب العلم والأدب .

٤ — قوة دفع العصر الصنهاجى لحركتى العلم والأدب ، فعلى الرغم من مضى قرن ونصف قرن على الزحفة الهلالية ، إلا أن الحياة العلمية فى عهد باديس وابنه المعز وتميم بن المعز ظلت تعمل عملها وتؤتى أكلها إلى عهد بنى حفص ،

(٦٥) تاريخ الجزائر العام حـ ٢ ص٨ والمؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص١٣٢ .

حتى لقد ظهرت فى الفترة ما بين تخريب القيروان واستبداد الحفصيين بتونس شعراء فحول وأدباء عظام منهم على الحصرى صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غـــده　　أقيام الســـاعة موعده ؟!

وعبد الله الشقراطسى صاحب القصيدة الشقراطسية التى أنشدها بالمدينـة تجاه قبر الرسول ومطلعها : —

الحمـد لله منـا باعث الرســـل　　هدى بأحمد منا أحمد السبل

وهى مشهورة خمسها شعراء كثيرون ، وخمسها أحدهم ثلاث مرات[٦٦] . وأبو الحسن الحداد ت ٤٩٠ هـ وتميم بن المعز ت ٥٠١ هـ وأبو الفضل النحوى ت٥١٣ هـ وابن بشير ت ٥٢٠ هـ وجعفر بن شرف ٥٣٤ هـ وابن فرحان القابسى ٥٥٤ هـ ... الخ[٦٧] .

٥ — أن كثيراً من الحفصيين كانوا علماء أدباء فشجعوا العلم والأدب ببناء المدارس وإنشاء دور الكتب : تكلم الوزير السراج عن المولى أبى زكريا يحيى فقال : كان من الصالحين والعلماء العاملين ختم على الشيخ الرعينى السوسى كتاب المستصفى للغزالى وغيره من الكتب المفيـدة ، وناظر فى النحو على ابن عصفور وابن الحاج وكان فقيهاً أديباً معدوداً فى العلماء والشـــعراء وله وصية بليغة وقصيدة فى مدح النبي وشعر كثير جزل[٦٨] وذكره ابن أبى دينار فقال : كان فقيهاً أديباً معدوداً فى العلماء والشعراء بنى المدرسة التى بطرف سوق الشماعين وجمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء وأهل الصلاح ما لم

(٦٦) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش وانظر الرحلة المغربية للعبدرى ص٥١ .

(٦٧) المجمل لحسن حسنى عبد الوهاب ١٥٥ — ١٨٢ .

(٦٨) الحلل السندسية ص١٠٢٣ — ١٠٢٦ .

يجتمع لغيره ، وجمع بعدله وسياسته أموالا لا تحصى إلا بالبيت ، والبيت عبارة عن ألف ألف ، وخلف سبعة عشر بيتاً من المال ، ومن الكتب ستة وثلاثين ألف مجلد[٦٩] .

وذكر ابنه محمدا المنتصر فقال : وفى سنة ٦٥٧ وصلت بيعة مكة بإنشاء عبد الحق بن سبعين وقرئت على الناس ، فعند ذلك تسمى بأمير المؤمنين ولقب بالمستنصر بالله ، وكان قبل ذلك يدعى بالأمير فقط ، ونصب للقضاء فى الأحكام الشرعية أبا عبد الله محمد بن ابراهيم المهدوى المعروف بابن الخباز من أهل العلم والورع وكان يقول : ما يسألنى الله عن أمور الأمة بعد أن قدمت عليهم ابن الخباز[٧٠] ومن حسنات أبى فارس عبد العزيز الحفصى الذى تولى سنة ٧٩٦ هـ أنه أنشأ خزانة الكتب المشتملة على أمهات العلوم والدواوين وأوقفها على طلبة العلم ينتفعون بها بشرط ألا يخرج شىء منها عن محله[٧١] .

وقد طالت ولاية بعض الحفصيين فكان ذلك سبباً لازدهار حكمهم وتعدد نواحى الإصلاح فى عهدهم كالأمير أبى عمرو عثمان الذى حكم من سنة ٨٣٩ إلى سنة ٨٩٣ قال ابن أبى دينار عنه : وكان رحمه الله من أجل ملوك بنى حفص وهو ختامهم طالت مدته وفعل خيرات يكتب ثوابها فى صحيفته ، فمن مآثره بناء مدرسة فى غاية الحسن بزنقة الشيخ الولى الصالح العابد سيدى محرز بن خلف وجعل فيها مسجداً للصلاة ودرساً لقراءة العلم ومأوى لسكنى الطلبة وجعل فيها سماطاً مستمراً يتصدق به كل يوم على المحتاجين ، وجعل فيها ماء للسبيل وأوقف عليها ما يكفيها ويكفى من بها وبنى زاوية بعين الزميت ( بين تونس

---

(٦٩) المؤنس ص١٣٢ — ١٣٤

(٧٠) المؤنس ص١٣٥ .

(٧١) الحلل السندسية ص٧٢ .

وباجة ) وجعل فيها جامعاً للصلاة ودرساً لقراءة العلم ، ومن حسناته إخراجه لخزانة الكتب بالمقصورة الشرقية من الجامع الأعظم مشتملة على أمهات الدواوين وجعل لها قومة وأوقف عليها وقفاً كافياً مؤبداً(٧٢) .

ولعلنا بعد لا نعجب إذا عددنا علماء وأدباء كثيرين على عهد الحفصيين من هؤلاء عنان بن جابر ت ٦٤٥ هـ وأبو زكريا الأول ت ٦٤٧ هـ وأحمد التيفاشي ت ٦٥١ هـ وأحمد اللياني ت ٦٥٩ هـ وابن غريبة ت ٦٥٩ هـ ومحمد بن أبي الحسين بن سعد ت ٦٧١ هـ وحازم القرطاجي ت ٦٨٤ هـ وابن السماط البكري المهدوي ت ٦٩٠ هـ وأبو الفضل التجاني ت ٧١٨ هـ وعبدالله التجاني توفي بعد سنة ٧١٨ هـ واسحق بن حسينة التونسي ت ٧٤٠ هـ ومحمد الظريف ت ٧٨٧ هـ وابن خلدون ت ٨٠٨ هـ والشهاب بن الخلوف ، توفي في حدود سنة ٩١٠ هـ وأبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام ت ٩٧٥ هـ(٧٣) .

٦ — أفول نجم المسلمين بالأندلس فقد كان ذلك سبباً في هجرة عدد كبير من قادة الفكر والرأي وأهل العلم والأدب من الأندلس إلى المغرب بعامة وإلى تونس بخاصة ، قصدها أبو عبد الله محمد بن الأبار على رأس السفارة التي حملت مبايعة زيان بن مردنيش إلى أبي زكريا حين حاصر الملك الأسباني جاك المعروف بالغازي بلنسية وقد أنشده قصيدته السينية التي منها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن الطريق إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عز النصر ملتمسا(٧٤)

---

(٧٢) المؤنس ص١٥٦ — ١٥٧ والحلل السندسية ص١٠٨٣ .

(٧٣) انظر في تراجم هؤلاء والاطلاع على شعرهم مجمل تاريخ الأدب التونسي من ص١٨٦ إلى ص٢٣٢ .

(٧٤) الحلل السندسية ص ١٠٢٣ — ١٠٢٦ .

وقد تولى هذا الأديب الشاعر والحافظ المحدث ديوان الكتاب لأبى زكريا وجاء فى أثره إلى تونس كثير من علماء وأدباء بلنسيه ومرسية وأشبيلية وشاطبة ، بل إن بيوتا برمتها قد انتقلت إلى تونس كآل أبى سعيد أصحاب القلعة المجاورة لغرناطة ، وبيت العود الرطب وآل عصفور وبنى خلدون وغيرهم من العلماء والأدباء الأندلسيين الذين شاركوا بقسط كبير فى بناء الحياة الثقافية بأفريقية[٧٥] ، وإليهم وإلى علماء تونس الأصليين يرجع الفضل فى نضج العلوم الدينية واللغوية والأدبية على عهد الدولة الحفصية ، لكن المهاجرين الأندلسيين قد تفردوا بتلقين طلاب العلم فى تونس مناهج الدرس وأصول الأدب على نحو ما كان عليه الحال فى البيئات العلمية والأدبية بالأندلس .

وقد حفظ الحفصيون للأندلسيين جميلهم بأن وكل سلاطينهم إليهم الوظائف الفنية فى الدولة ، أما الشعب فقد أكرم وفادتهم وأمن إقامتهم وخلطهم بنفسه ، ولقد كان التونسيون يصدرون فى ذلك عن طبع أصيل وعن خلق نبيل وذلك معروف عنهم وغير مستغرب منهم قال ابن فضل الله العمري: « ولأهل أفريقية لطف أخلاق وشمائل بالنسبة إلى أهل العدوة وسائر بلاد المغرب وهم من هم خفة روح وحلاوة بادرة أهل انطباع وكرم طباع[٧٦] ولعله لهذا كان مدح العبدرى لهم وذمه من سواهم بما فى ذلك أهل مكة ويثرب .

ثم إن الأندلسيين قد قصروا نشاطهم على العلم والأدب ، فلم يشتغلوا بالسياسة ولم يتدخلوا فى أى خلاف من أى نوع سواء كان بين أهل البيت الحفصى بعضهم وبعض أو بينهم وبين الشعب .

* * *

(٧٥) انظر مقدمة منها ج البلغاء ص٦١ — ٦٥ .

(٧٦) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٨٥ .

وننتقل الآن من المغرب الأدنى ( تونس ) إلى المغرب الأوسط ( الجزائر ) لنرى ماذا كان ثمة من علم وأدب فى عهد بنى عبد الواد .

وبنو عبد الواد هم الزيانيون الذين استقلوا عن الموحدين وأسسوا لهم دولة عاصمتها تلمسان .

و « تلمسان » كلمة بربرية مكونة من « تلم » بمعنى تجمع ، و « سان » بمعنى اثنين ، ويعنون بذلك أنها تجمع بين التل والصحراء .

والمملكة الزيانية تمتد من البحر إلى الصحراء طولا ، ومن ناحية وادى منية وجبال سعيدة إلى ملوية وفيقيق عرضا ومؤسسها هو أبو يحيى يغمراسن ( المتفوق ) بن زيان بن ثابت من بنى « أطاع الله » العبد وادى الذى حكم من سنة ٦٣٣ هـ إلى سنة ٦٨٢ هـ أى ٤٩ تسعا وأربعين سنة ، أما الدولة نفسها فقد بقيت إلى سنة ٩٦٢ هـ أى ثلاثة قرون وثلث قرن تقريبا(٧٧) .

وقد ازدهرت الحياة فى تلمسان على عهد بنى زيان ، ولو قدر لهذه الدولة أن تجد برد الاستقرار لكان لها شأن أى شأن فأنها كانت فى مكان من الشمال الإفريقى جنى عليها وهو وجودها بين دولتين كل منهما تخشاها وتطمع فيها وهما الدولة المرينية غرباً والدولة الحفصية شرقا ، وكلما خفت الوطأة من جانب اشتدت من آخر ، ولربما اجتمعت جيوش الدولتين عليها فى وقت واحد .

وعلى الرغم من هذا الوضع الحرج كان العلم وكان الأدب فيها ناضجين وظهر من أبنائها من ملأ صيتهم العالم الإسلامى ، وشهد لكثير منهم بالتبرز والأستاذية لا فى المملكة الزيانية وحدها بل وفى خارج حدودها (٧٨) ذلك أن

(٧٧) تاريخ الجزائر العام حـ٢ ص١٣٢ .
(٧٨) تقديم الحلل السندسية ص٣٧ .

المرينيين والحفصيين والزيانيين كانوا يتنافسون فى إغراء العلماء والأدباء بأنفسهم وضمهم إلى مجالسهم فتعددت المناظرات العلمية وازدهرت الحياة الأدبية فى المغرب العربى بعامة وفى عواصمه الكبرى فى ذلك الوقت بخاصة وهى تونس وتلمسان وفاس ·

ونقف من علماء الدين والدنيا بتلمسان فى عهد بنى زيان عند ابنى الإمام محمد بن عبدالله التلمسانى وهما : —

أبو زيد عبد الرحمن ت ٧٤١ هـ
وأبو موسى عيسى ت ٧٤٩ هـ (٧٩)

وعند أبى عبدالله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدرى الآبلى الذى ولد فى تلمسان سنة ٦٨١ هـ وتتلمذ على علمائها وأدبائها ولما فتح السلطان أبو الحسن المرينى تلمسان لقى بها أبا موسى بن الإمام فذكره له وحسنه عنده ، ولما كان أبو الحسن معنيا بجمع العلماء فقد استدعاه إليه وجعله من خاصته وأحضره معه وقعتى طريف والقيروان ،وفى تونس تحلق حوله الطلاب متتلمذين عليه ومنتفعين به فلم ينشط لأياب ، ولما تسلطن أبو عنان طلبه من صاحب تونس فأمده به ، وقدم الشيخ إلى بجاية وأقام بها شهرا قرأ عليه طلبتها فيه مختصر ابن الحاجب ثم انتقل إلى تلمسان ولقى أبا عنان الذى نظمه فى طبقة أشياخه وكان يقول: أخبرنى شيخنا الإمام العالم العلامة وحيد زمانه عبدالله بن إبراهيم الآبلى رحمه الله تعالى ·

ومن أشهر تلاميذه غير السلطان أبى عنان المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحي وابن الصباغ المكناسى والشريف التلمسانى وابن مرزوق

---

(٧٩) أنظر فى ترجمتهما والتعريف بهما تاريخ الجزائر العام حـ ٢ ص١٥٢ — ١٥٦ ·

الجد وأبو عثمان العقباني وابن عرفه والولى ابن عباد ، وقد توفى الآبلى بمدينة فاس سنة ٧٥٧ هـ [٨٠] وممن نقف عندهم كذلك أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف التلمساني نسبة إلى تلمسان التي ولد بها سنة ٧١٠ هـ ، اختص بابني الامام وتفقه عليهما في الأصول والكلام ثم لزم الآبلى وتضلع في معارفه وأخذ عن جماعة أخرى من شيوخ تونس وفاس فاتسع بالعلم باعه وعظم قدره ، وكان السلطان أبو سعيد الزياني يحبه ويعظمه ولا يخاطبه إلا بسيدى ، وقال له الشيخ ابن عرفه : « غايتك في العلم لا تدرك » وذكره ابن خلدون فقال : صاحبنا الإمام العالم الفذ فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والأصول ، وكان الإمام ابن عبد السلام يقول عنه : — ما أظن في المغرب عالما مثله ، ولما تملك السلطان أبو عنان المريني تلمسان سنة ٧٥٣ هـ استخلص الشريف لمجلسه العلمي مع من اختاره من المشيخة ورحل به إلى فاس .

ولما استرد السلطان أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن الزياني تلمسان من يد بني مرين استدعى الشريف من فاس فسرحه القائم بالامر يومئذ الوزير عمر بن عبدالله فانطلق إلى تلمسان وتلقاه أبو حمو براحتيه وأصهر له في ابنته فزوجها أياه وبنى له المدرسة الشهيرة باسمه سنة ٧٦٣ هـ وقد ظل يدرس العلم بها إلى أن مات سنة ٧٧١ هـ .

وكان ممن أخذ عنه من علماء المغرب وأعيانه العلامة ابن خلدون والإمام الشاطبي وابن زمرك وإبراهيم الثغرى وأبو عبدالله القيسي وابن عباد وابن السكاك وابن محمد بن على المورقى وإبراهيم المصمودى [٨١] .

---

(٨٠) تاريخ الأدب الجزائرى محمد الطمار ص ١٣٣ وتاريخ الجزائر العام لجيلالى جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٨١) تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٨ .
وتاريخ الأدب الجزائرى ص ١١٤ — ١١٧ .

وممن اشتهر بالرياسة والعلم والفضل من بيوتات الجزائر وأعيانها فى هذا العصر بيت ابن مرزوق الذائع الصيت . قال المقرى : « وبيتهم بيت علم وولاية وصلاح » .

ونقف من رجالات هذا البيت عند رجلين هما : محمد بن مرزوق الجد ومحمد بن مرزوق الحفيد الأول كان آية فى فنون العلم والأدب والسياسة والدين ومن أبرز الشخصيات الجزائرية التى عرفت فى القرن الثامن الهجرى بالمغرب ومصر والشام . انتقلت أسرته من الزاب إلى تلمسان صحبة الشيخ أبى مدين شعيب بن الحسين الأشبيلى أواخر القرن السادس الهجرى وقد ولد صاحبنا فى تلمسان سنة ٧١٠ هـ ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره حج مع والده ، وبعد الحج استقل بنفسه ودخل الشام ومصر وروى عن عدد عظيم من علماء المشرق كما أخذ عن علماء تونس وبجاية وفاس . بلغ عدد شيوخه الألفين ، وقد أودعهم كلهم كتابه المسمى « عجالة المستوفر المستجاز فى ذكر من سمع من المشايخ ومن أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز » .

وكان رجوعه إلى تلمسان فى وقت حصار أبى الحسن المرينى لها سنة ٧٣٣ هـ وقد خدم المرينيين والزيانيين وكان له حظوة ومكانة رفيعة لدى كثير من ملوك عصره[82] .

أما الثانى وهو الحفيد فقد اشتهر بما اشتهر به الجد من الرسوخ فى العلم والاطلاع الواسع والتحقيق المدقق والذكاء وحسن البيان والخطابة والتوسع فى الرواية والإحاطة بمذاهب الفقة وحل مشكلاته العويصة وذلك كله بالإضافة إلى كريم خلقه وشدته على أهل البدع مما جعل الناس يجمعون على فضله من

---

(٨٢) تاريخ الجزائر العام لجيلالى جـ٢ ص١١٥ — ١١٩ .

المغرب الأقصى إلى الديار المصرية واشتهر ذكره فى البلاد فصار يدعى شيخ الإسلام وعالم الدنيا ، أثنى عليه تلميذه عبد الرحمن الثعالبي فقال هو سيدى الشيخ الأمام الحبر الهمام حجة أهل الفضل فى وقتنا وخاتمتهم ورحلة النقاد وخلاصتهم ورئيس المحققين وقادتهم السيد الكبير والذهب الابريز والعلم الذى نصبه التمييز ابن البيت الكبير والفلك الأثير ومعدن الفضل الكثير[٨٣] . وقال الحافظ التنسى وهو من تلامذته أيضاً : شيخنا الإمام العلامة رئيس علماء المغرب على الاطلاق .

وذكره أبو الحسن القلصادى فى رحلته فاثنى عليه وقال : —

أدركت بتلمسان كثيرا من العلماء والزهاد والعباد والصلحاء وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا أبو عبدالله محمد بن مرزوق العجيسى رضى الله عنه[٨٤] . وبحسبه أن كان من بين تلاميذه الثعالبي والمازنى والتنسى والقلصادى وأبو الفرج ابن يحيى الشريف التلمسانى والعلامة أبو الفضل المشد الى ونصر الزواوى وقاضى الجماعة بتونس عمر القلشانى وإبراهيم بن فائد الزواوى وأحمد بن ذكرى والسيد الشريف قاضى الجماعة بغرناطه وأحمد بن يونس القسنطينى وأبو العباس أحمد بن عبدالرحمن الندرومى وعيسى بن سلامة البسكرى والشهاب بن كحيل وغيرهم وغيرهم .

أما مؤلفاته فكثيرة منها: شروحه الثلاثة للبردة ، سمى أصغرها: «الاستيعاب لما فى البردة من البيان والأعراب» وسمى أكبرها : « إظهار حسن المودة فى شرح البردة» تكلم فيه عن كل بيت منها وشرحه بفنون سبعة . قال الأستاذ

(٨٣) تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢١١ .

(٨٤) نسبة إلى القبيلة الجزائرية « عجيسة » المقيمة بجبال المسيلة شرقى صنهاجة وجنوبى زواره وهو المكان الذى أنشئت به قلعة بنى حماد .

عبد الرحمن جيلالى : رأيت منه نسخة مخطوطة فى حجم ضخم عند الأستاذ أحمد بن حمودة فى منزله بالأبيار من ضواحى مدينة الجزائر [٨٥] . وكتاب «المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية » طرف الأستاد الجيلالى وكتاب « إسماع الصم فى إثبات الشرف من جهة الام » منه نسخة بالمكتبة الوطنية فى مدينة الجزائر رقم ٢٠٦٧ ، وله كذلك . « المفاتيح القرطاسية فى شرح السقراطيسية » ورجزان فى علم الحديث كبير سماه الروضة جمع فيه بين ألفيتى ابن ليون والعراقى ، وصغير اختصر فيه ألفية العراقى ، وأرجوزه فى الميقات أسماها « المقنع الشافى » فى ألف وسبعمائة بيت ، وأرجوزه ألفية فى محاذاة الشاطبية ، وأرجوزة نظم بها تلخيص المفتاح ، وأرجوزة نظم بها جمل الخونجى فى المنطق ، وكانت وفاته رحمه الله يوم الخميس ١٤ من شعبان سنة ٨٤٢ هـ وصلى عليه بجامع تلمسان الأعظم ودفن به وحضر جنازته السلطان والأعيان وعدد لا يحصى من العامة [٨٦] .

وإذا كنا قد تكلمنا عن الحياة العلمية عصر الدولة الزيانية ، فأن الحياة الأدبية فى هذه الفترة وفى تلك الرقعة قد ازدهرت ازدهارا عظيما ، ولم يكن غير ذلك منتظرا ولا متوقعا ، فقد قيض الله للبلاد قيام دولة فيها كان ملوكها من العلماء والأدباء ، وبديهى وهذا حالهم أن يسعوا إلى تنشيط الحركتين العلمية والأدبية ، وهذا ما كان ، فقد قربوا إليهم أهل العلم والأدب ، وأحاطوهم برعايتهم وعنايتهم ، فأصبح البلاط الزيانى زاخرا بالعلماء والأدباء كتابا وشعراء وقد وجد هؤلاء وهؤلاء البيئة المواتية لمواهبهم ، فطبيعة تلمسان طبيعة فتانة والسلاطين والأمراء علماء أدباء كرماء يدفعون العلماء والشعراء إلى الإنتاج دفعا

(٨٥) تاريخ الجزائر العام حـ ٢ ص ٢١٣ .
(٨٦) تاريخ الجزائر العام حـ ٢ ص ٢١٠ — ٢١٥ .
وتاريخ الأدب الجزائرى ص ١١٧ — ١٢٠ .

بتشجيعهم لهم وإعجابهم بهم ، ثم هذه الأحداث الجسام التى تعرضت لها هذه الدولة على يد الحفصيين كثيرا وعلى يد المرينيين أكثر من هدم لها وتقويض لأركانها وإزعاج لملوكها ، ومن حصار لتلمسان امتد فى بعض الأحيان تسعة أعوام حتى أكل أهلها الميتة والجيف، تلك العوامل وهذه الظروف فتقت مواهب الشعراء وألهمتهم الشعر الصادق المعبر ، أما الكتاب فقد نهضوا بالنثر الفنى نهضة عظيمة وجعلوه مسايرا لتقدم الدولة وملائما لجمال الطبيعة وذلك بأن زينوه بالصور البيانية وزخرفوه بالمحسنات البديعية ، وبجانب هذا النثر المزرقش المبرقش كان هناك نثر مرسل نلمسه فى الرسائل الأخوانية والكتب التاريخية وقد أعجب الجزائريون بالموشحات الأندلسية منذ ظهورها ونسجوا على منوالها لكنها لم تنضج عندهم إلا فى هذا العصر .

والخلاصة أن حقل الأدب بتلمسان كان خصبا وأن سوقه كانت رائجة ثم لما نزل المهاجرون الأندلسيون بها وبطنوا بذوقهم وفنهم أدبها زاد هذا الحقل خصبا وزادت سوقه رواجا .

ومن أدبائها المبرزين بل من أدباء العرب المعلمين أبو عبدالله محمد بن عمرو ابن خميس التلمسانى . ولد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ كان أديبا فاضلا حافظا لأشعار العرب وأقوالهم ملما بأخبارهم ، له مشاركة فى العقليات والطب قال ابن خلدون عنه : كان لا يجارى فى البلاغة والشعر يدعى لغزارة علمه شيخ الأدباء ولاه السلطان أبو سعيد بن يغمراسن رئاسة ديوان الإنشاء وأمانة سره [٨٧]، وقال ابن خاتمة : كان رحمه الله من فحول الشعراء وأعلام البلغاء يصرف العويص ويركب مستصعبات القوافى ويطير فى القريض مطار ذوى القوادم الباسقة والخوافى .

---

(٨٧) جيلالى جـ ٢ ص ١٩٥ .

ومن شعر أبي بكر بن خطاب فى مدحه : —

رقت حواشى طبعك ابن خميس فهفا قريضك لى وهاج رسيسى
ولمثله يصبو الحليم ويمـــترى ماء الشئون به وسير العيس
لك فى البلاغة — والبلاغة بعض ما تحويه من أثر — محل رئيس
نظم ونثر لاتبارى فيهمـــا عززت ذاك وذا بعلم الطوسى (٨٨)

ولابن خميس ديوان شعر جمعه القاضى أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمى تحت عنوان « الدر النفيس من شعر ابن خميس » ، ثم انه كان ناثراً استكتبه عثمان الأول بن يغمراسن سنة ٦٨١ هـ ، على أنه بنظمه كان أشهر منه بنثره ، ومن شعره الذى شرق وغرب قصيدته التى مدح بها أبا الفضل ابن يحيى قال :

عجباً لهـــا أيذوق طعم وصالهـــا من ليس يأمل أن يمر ببالهـــا
وأنا الفقـــير إلى تعلة ســـاعة منها وتمنعنى زكاة جمالهـــا
كم ذاد عن عينى الكرى متألق يبدو ويخفى فى خفى مطالهـــا
يسمو له بدر الدجى متضـــائلا كتضاؤل الحسناء فى أسمالها
وابن السبيل يجىء يقبس نارهـــا ليـلا فتمنعه عقيلة مالهـــا
يقتادنى فى النوم طيف خيالهـــا فتصيبنى ألحاظهـــا بنبالهـــا
كم ليـلة جادت به فـكأنمـــا زفت على ذكاء وقت زوالها (٨٩)

قالوا : كان السلطان أبو عنان المرينى كثير العناية بحفظ شعره ورواية أخباره ، حدث عنه يوماً فقال : أخبرنى شيخنا الإمام العلامة وحيا زمانه

(٨٨) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٢٤ .
(٨٩) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٣٥ .

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي التلمساني قال : لما توجه الشيخ الصالح الشريف أبو إسحق التنسي التلمساني إلى بلاد المشرق اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله بن خميس ؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله فبقي الشيخ أبو اسحق متعجباً وقال : من يكون هذا الذي حليتموه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلده ؟! فقال له ابن دقيق العيد هو القائل :

عجباً لها أيذوق طعم وصالها     من ليس يأمل أن يمر ببالها ؟ !

وتلا عليه القصيدة بطولها وهي ستة وأربعون بيتاً .

قال : فقلت له : إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم إنما هو عندنا شاعر فقط ، فقال له : إنكم لم تنصفوه وإنه لحقيق بما وصفناه به . قال أبو عنان وأخبرنا شيخنا الآبلي المذكور أن ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت تعلو موضع جلوسه للمطالعه ، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد عرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إليه لم يقرأها حتى قام إجلالا لها(٩٠) .

ومن شعره كذلك هذه القصيدة التي وصفها العبدري بأنها مهذبة الألفاظ والمعاني وألذ من نغمات المثالث والمثاني قال ابن خميس : —

نظرت إليك بمثل عيني جؤذر     وتبسمت عن مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدر أو كالبرق أو     كالطلع أو كالأقحوان مؤثر

تجري عليه من لماها نطفة     بل خمرة لكنها لم تعصر

لو لم يكن خمراً سلافا ريقها     تزري وتلعب بالنهى لم تحظر

---

(٩٠) جيلالي ح ٢ ص ١٦١ .

وكذاك ساجى جفنها لو لم يكن      فيــه مهند لحظهـا لم يحـذر
لو تعت من ذاك الحمى فى جنة      وكرعت من ذاك اللمى فى كوثر (٩١)

وقد مات ابن خميس بغرناطه فى الانقلاب الذى أودى بصديقه الوزير ابن الحكيم ، ومن غريب الاتفاق ما يحكى من أن الوزير المذكور كان قد اقترح على ابن خميس نظم قصيدة هائية فأنشأ مطلعها وهو .

لمن المنازل لا يجيب هواهـا      محيت معـالمهـا وصم صداها

وكان ذلك آخر يوم فى رمضان سنة ٧٠٨ هـ فما كان الغـد إلا وهما مقتولان ، وكان هذا البيت آخر ما صدر عن ابن خميس من شعر . قالوا : « وقد أشار معناه إلى منعاه » (٩٢) . ومن الشخصيات العلمية والأدبية والرسمية الهامة أبو حمو موسى الثانى بن يوسف ين عبد الرحمن بن يحيى ين يغمراسن ابن زيان فهو الذى حرر الدولة الزيانية من احتلال المرينيين لها وسماها الدولة الزيانيه بدلا من الدولة العبداودية .

ذكر بعض المؤرخين عناية هذا السلطان بالعلم وأهله فقال : — هذا أمر يقصر اللسان عن الأحاطه يه » ، ولا عجب فقد نشأ أبو حمو بتلمسان نشأة كلها علم وأدب وسياسة وحزم وفروسية،وكان شاعراً مفلقاً له القصائد الطوال فى المواضيع المختلفة بعامة وفى المولد النبوى بخاصة ، وهو مؤلف كتاب « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » لخص فيه كتاب « سلوان المطالع » لابن ظفر الصقلى وألحقه بفوائد كثيرة من عنده وأورد فيه من نظمه وما جرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بنى مرين وغيرهم من مشايخ العرب وزعماء المغرب . والكتاب مطبوع بتوس وقد ترجمه إلى الأسبانيـة المستشرق

(٩١) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٣٩ .
(٩٢) جيلالى حـ ٢ ص ١٦٢ .

ماريو كاسيا سنة ١٨٩٩ م[٩٣] .

وأكثر شعره يوجد بكتاب « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح » لمحمد بن عبد الله التنسى التلمسانى ، ومن شعره يفتخر بنفسه :

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه ... وكم بات نهباً شمله دون ناظم

شددنا له أزراً وشدنا بناءه ... بأوثق أركان وأقوى دعائم

فصارت ملوك الأرض تأتى مطيعة ... إلى بابنا تبغى التماس المكارم

وجاءت لنا من كل أوب ووجهة ... تبايعنا طوعا وفود العمائم

أنا الملك الزابى ولست بزابى ... ولكننى مفنى الطغاة الطماطم

وقد مات أبو حمو غرة ذى الحجة سنة ٧٩١ هـ[٩٤] .

ومن رجالات هذه الدولة وعلمائها الأعلام وأدبائها العظام أبو زيان محمد الثانى بن السلطان أبو حمو الثانى ، كان عالما أديباً شاعراً ناثراً متأنقاً فى شعره بليغاً فى ترسله .

قال يمدح السلطان المملوكى برقوق :

لمن الركائب سيرهن زميل ... والصبر إلا بعدهن جميل

يا أيها الحادى رويدك إنها ... ظعن يميل القلب حيث تميل

رفقاً بمن حملته فوق ظهورها ... فالحسن فوق ظهورها محمول[٩٥]

وهو كما ترى شعر جزل وإن دل هذا على شىء فأنما يدل على نهضة أدبية قوية فى الجزائر الزيانية .

---

(٩٣) جيلالى حـ ٢ ص ١٧١ ، ٢٥٥ .

(٩٤) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٦٠ .

(٩٥) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٧٤ .

ومن الشخصيات الأدبية التى اشتهرت فى دولة بنى زيان شخصيـة أبى عبد الله محمد بن يوسف القيسى المعروف بالثغرى التلمسـانى ، وصفه المقرى فى فى نفح الطيب بالـكاتب العلامة الناظم الناثر ، كان الشاعر الرسمى لتلمسان ودولة بنى زيان ، فشعره مرآة لجمال الطبيعة فى تلمسان كما أنه صورة صـادقة لحيواتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية ، واسمع قوله من قصيـدة له رفعها إلى صديقه وصفيه أبى حمو موسى الثانى :

أيهـا الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا ببـاب الجياد

وصلوها أصائلا بليـــــال كلآل نظمن فى الأجيــاد

فى رياض منضدات المجـانى بين تلك الربى وتلك الوهاد

وبروج مشيدات المبانى باديات السنى كشهب بوادى

رق فيهـا النسيم مثل نسيبى وصفا النهر مثل صفو ودادى

وزها الزهر بالغصـون تثنت وتغنت عليـه ورق شوادى

وانبرى كل جدول كحسام عارى الغمد سندسى النجاد

وظلال الغصون تـكتب فيـه أحرفا سطرت بغــير مـداد

تذكر الوشم فى معـاصم خود قضب فوقه ذوات امتــداد

وكؤوس المنى تدار علينـــا بجنى عفة ونقل اعتقاد

واصفرار الأصيل فيهـا مدام وصفير الطيور نغمـة شـادى

كم غدونا بها لأنس ورحنـا جادهـا رائح من المزن غادى

ولـكم روحة على الدوح كادت أن تريح الصبا لنا وهو غادى

رقت الشمس فى عشـاياه حتى أحدثت منه رقـة فى الجمـاد

جددت بالغروب شجو غريب هاجه الشوق بعد طول البعاد

يا حيا المزن حيها من بلاد    غرس الحب غرسها فى فؤادى
وتعاهد معاهد الأنس منها    وعهود الصبا بصوب العهاد
حيث مغنى الهوى وملهى الغوانى    ومراد المنى ونيل المراد
ومقر العلا ومرقى الأمانى    ومقر القنا ومجرى الجياد
كل حسن على تلمسان وقف    وخصوصاً على ربا العباد
ضحك النور فى رباها وأربى    كهف ضحا كها على كل ناد
وسما تاجها على كل تاج    وسطا سيفها على كل واد
يدعى غيرها الجمال فيقضى    حسنها أن تلك دعوى زياد
وبشعرى فهمت معنى علاها    من حلاها فهمت فى كل واد
حضرة زانها الخليفة موسى    زينة الحلى عاطل الأجياد
وحباها بكل بذل وعدل    وحماها من كل باغ وعادى
ملك جاوز المدى فى المعالى    فالنهايات عنده كالمبادى(٩٦)

وثمة شخصية أخرى ازدان بها البلاط الزيانى تتمثل فى أبى عبد الله محمد ابن أبى جمعة التلاليسى . اشتغل بالطب حتى برع فيه ونما صيته إلى السلطان أبى حمو موسى الثانى فقربه إليه واتخذه طبيباً خاصاً له ، وفوق حذقه الطب كان بارعا فى اللغة والأدب له الشعر الجيد يمدح به السلطان ويصف تلمسان . من ذلك قوله :

سقى الله من صوب الحياها طلا وبلا
ربوع تلمسان التى قدرها استعلى

---

(٩٦) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٨٦ .

ربوع بهـا كان الشباب مصاحبى
جررت إلى اللذات فى دارها الذيلا
لـكم نلت فيهـا من أمان قصيـــة
وكم منح الدهر الضنين بهـا النيلا
وكم ليلة بتنـا على رغم حاسـد
ندير كؤوس الوصل إذ بالصفا تملى
وكم ليلة بتنـا بصفصيفهـا الذى
تسامى على الأنهار إذ عـــدم المثلا

وكدية عشاق لهـا الحسن ينتهى    يعود المسن الشيخ من حسنها طفلا
نعم وغدير الجوزة السالب الحجا    نعمت بها طفلا وهمت بها كهلا

ومنه ومن عين ام يحيى شرابنا    لأنهما فى الطيب كالنيل بل أحلى
وعبادها ما القلب ناس ذمامه    به روضة للخير قد جعلت حلا

بها شيخنا المذكور فى الأرض ذكره
أبو مدين أهلا به دائمـــا أهلا
لها بهجة تذرى على كل بلدة    بتاج عليها كالعروس إذا تجلى
فيا جنة الدنيا التى راق حسنها    فحازت على كل البلاد به الفضلا
ولاعجب أن كنت فى الحسن هكذا
وموسى الإمام المرتضى فيك قد حلا(٩٧)

ولعلنا — وقد أكثرنا من الأمثلة وأطلنا بعضها — قد أعطينا القارىء الكريم صورة حقيقية عن الحياة الأدبية فى المغرب الأوسط على عهد الدولة

(٩٧) تاريخ الأدب الجزائرى ص ١٨٦ .

الزيانية وهى تذكرنا بصورته فى الأندلس من حيث التغنى بجمال الطبيعة ومن حيث رقته عند شاعر وجزالته عند آخر وهو تنوع مشروع لأنه فى جميع حالاته مطبوع وصادق فى التعبير عن أصحابه .

هذه الصور الأدبية أهديها إلى طلابى فى الجامعات الجزائرية بعامة وفى جامعة قسنطينة بخاصة راجياً لهم التوفيق فى تحليلها وتعليلها، وفى الوقوف عندها وعند أصحابها فى دراساتهم العليا .

# الفصل الأول

## نقاد المغرب وآثارهم

تمهيد :

نحن في هذا الفصل مع النقاد المغاربة و كتبهم نرسم صورة صادقة لأفكارهم ونحدد تحديداً دقيقاً خط سيرهم . لقد عايشناهم ونقلنا عنهم آراءهم تارة بالنص وأخرى بالفحوى مع الالتزام التام بالمضمون الذى عنوه وبالرأى الذى ارتأوه وفى الحق إنه لتراث عظيم هذا الذى خلفوه لنا وكان عليه اعتمادنا فى هذه الدراسة المتواضعة .

وقد رتبناهم ترتيباً زمنياً ،فهذا طبيعى وهو ما كان فعلا : النهشلى فالقزاز فالحصرى . . . الخ .

وسيساعدنا ذلك فى فهمهم ونبين ما عليهم ومالهم حتى إذا انتقلنا إلى الفصل الثانى « وهو القضايا النقدية وتطورها عندهم » سهل علينا وضع الأمر فى نصابه من حيث التقليد والأصالة سواء كان ذلك بالنسبة للنقاد المغاربة فيما بينهم أو بالنسبة للنقد المغربى كله عند موازنته بالنقد فى المشرق والله الموفق .

— ١ —

### النهشلى

أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى الجزائرى المتوفى بالمهدية سنة ٤٠٥ هـ . أصله من المسيلة وقد تسمى « المحمدية » نسبة إلى أبى القاسم محمد بن

عبد الله المهدى الذى اختطها ورسمها وأناب عنه فى بنائها على بن حمدون المعروف بابن الأندلسية وقد بلغت المسيلة درجة عالية من التحضر والعمران حتى صارت عاصمة الشرق الجزائرى ومن أكبر مراكز النشاط العلمى فى سائر الجزائر ، فقد كثر إقبال العلماء والأدباء عليها بتشجيع من أميرها جعفر ابن على بن حمدون ، وكان مجىء الشاعر ابن هانىء إليها سنة ٣٤٦ هـ سبباً فى انبعاث حركة أدبية قوية بها وقد أنجبت هذه الحركة طائفة من العلماء والأدباء منهم عبد الكريم النهشلى[١] .

ولقد كان النهشلى شاعراً وكاتباً وناقداً ثم هو بعد عالم من علماء اللغة وخبير بأيام العرب ، ويظهر أن إخلاصه لعلمه وأدبه كان أكثر من إخلاصه للحياة العامة أو أن ذكاءه الاجتماعى كان أقل من ذكائه الفنى ، فقد اتهمه بعض الناس بالغفلة عما سوى الأدب وحدثه أحد إخوانه بذلك قائلا له : الناس يزعمون أنك أبله . فقال : هم البله . هل أنا أبله فى صناعتى ؟ قال لا ، فقال النهشلى : ما على الصائغ أن يكون نساجا . وقد صدق فكيف يكون أبله من خدم الدولة الصنهاجية بعلمه وقلمه ؟ ! ! ومن ألف كتاب « الممتع فى علم الشعر وعمله »؟ !!! أجل فقد تواترت الأخبار بتأليفه كتابا فى النقد الأدبى يحمل هذا الاسم ، ولم يصلنا هذا الكتاب للأسف ، لكن ابن رشيق يأخذ عنه وينقل منه فى مواطن كثيره من كتابه « العمدة » ، وذات مرة قال : إنه كتاب مشهور، لكنه لم يذكر أن اسمه « الممتع » فيظهر أنه كان أشهر من أن يذكر[٢] ، ومرة أخرى قال عن عبد الكريم : كان يؤثر اللفظ على

---

(١) البيان المغرب حـ ١ ص٢١٥ ، والمغرب العربى لرابح بونار صفحات ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٨١ وتاريخ الجزائر العام لجيلالى صفحات ٢٩٠ ، ٣١٥ ، ٣٥٢ .

(٢) العمدة حـ ١ ص١١٢ .

المعنى كثيراً فى شعره وتآليفه » فقد كانت له كتب أخرى غير الممتع إذن لكنها ضاعت كما ضاع الممتع[٣]، وقد أكد ابن رشيق ذلك فى موضع آخر من كتاب العمدة[٤].

ولما علمت أن بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة مخطوطا اسمه « قطعة من اختيار الممتع للنهشلى رقم ٥٤ ش أدب قصدته وقد وجدته صورة بالميكرو فيلم فى علبة صغيرة تحمل رقم ٣٣٧٢ وهو ستون ومائة لوحة ، وكل لوحة صفحتان ، أى أنه عشرون وثلاثمائة صفحة ، والاسم الأصلى له وهو المثبت على صدره بخط كبير « هدى كامل المبرد » لكن جاء شخص وشطب هذا العنوان ثم كتب بدله دون أن يتثبت: « إنما هو قطعة من اختيار الممتع » وليس هذا فقط بل إنه أكد عمله هذا فى آخر لوحة ، فقد أنهى كاتب المخطوطة نسخته بقوله « إلى هنا انتهى كامل المبرد بعون الله ولطفه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ونسى كلمة ( هدى ) وقد كتب صاحبنا على يسار هذه العبارة قوله : « قلت ليس هذا بكامل المبرد وإنما هو قطعة من اختيار الممتع كتاب عبد الكريم النهشلى » .

ولم يكن صوابا هذا العمل، فالكتاب اسمه الحقيقى « هدى كامل المبرد » لمن ؟ لا نعرف فلا يوجد تحت العنوان اسم المؤلف وربما كان هذا أحد الأسباب التى دعت الشخص المجهول إلى أن يخطىء ظانا أنه يصوب ، ويظهر أن مؤلف « هدى كامل المبرد » — ولعله مغربى من بيئة النهشلى — قد أعجب بكتاب الكامل للمبرد فاستوحاه واهتدى به فى تأليف كتاب على منواله وكان أمينا وصادقا فسماه « هدى كامل المبرد » .

(٣) العمدة حـ ١ ص ١٢٧ .
(٤) العمدة حـ ١ ص ٢٥٣ .

وقد ضمنه عشرين باباً هى :

١ — باب فى العفو عمن أذنب .

٢ — باب والمنة لله عز وجل فى هذا البيان الذى جعل اللسان دليلا عليه

٣ — باب فى ذكر بيوتات العرب .

٤ — باب فى اللباس والطيب .

٥ — باب يذكر فيه ما قيل فى الجمال وحسن الوجوه .

٦ — باب ومن حكماء قريش فى الجاهلية عتبة بن ربيعة .

٧ — باب فى ذكر البديهة .

٨ — باب فى الجهارة وخلافها .

٩ — باب فى احتمائهم بالشعر وذبهم به عن الأعراض .

١٠ — باب فى الأنفة عن السؤال بالشعر .

١١ — باب فيمن رفعه المدح وحطه الهجاء وأنف من اللقب ورغب عن الاسم إلى اللقب .

١٢ — باب فى النهى عن تعرض الشعرا .

١٣ — باب فى ذكر المبهرات والسرارى .

١٤ — باب فى أنفة السادات عن قول الهجاء والمتناقضات .

١٥ — باب والشعرا تستحسن انتصارها بألسنتها ويقيم ذلك أحدهم مقام سيفه ويده .

١٦ — باب وللشعر التياط بالقلوب ومدخل لطيف إلى النفوس .

١٧ — باب فى دعا بعضهم على بعض .

١٨ — باب فى دفاع الشر بالشر .

١٩ — باب فى التعيير والتوبيخ .

٢٠ — باب فيما قالوه فى التحذير والتخويف من شر عاقبة الظلم .

فالكتاب بهذه الأبواب — وهى بعيدة عن النقد — كتاب كامل ، وليس قطعة أو جزءا من كتاب « الممتع » للنهشلى وهو كتاب فى النقد .

وقد جاء اللبس من أن المؤلف اختار قطعة من كتاب الممتع ضمنها الباب الأول من كتابه فقد جاء فى اللوحة رقم ١٩ قوله « ومن كتاب الممتع لعبد الكريم فى فضل الشعر وما تعلق به وانضاف إليه من خبر أو شعر قال : لما رأت العرب المنثور يند عليهم وينفلت من أيديهم ولم يكن لهم كتاب متضمن أفعالهم تدبروا الأوزان والأعاريض وأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا ورأوه باقيا على مر الأيام فألفوا ذلك وسموه شعرا والشعر عندهم الفطنة ومعنى قولهم : ليت شعرى أى ليت فطنتى ، والشعر أبلغ البيانين وأطول اللسانين وأدب العرب المأثور وديوان علمها المشهور ، ولموضع قدر الشعر فى العرب قال رؤية بن العجاج فى الحرب التى كانت بين تميم والأزد : ـ يا بنى تميم أطلقوا من لسانى أى افعلوا ما أقول فيه . وقالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجدنا بشعرك فقال : افعلوا حتى أقول ، ويقال إنه ارتج على النابغة أربعين سنة ثم كانت لبنى جعدة وقعة ظهروا فيها على عدوهم فاستخف النابغة الفرح فراض القريض فلان له ما كان استصعب عليه فقالوا : والله لنحن بأطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا . قال عمرو بن معدى كرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت»

هذا هو النص الذى أورده المؤلف من كتاب الممتع فجار على كتابه كله وأكله ، والدليل على أن ما قبل هذا النص ليس من الممتع أننا نجد فى اللوحة رقم ١٥ تعليقا لعله من كاتب المخطوط فخطه يشبه خطه وقد أورده فى صلبه على صورة عنوان لما بعده وهذا التعليق هو « من هاهنا ابتدا منتخب الممتع من أوله » وتحته « أفضل كلام وأعزه وأكرمه وأعظمه بركة وأعوده لصالحة

كتاب الله العزيز الذى عجزت عنـه خطباء العرب فى عنفوانها وشعراؤها فى إبانها فهو يجل عن سجع المتـكلمين ويعظم عن وزن المتـكلفين من الخطباء والشاعرين وأنه معجزة باقية لأكرم أنبياء الله وخيرته من خلقه صلى الله عليه وسلم ورحم وكرم ، ثم خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر الذى ترتاح له القلوب وتصغى إليـــه الأسماع وتشحذ به الأذهان وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار » .

ولنلاحظ أن هذا الـكلام جاء مصمتا فى اللوحة رقم ١٥ بينما جاء نص النهشلى موثقا من المؤلف فى اللوحة رقم ١٩ كما رأينا ، فلو كان كلام النهشلى قد بدأ فى اللوحة رقم ١٥ كما يدعى صاحب التعليق المقحم لورد قول المؤلف « ومن كتاب عبد الـكريم النهشلى . . . . . . » فى هذه اللوحة ، ولما كان لوروده فى اللوحة رقم ١٩ لزوم مطلقا ، وليس هذا فقط بل إن مؤلف الهدى كرر فى اللوحات ٤١ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ما فعـله فى اللوحة رقم ١٩ من نسبة بعض النصوص التى أوردها إلى صاحبها وهو عبد الـكريم صاحب الممتع ، فلو كان هدى كامل المبرد هو القطعة التى تبقت من اختيار الممتع للنهشلى ، لما كان لعبارة « ومن كتاب النهشلى » فى تلك اللوحات معنى بل لما وردت أصلا ، إذ المفروض أنه كله من كتاب النهشلى ، وأنا بعد أسأل : إذا كان اختيار الممتع يبدأ فى اللوحة رقم ١٥ فمن صاحب الـكلام الذى قبلها وهو ثمان وعشرون صفحة وأكثر ؟ ! ! قد يقال : إنه مقدمـة . فأسأل : بقلم من ؟ علما بأن الـكتاب ليست له مقدمة فهو يبدأ بالباب الأول هكذا : —

بسم الله الرحمن الرحيم باب ما جاء فى العفو عمن أذنب . روى أن أعرابيا كانت له ابنة عم له ( كذا بتـكرار له ) ذات حسن وجمال فتزوج بها ، وكان ابن أم الحـكم عاملا لمعاوية بن أبى سفيان وبلغه حسنها وجمالها . . . الخ .

وسؤال آخر وليس أخيرا هو : ما معنى اختيار الممتع ؟ وإذا كان معناه منتخب الممتع فمن الذى انتخبه ؟ هو أيضاً مجهول مثـل مؤلف هدى كامل المبرد ، وهذا يضعف أن فى تراثنا العربى شيئاً اسمه اختيار الممتع ، لـكن يظهر أن عدم التثبت مرض ، وقد أصابت عدواه كل من اطلع على العمل المتسرع لهذا المصوب المخطىء فصدق أن ثمة اختيارا للممتع وأن مابدار الـكتب المصرية قطعة منه ، أما أنا فقد انتهى بى اجتهادى الشخصى إلى هذا الذى قررته ، ومما رجحه لدى ما علق به أحد قراء المخطوطة على تغييرين آخرين فى صلب هدى كامل المبرد وقد أحدثهما نفس الشخص الذى فرض نفسه على هـذا الـكتاب التعس ، أما أولهما ففى اللوحة رقم ١١٤ وأما الآخر ففى اللوحة رقم ١٢٨ وسنقتصر منهما على أولهما وهو كاف فى الدلالة على الصواب والخطأ فيما اقترفه هذا النـكرة . قال المعلق : —

هذا المصلح أفسد كل قواعد العرب وأساليب كلامهم ، فإن الشاعر رحمه الله قال : يا مال ليستقيم له الوزن وينسجم له الشعر ويسلس فى اللسان ، وإن كان أراد به يا مالك لـكن الترخيم قاعدة مصطلح عليها قال النبى صلى الله عليه وسلم ياحار : ويريد : ياحارث .

٭ ٭ ٭

ومن مظاهر التناقض والاضطراب فى هذا الـكتاب هذه العبارة التى وردت باللوحة رقم ١٢٨ وهى « نجز اختيار الأول والثانى فى كتاب عبد الـكريم وهذا أول اختيار الحزو الثانى » .

وأرى أن صاحب هذه العبارة هو صاحب عبارة «من ها هنا ابتدأ منتخب الممتع من أوله » فى اللوحة رقم ١٥ ، وهو هو صاحب التغييرين فى اللوحتين ١١٤، ١٢٨ وأخيرا هو صاحب التصويب الخاطىء فى أول الـكتاب وآخره ، إنه

— غفر الله له — أس الداء وأصل البلاء فى هذه القضية .

* * *

ولم يبق الآن إلا ان نصحب عبد الكريم النهشلى فى كتاب العمدة لتلميذه وابن بلده أبى الحسن بن رشيق القيروانى ، وقد أحصيت المواضع التى ورد لعبد الكريم النهشلى ذكر فيها فوجدتها خمسة وثلاثين موضعا منها تسعة عشر فى الجزء الأول وستة عشر فى الجزء الثانى ، وهذه هى مرتبة ومقومة : —

## ١ – العمدة ج ١ ص ٢٤

ورد ذكر عبد الكريم النهشلى فى باب فضل الشعر بمناسبة قصة كعب بن زهير لما نصحه أخوه بجير بقوله : — ان كان لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله فإنه لا يقتل من جاءه تائبا ، وعمل كعب بالنصيحة وانشد النبى قصيدته التى أولها :ـ

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول  متيم إثرها لم يفد مكبول

قالوا فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم ووهب له بردته .

وذكر جماعة — منهم عبدالكريم بن إبراهيم النهشلى الشاعر — أنه أعطاه مع البردة مائة من الإبل .

والنهشلى هنا ليس ناقدا بل شاعر — كما وصفه ابن رشيق — وراوية أقصد عالما بالمواقف التاريخية فى الأدب .

* * *

ولا يفوتنا ونحن فى باب فضل الشعر من كتات العمدة أن ننبه إلى أن الباب الذى أخذ منه صاحب هدى كامل المبرد النص المشار إليه آنفا اسمه « باب فى

فضل الشعر » كما هنا لكن بزيادة « وما تعلق به وانضاف إليه من خبر أو شعر » .

ولا يوجد هذا الباب — وهو أم الكتاب — ضمن أبواب هدى كامل المبرد مما يدل على أنه لا يمت بصلة إلى كتاب الممتع . وحكاية كعب لا بد أن تكون قد وردت في هذا الباب من كتاب الممتع فهى تدل على فضل الشعر وانتفاع كعب به فى هذا الموقف الذى كانت حياته أثناءه معلقة بمدى توفيقه فى التأثير على الرسول بشعره ، ولنضف إلى ما تقدم أن هذه الحكاية لم ترد فى مصورة هدى كامل المبرد .

وإذا كان ابن رشيق قد اقتصر فى باب فضل الشعر على ذكر عبد الكريم النهشلى فى قصة كعب ، فإنه قد استمد منه واستلهمه بل يكاد أن يكون قد نقل عنه وهو يتكلم عن أسبقية النثر ، قال ابن رشيق : — وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به أى فطنوا[٥] .

إن هذا الكلام لابن رشيق فى العمدة يشبه كلام النهشلى فى الممتع ، وارجع إلى النص الذى وثقه له صاحب هدى كامل المبرد فى اللوحة رقم ١٩ .

على أن بهدى كامل المبرد نصاً آخر ذكره مؤلفه منسوباً إلى « بعض العلماء بالعربية » وهو أوضح وأصرح فى أخذ ابن رشيق من كتاب الممتع ، فأنا أرى أن « بعض العلماء بالعربية » هو النهشلى ، وهذا النص هو : — أصل

(٥) العمدة حـ ١ ص ٢٠ .

الـكلام منثور ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر مناقبها ووقايعها وتضمين مآثرها ، إذ كان المنطق عندهم هو المؤدى عن عقولهم وألسنتهم وأفئدتهم والمبين لحكمهم والمخبر عن آدابهم ، ولا فرق بين الإنسان مالم ينطق وبين البهيمة إلا بتخالف الصورة ، ولذلك قالوا : الصمت منام العقل والمنطق يقظته ، والمرء مخبوء تحت لسانه حتى ينطق ، وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره ، وأجمعوا على استحسان الـكلام مع الصواب كما أجمعوا على كراهة الـكلام مع الإسهاب ، وكرهوا زيادة المنطق على الأدب وزيادة الأدب على المنطق حتى قالوا : زيادة أدب على منطق هجنة وزيادة منطق على أدب خدعة »[٦] .

إن هذا النص نص فى أولية النثر ، وكلام عبد الـكريم فيه أشد من النص الأول فى الدلالة على استفادة ابن رشيق منه وأخذه عنه ، ثم هو بعد أشبه بكلام صاحب الممتع فى باب فضل الشعر الذى دلنا عليه صاحب هدى كامل المبرد .

## ٢ — العمدة جـ١ ص٥٦

استهل ابن رشيق الباب السادس وهو باب شفاعات الشعراء وتحريضهم بقوله :ـ قال عبد الـكريم : — عرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبى صلى الله عليه وسلم وهو يطوف فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه وقد كان قتل أباها فأنشدته قصيدة منها :ـ

أمحمد ها أنت نجل نجيبة ... من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من قتلت وسيلة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

---

(٦) هدى كامل المبرد لوحة رقم ١٥٠

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته .

والنهشلى هنا راوية كما قلناه .

ومن المعقول أن يكون هذا النقل عنه من باب « فضل الشعر وما تعلق به وانضاف اليه من خبر أو شعر » فهذه الحكاية دليل على فضل الشعر ، وهى جزء من أخباره، وقد جاء فيها شعر، لكن بالرجوع إلى هدى كامل المبرد وجدنا أنها قد وردت فى الباب الأول منه وهو فى العفو عمن أذنب لوحة رقم ١٧ أى قبل قول المؤلف » ومن كتاب المتع فى فضل الشعر ... بلوحتين، وورودها فى هذا الباب من كتاب « هدى كامل المبرد » سائغ ومقنع .

## ٣ — العمدة جـ ١ ص ٧٥

فى باب منافع الشعر ومضاره تناول ابن رشيق طرفاً من علاقة المتنبى بكافور فى مصر قال :

وكان كافور الأخشيدى قد وعد أبا الطيب بولاية بعض أعماله فلما رأى تعاظمه فى شعره وسموه بنفسه خافه ، وعوتب فيه فقال : يا قوم : من ادعى النبوة مع محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يدعى المملكة مع كافور ؟ حسبكم .

بهذا تنتهى رواية ابن رشيق ، لكنه ذيلها بقوله : وزعم أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمى متنبئاً لفطنته ، وقال غيره : بل قال : أنا أول من تنبأ بالشعر وادعى النبوة فى بنى الفصيص .

ومع أن ابن رشيق صدر كلام النهشلى بكلمة « زعم » التى تفيد التكذيب أو الشك (٧) إلا أنه من ناحية أخرى نقل عنه أولا أى قدم رأيه على رأى

---

(٧) انظر أساس البلاغة للزمخشرى مادة « زعم » ص١٩٢ .

غيره ، ثم هو ينهى الموضوع بما يشبه موافقته أو عدم معارضته له واقرأ قوله :
والأخبار فى هذا النوع كثيرة جداً ، وإنما جئت بأقربها عهداً وأشهرها فى
كتب المؤلفين مما يليق بالموضع ذكره .

وابن رشيق لا يناقض نفسه بهذا الكلام له وإنما يتحفظ .

وواضح أنه لا يزال مع باب فضل الشعر من كتاب الممتع إلا أنه هنا
فيما يتعلق به من خبر أو شعر .

## ٤ — العمـــــدة جـ ١ ص ٨٤

باب التكسب بالشعر والأنفة منه :

يقول ابن رشيق : وهذا باب قد احتذاه الكتاب فى زماننا هذا إلا
القليل ، وقوم من شعراء وقتنا أنا ذاكرهم فى كتاب غير هذا إن شاء الله
تعالى[٨] .

وعلى كل حال فإن الأخذ من الملوك كما فعل النابغة ومن الرؤساء والجلة
كما فعل زهير ، سهل وخفيف ، فأما الحطيئة فقبح الله همته الساقطة على جلالة
شعره وشرف بيته ، وقد كانت الشعراء ترى الأخذ ممن دون الملوك عارا فضلا
عن العامة وأطراف الناس قال ذو الرمة يهجو مروان بن أبى حفصة بذلك
ويفتخر عليه بأنه لا يقبل إلا صلة الملك الأعظم وحده، هكذا رواه عبد الكريم
وأنشده ابن عبد ربه أيضاً :

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن  مقسمة من هؤلا وأولئكا
وما نلت حتى شبت إلا عطية  تقوم بها مصرورة فى ردائكا

والنهشلى بعد لا يزال راوية يتكلم فيما يتعلق بالشعر من أخبار وشعر :

(٨) لعله يشير إلى كتابه « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » وهو مفقود .

## ٥ ـ العمدة جـ ١ ص ٩٣

باب فى القدماء والمحدثين : —

بعد أن يدخل صاحب العمدة نقولا فيه للأصمعى وابن قتيبة والإمام على وجعفر بن أحمد النحوى وابن وكيع يقول : — ولم أر فى هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى ، فإنه قال : — « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت مالا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء والحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم والذى أختاره أنا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوحشى المستكره ويرتفع عن المولد المنتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

وربما كان هذا النص أطول وأثقل نص فى ميزان النقد الأدبى أورده ابن رشيق للنهشلى ، وهو يعطى الكلمة الأخيرة والقول الفصل فى قضية القدماء والمحدثين ، فليست المسألة مسألة ماض وحاضر ، وبناء عليه ليست مسألة قديم وحديث، وإنما هى مسألة التوافق والانسجام مع العصر ومع البيئة ومع دواعى القول وأغراضه التى يقال فيها ومقاماته التى تتطلب استجابات معينة وتكيفا مرنا بحيث يتحول فى سهولة ويسر وحسبما تقتضيه الظروف والأحوال من هزل إلى جد ومن رقة إلى جزالة ومن وضوح إلى غموض ومن صنعة إلى طبع أو العكس.

والحكم بالجودة أو الرداء عندئذ لن يراعى فيه إلا إيراد الكلام على ما يقتضيه داعيه والغرض منه ومقامه ، وإذا نظرنا إلى زمن القائل فلكى نعرف مدى تكيفه معه ومراعاته له لا لنعرف موقعه منه .

والنهشلى بهذا الفصل قد حل مشكلة عويصة طالما شغلت النقاد ومؤرخى الأدب قبله ، وأنهى معركة حامية الوطيس بين أنصار القديم وأنصار الحديث وهو فى نفس الوقت قد رد الأمر إلى نصابه بتحديد الذين يناط بهم توضيح الخصائص الفنية للتجويد والتحسين فى كل عصر وهم « علماء الناس بالشعر ».

ولقد كان ابن رشيق مسروراً وهو يشد جسمه ويشحذ ذهنه راجيا أن يكون باختيار هذا الفصل لعبد الكريم وإثباته إياه فى كتاب العمدة ضمن هؤلاء العلماء بالشعر ، وعلى حد قوله « داخلا فى جملة المميزين له » .

* * *

والخلاصة أن هذا النص متحمل لحقائق كثيرة فى النقد ، ومن ذلك ما يأتى :ـ

( ا ) البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومقتضى الحال يختلف باختلاف الزمان والمكان ، وأهليهما .

(ب) يقوم النقد الأدبى على دعامتين هما الذوق وقواعد الأدب أى أنه مزيج من الذاتية والموضوعية والحكم بالجودة أو الرداءة فيه إنما ينصب على النص بدون نظر إلى أن صاحبه قديم أو حديث .

(ج) يقول النهشلى بالأمر الوسط فى لغة الأدب وهى اللغة الواقعة فى المنطقة المعتدلة بين السوقية والحوشية وبين الطبع والصنعة .

( د ) يسمح بتطعيم اللغة العربية بكلمات أجنبية .

(هـ) يؤمن بالتخصص فى النقد .

* * *

## ٦ ـــ العمدة جـ ١ ص ٩٤

باب المشاهير من الشعراء : —

وفيه نجد ابن رشيق ينقل عن عبد الكريم شرحه لعبارة قالها عمر ابن الخطاب للعباس بن عبد المطلب وقد سأله عن الشعراء فقال : —

« أمرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر » .

قال عبد الكريم : « خسف لهم » من الخسيف وهى البئر التى حفرت فى حجارة فخرج منها ماء كثير وجمعها خسف . وقوله « افتقر » أى فتح من الفقير وهو فم القناة ، وقوله « عن معان عور » يعنى أن امرأ القيس من اليمن وأن اليمن ليست لهم فصاحة نزار فجعل لهم معانى عور افتتح منها امرؤ القيس أصح بصر قال:وامرؤ القيس يمانى النسب نزارى الدار والمنشأوفضله على رضى الله عنه بأن قال : — رأيتـــه أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة » .

وعبد الكريم هنا عالم لغوى وعارف بمواطن الفصاحة فى شبه الجزيرة العربية ، وهو بعد قادر على رد الظواهر الأدبية إلى أسبابها الحقيقية وتبرير ما جاء منها على غير المتوقع .

ونلمح فى كلامه هذا رأيه فى القول بأثر البيئة فى الأدب ، وفى أن خضوع الأديب لمناخه الطبيعى والاجتماعى والثقافى والأدبى أوضح من خضوعه لعوامل الوارائة .

## ٧ — ١٠ — باب من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الأكفاء

يقول ابن رشيق : منهم الزبرقان بن بدر لما هجاه الحطيئة لم يره مكانا للجواب بل استعدى عليه عمر بن الخطاب فأنصفه ، وسحيم ابن وثيل يقول للأحوص والأبيرد بن المعذر وهما شاعران مفلقان – وقال عبد الكريم: الأبيرد ابن أخى الأحوص :—

عذرت البزل إن هى خاطرتنى فما بالى وبال ابنى لبون ؟ !!!

فأنت ترى هذا الاحتقار .

ونفهم من هذه الجملة المعترضة أن عبد الكريم خبير بأنساب العرب وبخاصة أهل الأدب وأن قوله فى ذلك حجة لأنه ثقة .

ويمضى ابن رشيق فى هذا الباب إلى أن يقول : — ومن الشعراء من يتزيا بالكبر ويظهر الأنفة فى الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه خوفا من الزراية على نفسه ، ومنهم من لا يهجو كفئا ولا غيره لما فى الهجو من سوء الأثر وقبح السمعة كالذى يحكى عن العجاج أنه قيل له : لم لا تهجو ؟! فقال: ولم أهجو ؟!! إن لنا أحسابا تمنعنا من أن نظلم وأخلاقا تمنعنا من أن نظلم وهل رأيتم بانيا لا يحسن أن يهدم ؟ !!! ثم قال : — أتعلمون أنى أحسن أن أمدح ؟ قالوا : نعم قال : أفلا أحسن أن أجعل مكان « أصلحك الله » قبحك الله ، ومكان « حياك الله » « أخزاك الله » ؟! وقد رد ابن قتيبة هذا القول على العجاج بأن الهجاء أيضا بناء وليس كل بان لضرب بانيا لغيره ، ورده الجاحظ أيضا بأن من الشعراء من لا يجيد فنا من الشعر وإن أجاد فنا غيره كما يوجد ذلك فى كل صناعة . يقول ابن رشيق : ومعنى الجاحظ وابن قتيبة واحد وإن

اختلف اللفظان والصواب ما قالا إلا أن يعرف من الشاعر أنف عن قدرة لا تدفع وبعد تجربة لا تستراب فحينئذ .

وسئل نصيب عن مثل ذلك فقال : — إنما الناس أحد ثلاثة : رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه ؟ ورجل سألته فأعطانى فالمدح أولى بهمن الهجاء ، ورجل سألته فحرمنى فأنا بالهجاء أولى منه .

ويعلق ابن رشيق على هذا بقوله : — وهذا كلام عاقل منصف لوأخذ به الشعراء أنفسهم لاستراحوا واستراح الناس ، وقد كان فى زماننا من انتحل هذا المذهب وهو أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى لم يهج أحدا قط ، ومن أناشيده فى كتابه المشهور لغيره من الشعراء : —

ولست بهاج فى القرى أهل منزل     على زادهم أبكى وأبكى البواكيا
فإما كرام موسرون أتيتهم     فحسبى من ذوعندهم ما كفانيا [9]
وإما كرام معسرون عذرتهم     وإما لئام فادخرت حيائيا

وفى هذا النص يبرز ابن رشيق عبد الكريم فى صورة الرجل العاقل المنصف فهو شاعر قادر على الهجاء ولكنه قد عف عنه حتى إنه لم يهج أحداً قط وقاراً ونبلا ، وهذه ناحية تتصل بالسلوك الشخصى والأدب الاجتماعى للنهشلى ، لكنها من حيث الكف عن الهجاء بالشعر تدخل فى الأدب بمعناه الفنى وهو الشعر والنثر.

وإذا كان هذا هو السلوك الشخصى للنهشلى فى الأدب وفى الحياة فأنه هو السلوك الذى ارتضاه وجعله قاعدة حين شرع بل هو السلوك الذى صدر عنه وهو يقوم الشعر ويصنفه إلى شعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد

(٩) هذا البيت من شواهد النحاة على مجىء ( ذو ) موصولة بمعنى الذى ، وأنها مبنية وليست معربة كذى بمعنى صاحب التى هى من الأسماء الخمسة — وانظر العمدة حـ١ ص١٢.

والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله وذلك القول فى الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتن به من المعانى والآداب ، وشعر هو شر كله وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس ، وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتى إليه من جهة فهمه [١٠]

وهذا التصنيف يقوم على أساسين مختلفين ومتداخلين : —

الأساس الأول أخلاق وهو ما نظر إليه فى تقسيم الشعر إلى شعر كله خير وشعر كله شر .

والأساس الآخر فنى أو يشبه أن يكون فنيا وهو ما نظر إليه فى تقسيمه إلى شعر الظرف وشعر التكسب .

فلم يبعد عبد الكريم عن موقفه السابق وهو موقف الأنفة من قول الهجاء والانصراف عنه ، على أنه لا يطيل مكثه فى هذه المنطقة بين الأخلاق والفن وإنما ينحاز إلى الفن كلية تقديراً منه لحاجة الفنان إلى الحرية فى التعبير عن الفكر والوجدان سواء كان مجال التعبير أخلاقياً أو غير أخلاقى ، قال: — يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون،فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر،ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر [١١] .

وهكذا تثقل كفة الخير فى ميزان عبد الكريم العاقل المنصف ، لكن لا تلبث كفة الفن أن ترجح فى ميزان عبد الكريم الناقد الفنان . وبعبارة

(١٠) العمدة ح ١ ص١١٨ باب فى الشعر والشعراء .
(١١) العمدة ح ١ ص١٢١ باب حد الشعر وبنيته .

أخرى هو ذاتى حين ينتج وموضوعى حين ينقد ، وهذه هى أعلى درجات الحياد لدى النقاد قديماً وحديثاً فى الشرق وفى الغرب .

## ١١ — العمدة ﺟ ١ ص ١٢٧

باب فى اللفظ والمعنى :

بعد أن يعطى ابن رشيق رأيه الخاص فى قضية اللفظ والمعنى يقسم النقاد إلى قسم يفضل المعنى على اللفظ وهم القلة ، وقسم يفضل اللفظ على المعنى وهم الكثرة ، ويستطرد قائلا : —

قال عبدالكريم — وكان يؤثر اللفظ على المعنى كثيراً فى شعره وتآليفه — الكلام الجزل أغنى عن المعانى اللطيفة من المعانى اللطيفة عن الكلام الجزل .

ويذكر ابن رشيق فى أعقاب ذلك أن هذا القول ليس لعبد الكريم وإنما حكاه ونقله نقلا عمن روى عنه النحاس ، ثم يمضى فى النقل عن عبد الكريم فيقول: — ومن كلام عبدالكريم: قال بعض الحذاق :المعنى مثال واللفظ حذو والحذو يتبع المثال فيتغير بتغيره ويثبت بثباته . ومنه ( من كلام عبد الكريم أى من نقوله فى كتابه ) قول العباس بن حسن العلوى فى صفة بليغ : معانيه قوالب لألفاظه . هكذا حكاه عبد الكريم وهو الذى يقتضيه شرط كلامه ، ثم خالف فى موضع آخر فقال : ألفاظه قوالب لمعانية ، وقوافيه معدة لمبانية والسجع يشهد بهذه الرواية وهى أعرف .

ونحن نرى أن ابن رشيق شغل نفسه بعبد الكريم كثيراً واستوفى ما عنده فى هذه القضية استيفاء كاملا وهذا دليل على ثقته فيه واعتزازه به ووقوفه عند أى كلام يجده فى كتابه حتى ولو لم يكن له .

## ١٢ — العمده ج ١ ص ١٤٣

باب الأوزان :

وفيه يقرر ابن رشيق أن الخزم ضد الخرم وأنه ليس بعيب ، لأن أحدهم إنما يأتى بالحرف زائداً فى أول الوزن إذا سقط لم يفسد المعنى ولا أخل به ولا بالوزن ، وربما جاء بالحرفين والثلاثة ، ولم يأتوا بأكثر من أربعة أحرف .

وبعد أن يمثل لذلك كله ينقل عن عبد الكريم هذا النص : قال عبد الكريم بن ابراهيم : مذهبهم فى الخزم أنه إذا كان البيت يتعلق بما بعده وصلوه بتلك الزيادة بحروف العطف التى تعطف الاسم على الاسم والفعل على الفعل والجملة على الجملة .

وأخذ الخزم من خزامة الناقة ، ومن شأنهم مد الصوت فجعلوه عوضاً من الخرم الذى يحذفونه من أول البيت .

وعبد الكريم قد حاز قصب السبق بهذا الرأى ، وكأن ابن رشيق وهو يسلم له بما قاله يتمثل بقوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » .

## ١٣ — العمدة ج ١ ص ١٨٨

باب فى القطع والطوال :

لام قوم الكميت على الإطالة فقال : أنا على الاقصار أقدر . وقد علق ابن رشيق على ذلك بقوله : هكذا جاءت الرواية ولا تكاد ترى مقطعاً إلا عاجزاً عن التطويل ، والمقصد أيضاً قد يعجز عن الاختصار ولكن الغالب والأكثر أن يكون قادراً على ماحاوله من ذلك ، وبالعجز رمى الكميت ، وكان عبد الكريم بهذه الصفة لا يكاد يصنع مقطوعاً ولا أظن فى جميع أشعاره خمس قطع أو نحوها

ووصف عبد الكريم أبا الطيب فزعم أنه أحسن الناس مقاطيع ، ولو قال بلاياء قلنا : صدقت ولم نخالفه .

وابن رشيق فى هذا النص المزدوج يقرر أن عبد الكريم من المقصدين أى من أصحاب القصائد وأنه لا يكاد يقدر على المقطعات ، وأنك لهذا غير واجد فى جميع أشعاره إلا خمس قطع أو نحوها ، فعبد الكريم طويل النفس فى الشعر ، والمطيل من الشعراء أهيب فى النفوس من الموجز ، هكذا قال ابن رشيق فى هذا الباب ، وهو لا يسلم لعبد الكريم بما قاله من أن المتنبى أحسن الناس مقاطيع ، فالمتنبى من أصحاب القصائد ، اشتهر بذلك وعرف به كما اشتهر بأنه من المجيدين فى المقاطع ، فهو ينهى قصائده نهايات عذبة لطيفة تجعل نفس القارىء أو السامع هادئة مستريحة .

ولو أن عبد الكريم قال ذلك لأثنى ابن رشيق عليه به ، أما وقد قال غير ذلك فهو معذور فى مخالفته ، وكان صادقاً مع نفسه ومع الحقيقة حين تعقبه وصوب له .

## ١٤ — العمدة ج ١ ص ٢٠٦

باب فى عمل الشعر وشحذ القريحة له :

يقرر ابن رشيق أن للناس ضروباً مختلفة يستدعون بها الشعر فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى كل امرىء على تركيب طبعه واطراد عادته ، وهو يعنى بذلك الإطار الذى يضع الشاعر نفسه فيه حين ينتج ، وهو فى الأغلب إطار طبيعى من الرباع المحيلة والرياض المعشبة ومن الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخالى ... الخ .

ويستطرد ابن رشيق قائلا : وحدثنى بعض أصحابنا من أهل المهدية — وقد

مررنا بموضع بهـا يعرف بالـكدية هو أشرفها أرضاً وهواء — قال : جئت هذا الموضع مرة فإذا عبدالـكريم على سطح برج هناك قد كشف الدنيافقلت : أبا محمد ؟!!! قال نعم . قلت : ما تصنع هاهنـا ؟ قال : ألقح خاطرى وأجلو ناظرى . قلت : فهل نتج لك شىء ؟ قال : ما تقر به عينى وعينك إن شاء الله تعالى وأنشدنى شعراً يدخل مسام القلوب رقة . قلت: هذا اختيار منك اخترعته؟ قال : بل برأى الأصمعى .

وعبد الـكريم بهذا يعطى — ولو من بعض الوجوه — درساً عملياً فى عمل الشعر وشحذ القريحة له وهو ما جعله ابن رشيق عنواناً لهذا الباب من كتاب العمدة .

## ١٥ — وفى باب البلاغة جـ ١ ص ٢٤٧

يمتاح ابن رشيق كتاب الممتع بقوله : ومن كتاب عبد الـكريم قال : حسن البلاغة أن يصور الحق فى صورة الباطل والباطل فى صورة الحق . قال : ومنهم من يعيب ذلك المعنى ويعده إسهابا ، وآخر يعـــــده نفاقاً ، قال : ومر غيلان بن خرشة الضبى مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذى يشق البصرة فقال عبد الله بن عامر : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر !!! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير يتعلم فيه العوم صبيانهم ويكون لسقياهم ومسيل مياههم ويأتيهم بميرتهم . قال : ثم مر غيلان يساير زياداً على ذلك النهر — وكان قد عادى ابن عامر فقال له : ما أضر هذا النهر لأهل هذا المصر !!! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير تندى منه دورهم ويغرق فيه صبيـانهم ومن أجله يكثر بعوضهم . فـكره الناس من البيان مثل هذا . انقضى كلام عبد الـكريم » .

وقد علق ابن رشيق عليه بقوله : والذى أراه أنا أن هذا النوع من البيان

غير معيب بأنه نفاق لأنه لم يجعل الباطل حقاً على الحقيقة ولا الحق باطلا وإنما وصف محاسن شيء مرة ثم وصف مساويه مرة أخرى كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأله عن الزبرقان بن بدر فأثنى خيراً فقال : مانع لحوزته مطاع فى أنديته ، فلم يرض الزبرقان بذلك وقال : أما إنه قد علم أكثر مما قال ولكن حسدنى لشرفى فأثنى عليه عمرو شراً وقال: أما لئن قال ما قال : لقد علمته ضيق الصدر ، زمر المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغنى ثم قال : والله يارسول الله ما كذبت عليه فى الأولى ولقد صدقت فى الآخرة ، ولكن أرضانى فقلت بالرضا ، وأسخطنى فقلت بالسخط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : وكأن المعنى والله أعلم أنه يبلغ من بيانه أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر فكأنه سحر السامعين بذلك .

إن نص عبد الكريم مع تعليق ابن رشيق عليه يجعلنا نحس مدى الأهمية التى كانت لكتاب الممتع بالنسبة لكتاب العمدة ، وأى تأثير أثره فيه وفى صاحبه . ليتنا نجده .

**١٦ ، ١٧ — العمده جـ ١ ص ٢٥٠ — ٢٥٣**

وفى باب الإيجاز يقول ابن رشيق : وأنشد عبدالكريم فى اعتدال الوزن :

إنما الذلفاء همى ... فليدعنى من يلوم
أحسن الناس جميعاً ... حين تمشى وتقوم
أصل الحبل لترضى ... وهى للحبل صروم

ثم قال ( عبد الكريم ) عندهم أنه ليس فى هذا الشعر فضلة عن إقامة الوزن .

يقول ابن رشيق : وهذه الأبيات وأشكالها داخلة فى باب حسن النظم عند غير عبد الكريم .

ويمضى ابن رشيق فى هذا الباب فيذكر أن منه نوعاً يسمى الاكتفاء مثل « واسأل القرية » ، ومثل قول النبى صلى الله عليه وسلم للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار : أليس قد عرفتم ذلك لهم ؟ قالوا : بلى . قال : فإن ذلك . يريد فإن ذلك مكافأة لهم . فأما قوله عليه الصلاة والسلام : « كيف بالسيف شا » يريد شاهداً فقد حكاه قوم من أصحاب الكتب أحدهم عبد الكريم .

والذى أرى أن هذا ليس مما ذكروا فى شىء لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما قطع الكلمة وأمسك عن تمامها لئلا تصير حكماً ودليل ذلك أنه قال : لولا أن يتتابع فيه الغيران والسكران فهذا وجه الكلمة والله أعلم لا كما قال لبيد : —

درس المنا بمتالع فأبان

يريد المنازل فحذف للضرورة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم غير متكلف ولا مضطر .

وابن رشيق فى هذين النقلين مميز الملامح واضح الشخصية فهو مرة مع عبد الكريم ومرة عليه .

## ١٨ — العمده جـ ١ ص ٢٧٩

باب التمثيل :

يقول ابن رشيق : ومما اختاره عبد الكريم وقدمه قول ابن أبى ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

يعنى الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر وكانت نهاية فى الحسن والكمال ، وسهيل بن عبد الرحمن بن عوف وكان غاية فى القبح والدمامة ، فمثل بينهما وبين سميهما ولم يرد إلا بعد ما بينهما وتفاوته خاصة ، لا أن سهيلا اليمانى قبيح ولا دميم ، ولا أدرى هل هذا الرأى موافق لرأى عبد الكريم أم لا وحسبك أن الشاعر لم ينكر إلا التقاءهما .

وابن رشيق هنا يحاذر أن يدنو ويدنو يحاذر ، فهو بعد أن يشرح ما عده عبد الكريم مثالا جيداً للتمثيل لايدرى إن كان فى شرحه هذا موافقا لعبد الكريم أو مخالفا له .

وهذا الموقف يحتمل أن يكون تواضعا ويحتمل أن يكون تلمذة وليس ما يمنع أن يكون تواضعا وتلمذة معا .

## ١٩ — العمدة جـ١ ص ٣٠٥

باب الإشارة :

يقول ابن رشيق « ومن أجود ما وقع فى هذا الباب قول النابغة يصف طول الليل :ـ

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض ‏ ‏ ‏ ‏ وليس الذى يرعى النجوم بآيب

« الذى يرعى النجوم » يريد به الصبح . أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيذهب بالأبل والماشية فيكون حينئذ تلويحه هذا عجبا فى الجودة ، وأما من قال: إن الذى يرعى النجوم إنما هو الشاعر الذى شكا السهر وطول الليل فليس علـى شىء .

وزعم قوم أن الآيب لايكون إلا بالليل خاصة ، ذكره عبد الكريم ».

وإسناد الرواية الأخيرة إلى عبدالكريم تنصل منها وتقوية لها ؛ فهى فى

نفسها ضعيفة ، ولهذا صدرها بكلمة « زعم » لكن عبد الكريم قد رواها ، ولا يسعه — والحالة هذه — أن يهملها . ونرى أن ابن رشيق قد بدأ يقف خلف عبد الكريم ، وقد قلنا منذ قليل : إن ذلك يحتمل أن يكون تواضعا ويحتمل أن يكون تلمذة .

## ٢٠ — العمده ج٢ ص٤

قال ابن رشيق : باب التصدير وهو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره فيدل بعضه على بعض ويكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ويكسوه رونقا وديباجة ويزيده مائية وطلاوة ، ومن أناشيدهم فى التصدير قول طفيل الغنوى : —

محارمك امنعها من القوم إننى … أرى جفنة قد ضاع فيها المحارم

وقول جرير وهم يستحسنونه جداً : —

سقى الرمل جون مستهل ربابه … وما ذاك إلا حب من حل بالرمل

ومن التصدير نوع سماه عبد الكريم المضادة وأنشد للفرزدق : —

أصدر هومك لايغلبك واردها … فكل واردة يوما لها صدر

وأنشد فى التصدير المتقدم بيت طفيل المتقدم وبيت جرير ، وخص بيت الفرزدق بالمضادة دون أن يجعله تصديرا كما جعله أولا طباقا كما يقال للأضداد إذا وقعت فى الشعر ، وقد رأيته فى بعض النسخ مع أبيات المطابقة .

وابن رشيق يسلم أوعلى الأقل لا يعترض على مايراه عبد الكريم وإنما يورده كما هو ، أى أن موقفه خلف عبد الكريم أوفى ظله لايزال مستمرا .

* * *

## ٢١— العمده جـ٢ ص١٩

باب المقابلة :

وفيه نجد ابن رشيق يأخذ موقف الناقد من عبد الكريم الشاعر . اسمعه يقول :ـ ومما عابه الجرجانى على ابن المعتز: —

بياض فى جوانبه احمـــرار كما احمرت من الخجل الخدود

لأن الخدود متوسطة وليست جوانب ، فهذا من سوء المقابلة وإن عده الجرجانى غلطا فى التشبيه ، وإنما العلة فى كونه غلطا ماذكرناه ، ويستطرد قائلا: ومما سقط فيه عبد الكريم من جهة المقابلة وإن كان تمثيلا وتشبيها قوله يمدح نزار بن معد صاحب مصر :—

إلى ملك بين الملوك وبينـــه مسافة ما بين الكواكب والترب

لأنه لما أتى بالملوك أولا وبضمير الممدوح وهو الهاء التى فى « بينه » بعد ذلك ثم أتى بالكواكب وهى جماعة تقابل الملوك وبالترب وهو واحد يقابل الضمير باتحاده ، أوجب له بهذا الترتيب أن يكون هو الترب ، وتكون الملوك هم الكواكب ، ولم يرد إلا أن يجعله موضع الكواكب ويجعلهم موضع الترب ولكن حكم عليه ما حكم على ابن المعتز الذى إليه انتهى التشبيه ، وسر صناعة الشعر ، ويدلك على صحة ما طلبته قول امرىء القيس بن حجر :—

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

قابل (الرطب) أولا بـ(العناب) مقدما ، وقابل (اليابس) ثانيا بـ(الحشف) تاليا . وكذلك قول الطرماح : —

يبدو وتضمره البـــلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد

فقابل ( يبدو ) بـ( يسل ) وقابل ( تضمره البلاد ) بـ( يغمد ) على الترتيب ،

وكذلك كان يجب لهؤلاء أن يصنعوا وإلا كانوا مخطئين أو مقصرين .

وعبد الكريم هنا شاعر وابن رشيق ناقد ، والحرية كل الحرية لابن رشيق في نقده ، وهو محق في مؤاخذته لعبد الكريم ، وعبد الكريم من المخطئين أو من المقصرين .

ولو أنه يمكن الاعتذار عنه بأنه أراد مجرد المبالغة في بعد المسافة بين نزار وبين غيره من الملوك أي بصرف النظر عن أنه على الأرض أولدى الكواكب فمقام المدح يحدد أن الممدوح مكانه في السماء عند الكواكب وأن الملوك مكانهم في الترب ، كما تقول : فلان بينه وبين فلان بعد المشرقين أو بعد ما بين الأرض والسماء فتقدم الأرض التي هي في مقابل الممدوح أو المفضل وتؤخر السماء التي هي في مقابل المذموم أو المفضل عليه لأنك لم ترد تحديد مكانهما ، وإنما أردت بعد ما بينهما .

## ٢٢ — العمدة ج ٢ ص ٢٦

باب التقسيم :

يقول ابن رشيق : ومن أنواع التقسيم التقطيع .

أنشد الجرجاني للنابغة الذبياني : —

وللہ عينا من رأى أهل قبة — أضر لمن عادى وأكثر نافعا
وأعظم أحلاما وأكبر سيدا — وأفضل مشفوعا إليه وشافعا

وسماه قوم منهم — عبدالكريم — التفضيل ، وأنشد في ذلك : —

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا — نأسو بأموالنا آثار أيدينا

وقال البحتري : —

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا
أو معينا أو عاذرا أو عذولا

فقطع وفصل كما تراه ، وقال أبو الطيب :ـ

فيا شوق ما أبقى ويالى من النوى

ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى

ففصل كما فصل أصحابه وجاء به على تقطيع الوزن كل لفظتين ربع بيت وقال أيضاً :

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا

والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وعبد الكريم هنا ناقد مستقل برأيه يعطى نفسه الحق فى تسمية الأشياء بغير أسمائها التى عرفت بها ، ومع أنه لا مشاحة فى الاصطلاح إلا أن الوقت الذى وجد فيه عبد الكريم كان وقتاً مبكراً فى تاريخ البلاغة العربية والنقد الأدبى العربى ، وكانت الاصطلاحات العلمية أو الفنية غير نهائية ، ولعل هذا هو السبب فى أن ابن رشيق لم يناقش عبد الكريم ولم يعترض عليه .

* * *

## ٢٣ — العمدة ج ٢ ص ٥٣

قال ابن رشيق : باب المبالغة وهى ضروب كثيرة والناس فيها مختلفون منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ويراها الغاية القصوى فى الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان وهو القائل : — أشعر الناس من استجيد كذبه وضحك من رديئه — هكذا أعرفه ورأيت بخط جماعة منهم عبد الكريم والباغانى : — من استجيد جيده ومطابقه وضحك من رديئه ، وروى قوم من حديث النابغة ومطالبته حسان بن ثابت بالمبالغة ونسبته إياه إلى التقصير فى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ما هو مشهور عندهم مشهور فى كتبهم .

ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيباً وهجنة فى الكلام .

وواضح أن عبد الكريم من أنصار المبالغة وهى وجهة نظر راجحة عند كثير من النقاد لأكثر من سبب .

## ٢٤ — العمدة ج ٢ ص ٧٤

باب التكرار :

قال ابن رشيق: للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها ، فأكثر ما يقع التكرار فى الألفاظ دون المعانى وهو فى المعانى دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب إذا كان فى تغزل أو نسيب كقول امرىء القيس — ولم يتخلص أحد تخلصه فيما ذكر عبد الكريم وغيره ولا سلم سلامته فى هذا الباب — .

ديار لسلمى عافيات بذى الخال
ألح عليها كل أسحم هطال

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا
بوادى الخزامى أو على رأس أو عال

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا
من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال

ليالى سلمى إذ تريك منضداً
وجيداً كجيد الريم ليس بمعطال

وعبد الكريم هنا يستحسن وقد أخذ ابن رشيق عنه هذا الاستحسان ، ومثل به للتكرار على جهة التشوق والاستعذاب ، أما أنه لم يتخلص أحد تخلص امرىء القيس فهذه حقيقه نقدية قررها ابن سلام فى طبقات الشعراء قبل عبد الكريم النهشلى حين قال :

احتج لامرىء القيس من يقدمه فقال . — ليس أنه قال مالم يقولوا ولكنه سبق إلى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء منها استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى وقيد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى (١٢) فعبد الكريم فى هذا تابع لابن سلام .

* * *

## ٢٥ — العمدة جـ ٢ ص ٩٣

باب الاتساع :

وهو أن يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل فيأتى كل واحد بمعنى ، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى من ذلك قول امرىء القيس

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر ويحسن مقبلا ومدبراً ثم قال « معاً » أى جميع ذلك فيه وشبهه فى سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطة السبل من

(١٢) طبقات الشعراء ص ٢٧ .

أعلى الجبل ، فإذا انحط من عال كان شديد السرعة فكيف إذا أعانته قوة السيل من ورائه : ؟ !

وذهب قوم منهم عبد الكريم إلى أن معنى قوله « كجلمود صخر حطه السيل من عل » إنما هو الصلابة لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والريح كان أصلب .

وعبد الكريم يفسر البيت تفسيراً علمياً أساسة معرفة الظواهر الطبيعية وهو شيء مبتكر .

* * *

٢٦ ، ٢٧ — العمدة جـ ٢ ص ١١٦ — ١٢٧

باب النسيب .

وحقه كما قال ابن رشيق أن يكون حلوا لألفاظ رسلها قريب المعانى سهلها غير كزولا غامض وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الأيثار رطب المكسر شفاف الجوهر يطرب الحزين و يستخف الرصين . ومن مختاره قول المرار العدوى :

وهى هيفاء هضيم كشحها   فخمة حيث يشد المؤتزر
صلتة الخد طويل جيدها   ضخمة الثدى ولما ينكسر
لاتمس الأرض إلا دونها   عن بلاط الأرض ثوب منعفر
تطأ الخز ولاتكرمه   وتطيل الذيل منه وتجر
ثم تنهد على أنماطها   مثل ما مال كثيب منقعر
عبق العنبر والمسك بها   فهى صفراء كعرجون العمر
أملح الناس إذا جردتها   غير سمطين عليها وسور

قال عبد الكريم : هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف وهى أشبه بنساء الملوك .

وما علق به عبد الكريم ليس نقدا أدبيا ، فهو لم يستحسن الشعر وإنما استحسن موضوعه وهو المركز الاجتماعى للمرأة الموصوفة فى هذا الشعر ، ولقد كان صادقا حين قال : هذه أملح وأشرف ماوقع فيه الوصف ، والتعبير بالوصف فيه دقة أى دقة ، لكأن الشاعر وهو يصف هذه المرأة التى هى أشبه بنساء الملوك يصف شيئا لا يعنيه ولا يهمه ولا يمت إلى قلبه وعقله بأية صلة ، وماصدر به ابن رشيق باب النسيب لا يكون التمثيل له بمثل هذا الشعر بل بما مثل به ابن رشيق نفسه حين قال . —

روى أبو على إسماعيل بن القاسم عن ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء عن راوية كثير قال : —

كنت مع جرير وهو يريد الشام فطرب وقال : أنشدنى لأخى بنى مليح يعنى كثيراً فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله : —

وأدنيتنى حتى إذا ماسبيتنى   بقول يحل العصم سهل الأباطح
تجافيت عنى حين لالى حيلة   وخلفت ماخلفت بين الجوانح

فقال : لولا أنه لايحسن بشيخ مثلى النخير لنخرت حتى يسمع هشام على سريره .

والذى أوقع ابن رشيق فى هذا الضرب من سوء التمثيل إنما هو تسليمه مقدما . بما يقوله النهشلى ونقله عنه أحيانا بلا تبصر .

ويظهر أنه لايزال واقفا خلفه ، وهو فى هذه المرة خلفه « حذوك النعل بالنعل » كما يقول المثل ، ومعذرة .

على أنه لايلبث أن ينقل عنه فى نفس الباب — باب النسيب — كلاما

معقولا مقبولا، لكنه يظن أنه له ولا يقطع. قال: قال بعضهم — أظنه عبد الكريم العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغازل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة والمخاطبة وهنا دليل كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم[١٣]

* * *

## ٢٨ — العمدة جـ ٢ ص ١٢٨

باب في المديح :

قال ابن رشيق وسبيل الشاعر إذا مدح ملكا أن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية ويجتنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل ، وقد حكي عن عمارة أن جده جريراً قال : يابني إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، فأنه ينسى أولها ويحفظ آخرها وإذا هجوتم فخالفوا

قال عبد الكريم : — « وهذا ضد قول عقيل بن علقة المراري » أي الذي يرى تطويل المديح وتقصير الهجاء

وهذه العبارة لاتوضح رأي عبد الكريم في هذه المسألة ، ولو أنها توضح وقوفه على اختلاف وجهات النظر فيها ، وما كان أغنى ابن رشيق عن إيرادها لكنها الأمانة العلمية من جهة ، والحرص على كلام النهشلي من جهة .

* * *

## ٢٩ — العمدة جـ ٢ ص ٢٤٧

باب في أغاليط الشعراء والرواة .

قال ابن رشيق :— وفي كتاب عبد الكريم من المأخوذ على أبي تمام قوله — :

(١٣) العمدة جـ ٢ ص ١٢٤ .

منها الوحش إلا أن هاتا أوانس
قنا الخط إلا أن تلك ذوابـــــل

قال : فيه غلط من أجل أنه نفى عن النساء لين القنا ، وإنما قيل للرماح «ذوابل» للينها وتثنيها ، فنفى ذلك أبو تمام عن قدور النساء التى من أكمل أوصافها اللين والتثنى والانعطاف ، قلت أنا (ابن رشيق) أما أبو تمام فقوله الصواب لأنهم يقولون : رمح ذابل « إذا كان شديد الكعوب صلبا وهو الذى تعرف العرب ، ومنه قولهم ذبلت شفتاه إذا يبستا من الكرب أو العطش أو نحوها فأما كلام المعترض فغير معروف إلا عند المولدين فإنهم يقولون : « نوارة ذابـــلة » .

وليسوا بقدوة على أن كلامهم راجع إلى ماقلناه ، إنما ذلك لقلة المائية وابتداء اليبس ، وإنما نقل عبد الكريم كلام ابن بشر الآمدى . وهنا يأخذ ابن رشيق مكانه فى المقدمة ويخلف عبد الكريم وراءه بعد أن أدانه بترديد كلام الآمدى :

* * *

٣٠— العمدة جـ٢ ص٢٨٠

فى باب السرقات وما شاكلها يورد ابن رشيق قول عبد الكريم قالوا : السرق فى الشعر ما نقل معناه دون لفظه وأبعد فى أخذه ، على أن من الناس من بعد ذهنه إلا عن مثل بيتى امرىء القيس وطرفة حيث لم يختلفا إلا فى القافية فقال أحدهما ( وتجمل ) وقال الآخر ( وتجلد ) ، ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى ، ومنهم من يكون الغامض عندهم بمنزلة الظاهر وهم قليل .

والسرق أيضاً إنما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر لا فى المعانى

المشتركة التى هى جاريه فى عاداتهم ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يورده أن يقال إنه أخذه من غيره .

قال عبد الكريم :— واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز وتركه كل معنى سبق إليه جهل ولكن المختار له عندى أوسط الحالات .

وهذا النص لعبد الكريم من باب السرقة الأدبية فى الصميم لكن لا جديد فيه ، ولقد كان أمينا حين صدره بلفظة « وقالوا » وهى تدل على أن الكلام منقول ولعل ما قاله من أن الاتكال على السرقة بلادة وعجز ، وترك كل معنى سبق إليه جهل ، والمختار هو الأمر الوسط ، لعل هذه الفكرة ثلاثية الأركان من أحسن ما قيل فى السرقات الأدبية إلى الآن .

* * *

٣٣— العمدة جـ٢ ص٢٩٧

باب الوصف .

قال ابن رشيق . ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤبة يصف الفيل :-

أجرد الحصر طويل النابين  مشرب اللحى صغير الفقمين (العينين)

عليه أذنان كفضل الثوبين

وقال آخر يصفه ، أنشده عبد الكريم :—

من يركب الفيل فهذا الفيل  إن الذى يحمله محمول

على تهاويل لها تهويل  كالطود إلا أنه يجول

هكذا أنشده ، وبين البيتين الأخيرين أبيات كثيرة أسقطتها وقد أنشدها غلام ثعلب عنه عن ابن الأعرابى ، وقال عبد الكريم فجمع ما فرقاه وزاد عليهما : —

وأصخم هندى النجار تعده ملوك بنى ساسان إن رابهما أمر
يجىء كطود جائل فوق أربع مضبرة لمت كما لمت الصخـــر
له فخذان كالكثيبين لبـــدا وصدر كما أوفى من الهضبة الصدر
ووجـه به أنف كراووق خمرة ينال به ما تدرك الأعلى العشر
وأذن كنصف البرد يسمعه الندى
خفيـــا وطرف ينقض الغيب مزور
ونابان شقـــــــا لايريك سواهما
قناتين سمراوين طعنهما نثر
له لون ما بين الصباح وليـــــله
إذا نطق العصفـــور أوغلس الصقر

* * *

وعبد الكريم هنا راو مرة وشاعر أخرى ، فهو كما قال الآخر : —
لقد حسنت أن تكون ساحراً راويـــة مرا ومرا شاعراً

ومن ... نة راوية مرة ثانية قول ابن رشيق فى باب بيوتات الشعر المعرقين فيه : —

ومن المعرقين فى الشعر — عن عبد الكريم — نهشل بن جرى بن صخرة ابن جابر بن قطن ستة ليس يتوالى فى بنى تميم مثلهم شعراً وشرفاً وفعالا(١٤).

والفرق بين المعرق وبين ذى البيت أن المعرق من تكرر الأمر فيه وفى أبيه وفى جده فصاعدا ، ولا يكون معرقا حتى يكون الثالث فما فوقه ، وعلى هذا فسر قول أبى الطيب : -

(١٤) هم خمسة كما ترى اللهم إلا أن يكون اسم السادس قد سقط وانظر العمدة جـ ٢ ص ٣٠٦ .

العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن قالوا : —

إنما أراد أنه معرق وزاد واحداً على الشرط المتعارف . وذو البيت من عم الأمر جميع أهل بيته أو أكثرهم ، فهذا فرق ما بينهما ، وأما الشاعر ابن الشاعر فقط فيقال له ( الثنيان ) حكاه عبد الكريم عن غيره(١٥) .

* * *

٣٤ — ٣٥ — العمدة ﺟ ٢ ص ٣١٣ — ٣١٤

باب الإنشاد وما ناسبه :

يقول ابن رشيق : — وإذا كان ما قبل حرف الروى ساكنا —وكانت لغة منشده الوقوف على المضموم والمكسور — ينقل الحركة كما أنشد أعرابى من بنى سنبس قول ذى الرمة : —

ولا زال منهلا بجرعائك القطُرْ

بضم الطاء وإسكان الراء لما وقف . حكى ذلك عبد الكريم وعلى هذا قول الآخر : —

أنا ابن ماوية إذا جد النَّقُرْ

وأراد النفر بالخيل ، وأنشد أبو العباس ثعلب : —

أرتنى حجلا على ساقها فهش الفؤاد لذاك الحجل
فقلت ولم أخف من صاحبى ألا بأبى أصل تلك الرِّجِلْ

يقول ابن رشيق مستطردا : — ومما يدخل فى شفاعة هذا الباب ( باب

(١٥) العمدة ﺣ٢ ص ٣٠٨ .

الإنشاد وما ناسبه ) : — الغناء والحداء والتغبير ويقال : إن أول من أخذ فى ترجيعه الحداء مضر بن نزار ، فإنه سقط فانكسرت يده فحملوه وهو يقول وايداه وايداه، وكان أحسن خلق الله جرما وصوتافأصغت الإبل إليه وجدت فى السير فجعلت العرب مثالا لقوله ، « هايدا هايدا » يحدون بها الإبل حكى ذلك عبد الكريم فى كتابه .

والنهشلى فى هذين النقلين الأخيرن عنه حكاء وراوية ، وهو فى كل الحالات من المصادر الهامة لكتاب العمدة .

* * *

وبعد هذه الجولة مع عبد الكريم فى كتاب تلميذه نسأل : لماذا لم يصرح ابن رشيق باسم كتاب عبد الكريم ولو مرة واحدة على الرغم من أنه انتفع به كثيراً وصرح باسم عبد الكريم مصحوبا برأى له أو بنقل عنه فى خمسة وثلاثين موطنا كما رأينا : ؟ !!! لقد وصفه بأنه مشهور ، وقلنا وقتها بسلامة نية لعله أشهر من أن يذكر ، لكن ذلك لم يكن ليمنع ابن رشيق من أن يذكر اسم الكتاب ولو مرة واحدة. ماذا ؟ ألم يسبقه قلمه إلى ذلك أبداً ؟ يخيل إلى أن المسأله فيها قصد من ابن رشيق وسوء نية فهو لا يريد أن يكون كتاب العمدة دعاية للمتع وقد رأينا له موقفـــا شبيها بهذا الموقف وهو يتحدث عن خصومه ومنافسيه فى بلاط المعز بن باديس بالقيروان وبالمهدية ، ولعله كان يقصد ابن شرف والمعجبين به قال : — وكم فى بلدنا هذا من الخفاث قدصاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين . إن البغاث فى أرضنا يستنسر ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ويدخلوا فى جملة من يعد خطله ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا وانتسبوا إليها انتحالا (١٦) .

هذه واحدة .

---

(١٦) العمدة جـ ٢ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

والأخرى هي أن هناك شبه إجماع على أن عبد الكريم النهشلي من شيوخ صاحب العمدة ، وقد وقف ابن رشيق خلفه أكثر من مرة كما رأينا .

وإذا كان الأمر كذلك فلم لم يقرن اسم عبد الكريم بكلمة شيخنا أو نحوها . نقول أيضاً : ولو مرة واحدة ،وهو قد قالها سبع مرات من أربع عشرة مرة أورد فيها اسم شيخه أبي عبد الله محمد بن جعفر اللغوى النحوى ، ولم يجرده في أية مرة من كنيته ، والكنية عنـد العرب برهان الاحترام ودليل الأكرام لصاحب الكنية (١٧) ، وقد توقعت ذلك في المرة التي أثنى عليه فيها وتمنى أن يكون عند حسن ظنه بها لكنه للأسف خيب ظني ولم يفعل (١٨) . وأكثر من ذلك لا تجد للتلميذ كلمة ترحم على أستاذه وهو قد ألف العمدة بعد موته . قالوا : إنه ألفه في المدد من سنة ٤١٢ إلى سنة ٤٢٥ هـ وكان النهشلي قد توفى سنة ٤٠٥ هـ (١٩) .

ومن عجب أن ابن رشيق قد ولد بالمسيـلة وهي مسقط رأس النهشلي قالوا : وكان النهشلي يتردد على المسيلة وابن رشيق بها فالتقى به وتلقى عنه ما شحذ ذهنه .

أليس هذا صحيحا ؟!! وإذا كان صحيحا فما مظهره ؟أجل إنه وهو صغير وقف من عبد الكريم موقفا مشرفا فقد روى أنه سمع في أحد المجالس يعلى ابن ابراهيم من علماء القيروان يعض من عبد الكريم ويقول عنه : — إنه مؤلف كلام غير مخترع ، فانبرى ابن رشيق وأغلظ له في القول مدافعا عن النهشلي ، فالتفت إليه يعلى منكراً وقال : — وأنت ما دخلك بين الشيوخ

---

(١٧) انظر العمدة جـ ١ صفحات ٨٩ ، ١٠٦ ، ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ٣٠٢ وجـ ٢ صفحات ٥٣ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٥ ، ٣٠٩ .

(١٨) العمدة جـ ١ ص ٩٣

(١٩) ابن رشيق الشاعر الناقد ص ٨٨ .

يابنى ؟ !!! [٢٠] .

لكن ذلك إن صح يكون قد وقع وهو حدث بدليل إنكار يعلى عليه تدخله بين الشيوخ وهو فتى فيظهر أنه كان فى أعقاب قدومه إلى القيروان وهو بعد ذو ولاء وعصبية لكل من هو من المهدية ، أما بعد أن كبر وعقل ورضى وسخط ودخل حلبة المنافسة العلمية وعقد العزم على أن يؤلف كتابا يكون عمدة الكتب جميعها بما فيها الممتع ، فقد تغير الحال واختلف الموقف .

ومن يدرى فقد يكون هذا الفتور منه سببه تسامى عبد الكريم عليه لصغره أولا ، ولأنه رومى ثانيا بينما هو عربى قد اكتمل ووصل ، وترسب كل ذلك أو بعضه فى العقل الباطن لابن رشيق الفتى ، حتى إذا شب عن الطوق وألف العمدة لم يظهر الولاء فيه إلا للوزير الكبير على بن أبى الرجال ، وهذا الشيخ أو ذاك من شيوخه الذين عطفوا عليه وتواضعوا له .

ربما ولعل هذه المسألة تظفر بمن يحققها وينير طريقها .

---

(٢٠) مسالك الأبصار للعمرى ج ١١ — قسم ٢ ص ٢٩٤ ومابعدها ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٨ ص ١٠٦ والقزاز القيروانى للمنجى الكعبى ص ٢٨ ،






# القزاز القيروانى

هو أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى . ولد بالقيروان فى حدود سنة ٣٢٢ هـ وقرأ بها على علمائها ثم ارتحل إلى المشرق وأخذ فيه عن أئمة العلم والأدب ، فنحن نقرأ له فى كتاب « ما يجوز للشاعر فى الضرورة » قوله : حدثنا أبو على الحسين بن إبراهيم الآمدى قال : حدثنا أبو الحسن على بن سليمان الأخفش قال : أخبرنا محمد بن يزيد المبرد(١) ، ونقرأ لابن رشيق فى العمدة قوله : — أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى عن أبى على الحسين ابن إبراهيم الآمدى عن ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن أبى زيد الأنصارى . . .(٢) وقوله : أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى عن أبى على الحسين بن إبراهيم الآمدى ... لرجل من بنى عبد شمس بن سعد بن تميم . .(٣)
وقد أقام القزاز بمصر مدة خدم فيها الأمراء الفاطميين بعلمه وأدبه ، والمرجح أنه غادرها بعد وفاة العزيز بالله سنة ٣٨٦ هـ قاصداً القيروان وقد استقر بها إلى آخر حياته أستاذاً للعربية والأدب ، ومن نجباء تلاميذه : الحسين بن محمد التميمى النحوى اللغوى وأحمد بن مكى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عبد الله المطرز وابن رشيق وابن شرف ، أما الحسين بن محمد التميمى — ويعرف بابن الربيب — فهو أصلا من مدينة تاهرت جاء إلى القيروان لطلب العلم وقد بلغ القزاز به النهاية فى الأدب وأنساب العرب ، وكان إلى ذلك شاعراً مقدماً خبيراً باللغة كأستاذه ، قال ابن رشيق عنه : — حدثنى حماد من أصحابنا قال :

---

(١) ص ٣٨ طبعة المنجى الكعبى سنة ١٩٧١ والعمدة جـ ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦
(٢) العمدة جـ ١ ص ١٨٣ .
(٣) العمدة جـ ٢ ص ٨٦ .

سألنا عبد الكريم : من أشعر أهـــل بلدنا في الوقت فبدأ بنفسه وثنى بابن الربيب[٤]

وأما أحمد بن مكى بن أبى طالب — ويعرف بابن حموش — فقد ولد بالقيروان سنة ٣٥٤ هـ وتعلم بها ، ورحل صغيراً إلى مصر سنة ٣٦٧ هـ وعاد إلى القيروان سنة ٣٦٩ ثم رجع إلى مصر سنة ٣٧٣ وعاد إلى القيروان سنة ٣٧٤ ثم أكثر من التردد على المشرق ، واستقر به المقام أخيراً فى قرطبة وتلقى عنه خلق كثير وكان له الفضل فى نقل كثير من مصنفات أستاذه إلى بلاد الأندلس .

والمطرز هو الذى كتب بخطه كتاب أستاذه « ما يجوز للشاعر فى الضرورة » وكان فراغه منه ليلة الثلاثاء لعشر مضين من ربيع الآخر سنة ٤٣١ هـ ، وعنه أخذت النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥١٥٧ أدب[٥] .

وفى كتاب « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » لابن رشيق ترجمة مسهبة لأستاذه القزاز ومما جاء فيها قوله : — « فضح أبو عبد الله المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين ، كان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة النـاس محبوباً عند العامة قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكاً شديداً ، له شعر مطبوع مصنوع ربما جاء به مفاكهة وممالحة من غير تحفز ولا تحفل ، يبلغ بالرفق والدعة على الرحب والسعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى وتوكيد المبانى ، وأغلب ما وصلنا منه فى الغزل قال : —

---

(٤) « شعراء القيروان » من « انموذج الزمان » لابن رشيق جمع وتعليق ز.ين العابدين السنوسى ص ٦٩ — ٧٢ طبعة دار المغرب العربى بتونس سنة ١٩٧١ . وهذا الكتاب ليس « انموذج الزمان » وإنما هو نتف منه اما الانموذج نفسه فمفقود كما قلنا فى الهامش رقم ٨ من دراستنا للنهشلى .

(٥) القزاز القيروانى للمنجى الكعبى صفحات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

أما ومحل حبك فى فؤادى       وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لى الآمال حتى       تصير لى عنانك فى يمينى
لصنتك فى محـــــل سواد عينى
وخطت عليك من حـــذر جفونى
فابلغ منك غايات الأمانى       وآمن فيك آفات الظنون
فلى نفس تجرع كل يوم       عليك بهن كاسات المنون
إذا أمنت قلوب الناس خافت       عليك خفى ألحاظ العيـــون
وكيف وأنت دنياى ولولا       عقـاب الله فيك لقلت دينى

وقال : —

أحـين علمت أنك نور عينى       وأنى لا أرى حـــتى أراك
جعلت مغيب شخصك عن عيانى
يغيب كل مخلوق ســـــواك

وتوفى القزاز القيروانى سنة ٤١٢ ه عن تسعين سنة تقريباً[١] :

* * *

## القزاز النـاقد

للقزاز مؤلفات كثيرة فى النحو واللغة ، لكن له إلى ذلك كتبا فى النقد والبلاغة منها :

١ — التعريض والتصريح ( فى مجلد ) :
٢ — ما أخذ على المتنبى ( فى مجلد )

---

(١) « شعراء القيروان » من « انموذج الزمان ص ١٢٥ — ١٢٦ وانظر القزاز القيروانى ص ٩٩ — ١٠٣ .

٣ — أبيات معان فى شعر المتنبى ( فى مجلد ) .

٤ — شرح رسالة البلاغة ( فى عدة مجلدات ) .

٥ — أدب السلطان والتأدب له ( فى عشر مجلدات ) .

ولم تصلنا هذه الكتب للأسف لكن وصلنا له كتابه :

«ما يجوز للشاعر فى الضرورة » وهو كتاب نحو ونقد كما سيتضح فيما بعد والقزاز مع الشعراء وليس عليهم فى ضرورة الشعر ، أى أنه على مذهب سيبويه والخليل وليس على مذهب ابن فارس وثعلب، فهو لم يؤلف كتابه عن الضرورة ليمنعها عن الشعراء ويعيبهم بها كما فعل معظم من تكلموا عنها قبله بل ليضعها أمامهم ويبيحها لهم ، وهو إلى ذلك يعتذر بها عنهم ويحاول أن ينصفهم عند من يأخذها عليهم ، ولعل ذلك إنما جاءه من أنه شاعر ، والشعراء أعذر لأنفسهم من غيرهم ولندعه يتكلم ، قال .

« هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما يجوز للشاعر عند الضرورة من الزيادة والنقصان والاتساع فى سائر المعانى من التقديم والتأخير والقلب والأبدال وما يتصل بذلك من الحجج عليه وتبيين ما يمر من معانيه فأرده إلى أصوله وأقيسه على نظائره ، وهو باب من العلم لا يسع الشاعر جهله ولا يستغنى عن معرفته ليكون له حجة لما يقع فى شعره مما يضطر إليه من استقامة قافية أو وزن بيت أو إصلاح إعراب ، وذلك أن كثيراً ممن يطلب الأدب ويأخذ نفسه بدراسة الكتب إذا مر به بيت لشاعر من أهل عصره أو لطالب من نظرائه فيه تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقصان وتغيير حركة عما حفظ من الأصول المؤلفة له فى الكتب ، أخذ فى التشنيع عليه والطعن على عمله والإجماع على تخطئته ، ولو نظر بعين الحق لعلم أن ذلك لا يخرج إلا من وجهين : إما أن

يكون ذلك لعلل تغيبت عنه لم يبلغ النهاية من علمها وهو كذلك ، وإما وهمه الذى لعله إن نبه عليه أو أعاد نظره فيه رجع عنه إلى الصواب وتخطاه إلى مالا مطعن فيه من الكلام ، إذ كان غير معصوم من الخطأ ولا ممنوع من الزلل ، فليس للناظر فى الأصول مع تأخره عن الإحاطة بساير الفروع الهجوم على ما لعله جائز عند المتقدمين فى العلم الناظرين بعين الحق .

وهو يمثل لمـا آخذ بعض العلماء على الشعراء ببيت أبى نواس .

نبه نديمك قـــد نعس يسقيـــك كأسا فى الغلس

قالوا : كان الوجه « يسقك » لأنه جواب الأمر . وهو جزم تسقط له الياء من « يسقيك » كما تقول فى مثله : ارم زيداً يرمك فتحذف اليـاء للجزم ، وهذا ما أصل فى الـكتب المختصرات على ما قيل ، غير أن لجوازه وجها من العربية وهو أن الشاعر له أن يجرى المعتل مجرى السالم ومثله قول الشاعر :

ثم نادى إذا دخلت دمشقـا يا يزيد بن خالد بن يزيد

فقال « نادى » وهو أمر فاثبت الياء على ما ذكرنا .

وأخذ عليه أيضاً قوله :

كمن الشنآن فيـــه لنـا ككمون النار فى حجره

قالوا : — « النار مؤنثة ، فـكان الوجه أن يقول : — ككمون النار فى حجرها » وهذا ظاهره على ما قالوا ، ولـكن العرب تتسع فتذكر المؤنث لمعنى تخرجه له يؤول به إلى التذكير كما قال امرؤ القيس .

بر هرهة رخصة رودة كخرعوبة البانة المنفطر

فذكر الخرعوبة والبانة لأنه يريد الغصن أو نحوه من المذكر .

وكما قال الآخر :

لو كان مدحة حى منشراً أحدا
أحيـا أباكن ياليـلى الأماديح

فقال : « منشراً » وهو للمدحة ، فذكر لأنه يريد المدح أو غيره مما هو في معناه من المذكر .

هذا على أن بعض النحويين يقول : — كل مالا روح له يجوز تذكيره وتأنيثه ، وهذا وإن لم يكن بشيء فقد ذكرنا ما يعضده من شعر العرب ، على أن بيت أبى نواس له وجه لا ضرورةفيه وهو أن « الكمون » مذكر مضاف إلى النار فيرد الهاء عليه فكأنه قال : — ككمون النار فى حجر الكمون ، أى فى الحجر الذى تكمن فيه النار(٧) .

وقد أخذ على أبى الطيب أحمد بن الحسين قوله :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

قالوا : الغلط فى البيت من وجهين :

أحدهما : أنه وصل المندوب وحرك الهاء ، وهى هاء إنما تدخل فى الوقف وهى ساكنة أبداً إذا قلت « وازيداه ، واعمراه » وإذا وصلت أسقطت الهاء فقلت : « وازيد بن عمرو » .

والوجه الثانى : أنه اسقط الياء من المضاف إليه وهو موضع لا تسقط فيه الياء ، لأنه إذا قال : « ياغلام » أسقط الياء ، فإذا قال « ياغلام غلامى » لم يجز إسقاطها فقوله : « واحر قلباه » بمنزلة يا غلام غلامياه « فكما لا يجوز إسقاط الياء من الآخر لا يجوز إسقاطها من « القلب » يقول القزاز : وهذا

(٧) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ٢٣ — ٢٥ .

أيضاً يجوز فى اتساع كلام العرب أما إثبات الهاء فى الوقف ووصلها فقد جاء فى شعر العرب وهو قول بعضهم ( عروة بن حزام العذرى ) :

وامر حبـاه بحمـار أعفـرا  اذا أتى قدمتـه لمـا شـا

من الشعير والحشبش والما

* * *

وكذلك قول الآخر :

وامر حباه بحمار ناجيـه  إذا أتى قدمته للسانيـه

فوصل الهاء وحركه .

فأما حذف الياء فقد أجازه بعض النحويين واحتج بأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة اسم واحد، فكما جاز حذف الياء من الأول جاز حذفها من الثانى[8]

* * *

وواضح أن القزاز متسامح فى مسألة الضرورات الشعرية وأنه يدافع عن الشعراء محاولا تسويغ ما جاء منها فى أشعارهم بما جاء منها فى أشعار القدماء ، أو تخريجها تخريجاً علمياً مسلماً به .

ولكن المآخذ كثيرة منها مآخذ نحوية كما مر ، ومنها مآخذ لفظية ومنها مآخذ معنوية ، وهو لن يتناول كل هذه المآخذ وإنما سيقتصر على المآخذ النحوية بل على بعضها لأنها أكثر مما يمكن إيراده ، وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض ، ففيما جاء به دليل على ما شذ عنه . قال : ولم نقصد فى هذا الكتاب إلى العيوب التى تجرى فى الشعر مما يؤخذ على الشعراء فى غير النحو ، ولو قصدت إلى ذلك وذكرت كل ما أخذ على الشعراء فى كل فن ،

---

(٨) مايجوز للشاعر فى الضرورة ص ٣٠ — ٣١ .

لعظم ما أردت تقليله وصعب ما قصدت تسهيله وبعد ما املت تقريبه، إذ كانت فنون الشعر كثيرة وطرق العيوب موجودة، وإنما قصدت إلى فن الناس اليه أحوج منه إلى غيره، ومعرفتهم له ألزم والفائدة فيه أعظم واقتصرت عليه ولم ألتفت إلى ما سواه من العيوب(٩) .

وليس معنى هذا الكلام للقزاز أنه أهمل المآخذ غير النحوية لفظية ومعنوية، بل إنه استطرد إليهما وأعطى أمثلة كثيرة لهما بحيث وصل بهما إلى ثلث كتابه، أما باقيه فقد التزم فيه بما حدده وهو ما يجوز للشاعر من خروج على المتعارف من قواعد النحو واللغة لضيق الشعر، وما يوجبه الوزن والروى ومن كان متكلما فهو فى فسحة من لفظه أن يضطر إلى معيب منه .

ولما كان كل من الخطأ اللفظى والمعنوى يدخل فى باب النقد الأدبى كالخطأ النحوى، فإنه يجدر بنا أن نضرب أمثلة لهما مما أورده القزاز فى كتابه وهو كل ما تبقى لنا من تراثه النقدى. قال. ومما أخذ عليهم من جهة الغلط فى الألفاظ قول حميد بن ثور :

لما تخايلت الحمول حسبتها دوما بأيلة ناعما مكموما

قالوا : فأخطأ لأن الدوم شجر المقل وهو لا يكم وإنما يكم النخل، ومن يحتج لهذا يرويه « نخلا » .

وأخذ على كعب بن زهير قوله وذكر ناقة فقال :

( ضخم مقلدها فعم مقيدها )

فوصف المقلد بأنه ضخم والنجائب إنما توصف بدقة المذبح، وعيب على المتلمس قوله :

---

(٩) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ١٩٠، ٣٥ .

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره　　بناج عليه الصيعرية مكدم

ولما سمعه طرفة يقول هذا قال : استنوق الجمل أى صار ناقة فذهب قوله مثلا ، وإنما عيب عليه لأنه يمضى الهم بفحل من الإبل وجعل عليه الصيعرية وهى سمة لا تكون إلا على الأناث فلذلك قال طرفة : استنوق الجمل أى صار بهذه الصفة ناقة (١٠).

* * *

ونصل إلى المعانى المعيبة فنجد القزاز قد جعلها قسمين وفصل بينهما بالمآخذ اللفظية ، القسم الأول معيب لكنه صحيح فى ذاته وهو لهذا يؤخذ على علاته كأخذهم على طرفة قوله :

أسد غاب فإذا ما شربوا　　وهبوا كل أمون وطمر

قالوا : والبخيل فى مثل هذه الحال يفعل ما افتخر هذا به ، فلا فضل له لا نخر فى هذا البيت حتى يكون مثل قول عنترة :

فإذا شربت فإننى مستهلك　　مالى وعرضى وافر لم يكلم

فإذا صحوت فما أقصر عن ندى　　وكما علمت شمائلى وتكرمى

فأخبر أنه فى حال صحوه يفعل ما يفعل فى حال شربه ، وبهذا يكمل الفخر ويعلو الذكر (١١).

وكأخذهم على النابغة قوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى　　وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا : إن هذا ليس بغاية فى التبالغ لأنه جاء بما له قسيم يفعل مثل فعله ، وهو أن النهار يدرك ما يدرك الليل ، وإنما كان يتم له ما قصد لو أتى بشىء لا قسيم له فقوله :

---

(١٠) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ٤٣ — ٤٤ .

(١١) مايجوز للشاعر فى الضرورة ص ٣٦ — ٣٧ .

كأنه الدهر فى إدراك غايتــه أو المنايا إذا جاءت على عجل

أبلغ منه لأنه جاء بما لا قسيم له وكذلك قول الآخر :

هم للعداة كآجال مســـــومة إن حاولوا فوتها آلوا ولم يئلوا

الآجال لا يفوتها شيء ولا قسيم لها فهى أبلغ من الليل إذ كان النهار قسيمه[١٢].

ومن هذا القسم ما أخذوه على بيت المرار العدوى فى صفة النخل :

كأن فروعهــا فى ظل ريح جوار بالذوائب ينتضينا

فمعنى « ينتضين » يأخذ بعضهن بنواصى بعض. يريد أنه قرب بعضه من بعض فالتفت فروعه ، وهذا عيب لأن النخل إذا تباعد كان أجود له وأصح لثمره ، والعرب تقول :

قالت نخلة لأخرى : أبعدى ظلى من ظلك أحمد حملى وحملك[١٣] والقسم الثانى معيب لكنه فاسد ومرفوض لأنه يؤدى عكس ما يعنى المتكلم ، ومن ذلك قول الأخطل يهجو زفر بن الحارث :

بنى أميــة إنى ناصح لــكم فلا تبيتن فيــكم آمناً زفر

مرتبئاً كارتبــاء الليث منتظر لوقعة كائن فيهـــا له جزر

روى أن الأخطل مر بقوم يتذاكرون الشعر والشعراء ولم يذكروه ولا شيئاً من شعره فقال : ما كنت أظن أنى أعيش حتى أرى قوماً يتذاكرون الشعر والشعراء ولا يذكروننى ولا شيئاً من شعرى ، ثم أقبل عليهم فقال: عرفتمونى ؟

---

(١٢) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ٣٨ .

(١٣) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ٤٥ .

قالوا : نعم . قال : فلم أغفلتم ذكرى وذكر شعرى ؟ قالوا : وبم استحققت أن تذكر ؟ قال : وبم استحققت أن أغفل ؟ قالوا لأنك أردت أن تهجو فمدحت ، قلت لما هجوت زفرين الحارث : وذكروا البيتين ثم قالوا : وأى مدح أكثر من هذا تهددت به بنى أمية وهم الخلفاء وجعلته مما يكون له وقعة ولا تكون الوقعة إلا لمن يتقى ولم ترض حتى جعلته ممن يكون له جزر إذا أوقع وهذا غاية المدح ، وقلت تمدح ابن منجوف فهجوته فى قولك :

قد كنت أحسبه قينا وأنبؤه    فالآن طير عن أثوابه الشررا

وما هذا من المدح ، أما كان لك فى الكلام مذهب أحسن من هذا ؟ كأنه لم يرتفع عندك إلا حيث لم يكن قينا ، وقد ذكرت أنك أنت رفعته بشعرك عن أن يكون قينا وهذا من أقبح العيوب ومعنى هذا الكلام أنه كان يقال لرهطه القيون ، تقول فلما مدحته طار الشرر عن أثوابه[١٤] .

ويختم القزاز هذا الفيض من المآخذ اللفظية والمعنوية بقوله :

والأخذ على الشعراء كثير لمن طلب مثل هذا ، وإنما قصدنا إلى ضرب من عيوب الشعر ، ومما يجوز للشاعر فى شعره من غامض العربية ومستنكرها فى المنثور ليكون فيما أخبرنا حجة لهذا وأمثاله ، إذ أن عيوبه أكثر من أن يتضمنها كتاب أو يحيط بها خطاب من الفساد فى المعانى والخطأ فى اللغة واللحن فى دقائق العربية وفساد التشبيه والتقديم والتأخير ووضع الشىء غير موضعه واختلاف القوافى وما يجوز فيها من الإكفاء والإقواء وغير ذلك[١٥] .

وبعد فلم يكن القزاز ناقداً بمؤلفاته الضائعة وحدها ولا بما قاله فى الضرورة

---

(١٤) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ٤٩ — ٥٠ .

(١٥) ما يجوز للشاعر فى الضرورة ص ٥٥ .

الشعرية على سعة ما قاله فيها وعمقه ، وإنما كان ناقداً بهذا ، وبعمله فى عاصمة المغرب ، فقد كانت الشعراء تقصده ليثقف لها أشعارها ، وليحكم عليها أولها ، وربما ليوازن بينها ويختار منها .

وهذا يدل على أنه كان ناقداً بصيراً بالشعر يعرف حق المعرفة رديئه وجيده ، ومامن شك فى أنه صدر فى تأليف كتابه «ما يجوز للشاعر فى الضرورة» عن رغبة أكيدة فى توسيع النحو واللغة للشعراء ، إذ كان يدرك كما ندرك نحن الآن أنه قد تتأتى لهم الإجادة ويفيض عليهم أروع الشعر من طرق مخالفة للنحو واللغة بعض المخالفة

والمؤرخون يذكرون أن الفاطميين كانوا يسطون مذهبهم بالسيف ، وأن طرق الدعاية عندهم كانت قائمة على الرغبة والرهبة ، وقد شهد الناس بطشهم فى أول دخولهم افريقيا فاقترن أمرهم فى نفوسهم بالظلم والجور واعتصموا منهم بالصمت والصبر وتشبثوا فيما بينهم وبين أنفسهم بمذهبهم السنى مؤمنين بأن الجور لن يدوم ، وبأن غضبهم المكتوم سينفجر فى وقت مبكر وهذا ما كان . فإنه ما كاد الفاطميون ينتقلون إلى القاهرة حتى كانت واقعة المشارقة وفيها صب السنيون فى القيروان جام غضبهم على الشيعيين وقضوا عليهم القضاء المبرم[١٦] .

وقد صنع الشعراء بهذه المناسبة التاريخية قصائد ملحمية ، سجلوا فيها انتصارهم على الشيعة وفرحهم بإشراق شمس السنة من جديد على المغرب .

ويحدثنا ابن رشيق أن شيخه قدمت له جميع القصائد فجعل يوازن بينها

---

(١٦) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص ٨٢ والبيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٨ ومابعدها وبنو زيرى وسياستهم الداخلية لحسن أحمد محمود ص ١٧٤ ورحلة التيجانى ص ٢٦٦ .

ويأخذ ويترك من أبياتها إلا قصيدة واحدة اختيرت بأجمعها وهي قصيدة الحسن بن على الكاتب أحد شعراء القيروان في ذلك الوقت[١٧].

ولقد كان القزاز بهذا يؤدى دوراً شبيهاً بدور النابغة فى الجاهلية ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مذهبه السنى ، وعلى اطمئنان الشعراء إلى ذوقه الفنى وبراعته النقدية .

(١٧) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ص ٨٢ — ٨٤ والقزاز القيروانى صفحات ٣٦ ، ٣٧ ، ١٩٢ .

— ٣ —

## الحصرى القيروانى

٣٣٠ — ٤١٣ هجرية

هو أبو إسحق ابراهيم بن على ابراهيم بن تميم الانصارى المعروف بالحصرى القيروانى ، والحصرى نسبة إلى صناعة الحصر أو بيعها ، أو إلى قرية الحصر ، وهى إحدى ضواحى القيروان ، ولد فى مدينة القيروان ونشأ بها ، وتلقى العلم والأدب على أعلامها ، ولما فتح جوهر الصقلى مصر وانتقل الفاطميون إليها ومعهم علماؤهم وأدباؤهم خلا له الجو واشتهر وصار قطباً من أقطاب الحياة الأدبية فى افريقيا .

قال ابن رشيق عنه : كان شاعراً نقاداً عالماً بتنزيل الكلام وتفصيل النظام يحب المجانسة والمطابقة ويرغب فى الاستعارة تشبهاً بأبى تمام وتتبعاً لآثاره قال :

أورد قلبى الردى لام عذار قد بدا
أسود كالكفر فى أبيض مثل الهدى

وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء كقوله فى بعض مقاطعه :

يا هل بكيت كما بكت ورق الحمائم فى الغصون
هتفت سحيراً والربى للقطر رافعة الجفون
فكأنما صاغت على شجوى شجى تلك اللحون
ذكرنى عهداً مضى للأنس منقطع القرين
فتصرمت أيامه وكأنها رجع العيون

وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورأس عندهم وشرف لديهم وانثالت عليه الصلات .

ثم ذكر أن أبا إسحق كان قد أخذ فى عمل طبقات الشعراء على ترتيب الأسنان قال : وكنت أصغر القوم سناً فصغت :

رفقا أبا إسحق بالعالم  حصرت فى أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة  فضل إبليس على آدم

فلما بلغه البيتان أمسك عنه واعتذر منه وسد عليه باب الفكرة ولم يصنع شيئاً[1] .

ويرى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن تلك كانت حيلة من ابن رشيق ليستأثر هو بهذا العمل .

ومع أن ابن رشيق قد نهض بذلك فعلا فألف كتابه « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » معوضاً بذلك الفرصة التى كان قد ضيعها على الحصرى إلا أننا نستبعد أنه احتال على صرف الحصرى عن عزمه ليستأثر هو به فيما بعد ، فلم تكن سنه لتسمح له بهذا المكر ، ولم يكن طموحه ليرقى إلى هذه المنافسة فلم يبق إلا أن نصدقه ونقدر دوافعه حين أشفق على نفسه من أن يأتى — لصغر سنه — فى آخر طبقة .

وللحصرى كتب كثيرة منها :

١ — ديوان شعر يعرف بديوان الحصرى .

ذكره ابن خلكان وأورد نتفا منه فى ترجمته له ، وقد جمع حسن حسنى بعضه ونشره فى كتابه « المنتخب المدرسى من الأدب التونسى » .

---

(١) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ص ١٨ — ٢٠ .

٢ — المصون فى سر الهوى المكنون .

وهو مختارات من الأخبار والنوادر والشعر ، ذكر حسن حسنى أنه مجلد واحد فيه حوالى أربعمائة ورقة ، ودل على نسخة خطية منه بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة ، ونسخة أخرى فى مكتبة « لايدن » بهولندا .

٣ — جمع الجواهر فى الملح والنواد :

كما سماه عبدالقادر البغدادى، أما المؤلف فسماه فى مقدمته « جواهر النوادر ولمح الملح » وقد طبع مرة باسم « ذيل زهر الآداب » .

٤ — زهر الآداب وثمر الألباب :

طبع مرة بتحقيق على البجاوى ومرة بتحقيق زكى مبارك . ولزهر الآداب مختصر اسمه « اقتطاف الزهر واجتناء الثمر » تأليف الامام أبى الحسن على ابن محمد بن برى . وفى دار الكتب المصرية نسخة من هذا المختصر فى مجلد بقلم مغربى جميل مكتوبة عن نسخة بخط المختصر رقمها ١٤٠٩٤ أدب .

وذكر حسن حسنى أن الحصرى نفسه قد اختصر كتابه « زهر الآداب » تحت عنوان « نور الطرف ونور الظرف » ويسمى أيضاً « النورين » وهو كتاب فى جزء واحد ، منه نسخة خطية فى مكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، ونسخة أخرى فى مكتبته الخاصة بتونس .

وسنقتصر فى دراستنا للحصرى على « زهر الآداب وثمر الألباب » لأنه الكتاب الذى وجدنا فيه شيئاً من النقد .

* * *

يطالعنا المؤلف فى مقدمة كتابه بمقياس نقدى يمثل مزاجه وذوقه ، وأيضاً رأيه بالنسبة للأدب شكلا ومضموناً أو قالباً ومحتوى ، وهو يسحله مسجوعاً ولو أن سجعه يبدو طبيعياً غير متكلف . . حمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

وبعد فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كفية من البلاغات فى الشعر والخبر والفصول والفقر مما حسن لفظه ومعناه واستدل بفحواه على مغزاه ، ولم يكن شارداً حوشياً ولا ساقطاً سوقياً ، بل كان جميع ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البحترى :

فى نظام من البلاغة ما شـ ـك امرؤ أنه نظام فريد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

* * *

ويوضح الحصرى منهجه فى كتابه بقوله :—

ولم أذهب فى هذا الاختيار إلى مطولات الأخبار كأحاديث صعصعة ابن صوحان [٢] وخالد بن صفوان [٣] ونظرائهما ، إذ كانت هذه أجمل لفظا وأسهل حفظا .

والكتاب بهذا المنهج ينتقل الناظر فيه من نثره إلى شعره ومن مطبوعه إلى مصنوعه ، ومن محاورته إلى مفاخرته ، ومن مناقلته إلى مساجلته ، ومن خطابه المبهت إلى جوابه المسكت ، ومن تشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة ، ومن أوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة ، ومن جده المعجب إلى هزله المطرب ، ومن جزله الرائع إلى رقيقه البارع .

وبعد هذا التقريظ يعود الحصرى فيفصل ما كان قد أجمل من خطته فى كتابه بقوله : — وقد نزعت فيما جمعت عن ترتيب البيوت ، وعن إبعاد

(١) كان خطيبا بليغا وله مع معاوية مواقف .
(٢) من فصحاء العرب المشهورين له أخبار مع عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك .

الشكل عن شكله ، وإفراد الشيء من مثله فجعلت بعضه مسلسلا ، وتركت بعضه مرسلاليحصل محرر النقد مقدر السرد،وقد أخذ بطرفى التأليف واشتمل على حاشيتى التصنيف ، وقد يعز المعنى فألحق الشكل بنظائره وأعلق الأول بآخره ، وتبقى منه بقية أفرقها فى سائره ، ليسلم من التطويل الممل والتقصير المخل وتظهر فى التجميع إفادة الاجتماع ، وفى التفريق لذاذة الامتاع فيكمل منه ما يونق القلوب والاسماع إذ كان الخروج من جد إلى هزل ومن حزن إلى سهل أنفى للكلل وأبعد من الملل ، وقد قال اسماعيل بن القاسم : —

لا يصلح النفس إذ كانت مدابرة ... إلا التنقل من حال إلى حال

ولا حق للحصرى فى الافتخار،فليس له فى تأليفه إلا حسن الاختيار كما قال لكن اختيار المرء قطعة من عقله تدل على تخلفه أو فضله .

وهو لا يشك فى استجادة ما استجاد واستحسان ما أورد إذ كان معلوما أنه ما انجذبت نفس ولا اجتمع حس ولا مال سر ، ولا جال فكر فى أفضل من معنى لطيف ظهر فى لفظ شريف فكساه من حسن الموقع قبولا لا يدفع ، وأبرزه يختل من صفاء السبك ونقاء السلك وصحة الديباجة وكثرة المائية فى أجمل حلة وأكمل حلية :—

يستنبط الروح اللطيف نسيمه ... أرجا ويؤكل بالضمير ويشرب

والحصرى من رهافة الحس وذكاء النفس بحيث أنه قد رغب عن المشهور فى جميع المذكور فعنده أن أول ما يقرع الآذان أدعى إلى الاستحسان مما مجته النفوس لطول تكراره ، ولفظته العقول لكثرة استمراره ، ولما وجد أن ذلك يتعذر ولا يتيسر ويمتنع ولا يتسع ، ويوجب ترك ما ندر إذا اشتهر وأنه بهذا أو لهذا يوجب فى التصنيف دخلا ويكسب التأليف خللا ، لم يعرض إلا عما أهانه الاستعمال وأذاله الابتذال لأن المعنى إذا استدعى القلوب إلى حفظه

حسن لفظه ، من بارع عبارة وناصع استعارة وعذوبة مورد وسهولة مقصد ، وحسن تفصيل وإصابة تمثيل وتطابق أنحاء وتجانس أجزاء وتمكن ترتيب ولطافة تهذيب مع صحة طبع وجودة إيضاح فهو المعنى المشرق فى حوانب السمع لا يخلقة عوده على المستعيـــــد ولا يذهب بجدته الترديد وانما يكون حاله ما قال الشاعر : —

وهو المشيع بالمسامع إن مضى  وهو المضاعف حسنه إن كرراً

ولربما أعطى الحصرى رأيه فى الشعراء المحدثين والأدبا المعاصرين ممن أدركه بعمره أو لحقه أهل دهره ، وانظر إلى قوله : —

وإن كنت قد استدركت على كثير ممن سبقنى إلى مثل ما جريت اليه واقتصرت فى هذا الكتاب عليه لماح أوردتها كنوافث السحر ، وفقر نظمتها كالغنى بعد الفقر من ألفاظ أهل العصر فى محلول النثر ومعقود الشعر ، ذلك أن لهم من لطائف الابتداع وتوليدات الاختراع أبكاراً لم تفترعها الأسماع يصبو إليها القلب والطرف، ويقطر منها ماء الملاحة والظرف ، وتمتزج بأجزاء النفس ، وتسترجع نافر الأنس .

وهذه المختارات للمحدثين ، والمقتطفات من كلام المعاصرين قد تخللت تضاعيفه ووشحت تأليفه وطرزت ديباحه ورصعت تاجه ونظمت عقوده ورقمت بروده فنورها يرف ، ونورها يشف فى روض من الكلم مونق ورونق من الحكم مشرق .

صفا ونفى عنه القذى فكأنه  إذا ما استشفته العيون مصعد

أو كما قال من شعره :

بديع نثر رق حتى غــدا  يجرى مــع الروح كما تجرى

من مذهب الوشى على وجهه    ديباجة ليست من الشعر
كزهرة الدنيا وقد أقبلت    ترود فى رونقها النضر
أو كالنسيم الغض عب الحيا    يختال فى أردية الفجر

ولا يطمع الحصرى فى رضانا عن كل ما اختار ، ويبرر قناعته هذه بما هو مقرر فى النقد الجلى من وجوب النظر إلى الأثر المنقود جملة والوقوف عند حسناته . وسيئاته . وتأمل قوله : — ولعل فى كثير مما تركت ما هو أجود من قليل مما أدركت إذ كان اقتصاراً من كل على بعض ومن فيض على برض (قليل) ولكنى اجتهدت فى اختيار ما وجدت وقد تدخل اللفظة فى شفاعة اللفظات ويمر البيت من خلال الأبيات ،وتعرض الحكاية فى عرض الحكايات يتم بها المعنى المراد وليست مما يستجاد ، ويبعث عليها فرط الضرورة إليها ،فمهما تره من ذلك فى هذا الاختيار فلا تعرض عنه بطرف الإنكار .

وما أقل ذلك فى زهر الآداب ، لكن الحصرى رحمه الله أراد أن يشارك من يخرج من ضيق الاغترار الى فسحة الاعتذار ، ويتواضع غاية التواضع وهو يتمثل بهذا البيت الرائع :

ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن    يأتيك وهو بشعره مفتون

* * *

وكان السبب الذى دعا الحصرى إلى تأليف كتابه وندبه إلى تصنيفه ما رآه من رغبة أبى الفضل العباس بن سليمان فى الأدب وإنفاق عمره فى الطلب وماله فى الكتب حتى أن إجتهاده فى ذلك حمله على الارتحال إلى المشرق بسببها والإغماض فى طلبها باذلا فى ذلك ماله ومستعذبا تعبه إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة .

وقد سأله أبو الفضل هذا أن يجمع له من مختارها كتابا يكتفى به عن جملتها

أن يضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وشـابهه وماثله ، يقول الحصرى :

فسارعت إلى مراده وأعنته على اجتهاده وألفت هذا الكتاب ليستغنى به عن جميع كتب الآداب إذ كان موشحاً من بدائع البديع ، ولآلى الميكالى وشهى الخوارزمى، وغرائب الصاحب ، ونفيس قابوس وشذور أبى منصور (٤) بكلام يمتزج بأجزاء النفس لطافة وبالهواء رقة وبالماء عذوبة .

وكنا نظن أن الكتاب يبدأ بعد هذه المقدمة الخصبة فهو يورد بعدها كلاما بعنوان « فضل البيان » يستهله بما قاله عمرو بن الأهتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزبرقان مدحا وقدحا ، وبإفحام الغلام الذى كان فى وفد الحجاز لعمر بن عبد العزيز .

وهو يسترسل بعد ذلك مستطرداً شارداً إلى ص ٩٧ حيث نجد كلاما بعنوان « بدء الكتاب » يقول الحصرى فى أوله : — قد تم ما استفتحت به التأليف وجعلته مقدمة التصنيف مع ما اقترن به وانضاف إليه والتف به وانعطف عليه .

وفى الحق لم يكن ذلك كله مقدمة ، فقد سبقت المقدمة ، وإنما كان بمثابة تصدير أو مدخل ، والحصرى بعده مثلما كان قبله يأخذ فى تعريف البيان والبلاغة بكلام ليس له وإنما هو من جنس ما نجده فى البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه .

---

(٤) هم على الترتيب : بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ . والأمير أبو الفضل النيسابورى الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وأبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٤هـ وأبو القاسم إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ . وقابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ وأبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .

ويمضى الكتاب نقولا فى موضوعات طابعها الأدب أو يغلب عليها الأدب ويتخللها بين الحين والحين وقفات نقدية ، يقتصر فيها الحصرى على رد بعض المعانى إلى أصولها والتنويه بصاحبها الأول إن كانت مخترعة ، وعلى ما يمكن أن نسميه بالنقد التطبيقى ، وربما عقد بعض المقارنات البسيطة كأن يقول : هذا مثل هذا أو نظير هذا أو ضد هذا، وفى أحيان قليلة جداً يصدر بعض الأحكام النقدية غير المعللة ، وانظر على سبيل المثال لا الحصر صفحات : — ١٨٠ ، ٢٤٢ ، ٢٩٩ ، ٣٢٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٤١٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤ ، ٥٦٢ ، ٦٦١ ، ٧٢٩ ، ٧٤٤ ، ٧٤٧ ، ٧٧٥ ، ٧٧٧ ، ٨٠٥ ، ٨٠٨ ، ٨٨١ ، ٩٢٣ ، ٩٢٦ ، ٩٣٨ ، ٩٦٥ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ١٠٠٠ ، ١٠١٣ ، ١٠٣٠ ١٠٦٣ ، ١٠٧٧ ، ١٠٨٧ .

ومن النقد الذى يمكن أن يرد إلى الحصرى هذه الإيماءة المختصرة جداً والتى يمكن أن تستشف منها ما سبق له الصريح به فى المقدمة من تقدير المحدثين وإنصافهم والإعجاب بهم قال : وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيئاً :

طبيب بداء فنون الكلا م لم يعى يوما ولم يهذر
فإن هو أطنب فى خطبة قضى للمطيل على النذر
وإن هو أوجز فى خطبة قضى للمقل على المكثر(٥)

فعبارة « ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيئاً » تدل صراحة على أن الحصرى مع الجودة تقدم الزمن بصاحبها أو تأخر ، وأنه ينقد نقداً موضوعياً دون اعتبار لمسألة الحداثة والقدم .

---

(٥) زهر الآداب ص ١٠٦ .

وهو يورد محادثة مع بشار تضع يدنا على مادعا إليه النقاد بعد ذلك وحثوا عليه فى عملية الإيداع الفنى من نقد الأدب وتثقيفه قبل إذاعته ، فقد سئل بشار : بم فقت أهل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب الفاظه ؟ فقال لأنى لم أقبل كل ما توره على قريحتى ويناجينى به طبعى ويبعثه فكرى ، ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفهم جيد وغريزة قوية فأحكمت سيرها وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها واحترزت من متكلفها ، ولا والله ما ملك قيادى قـــط الاعجاب بشىء مما آتى به [٦] .

والحصرى صاحب ذوق يطرب للبديع ويعجب به ،فهو يورد كثيراً من رسائل ومقامات الهمذانى فى كتابه ويقرظه بها واقرأ قوله : — جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان ، وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وكلام غض المكاسر أنيق الجواهر يكاد الهواء يسرقه لطفا والهوى يعشقه ظرفا . . الخ [٧] .

* * *

وفى الكتاب كثير من النصوص النقدية التى قيلت فى قضايا النقد المختلفة لكنه لم يسقها فى مجال البحث والدراسة وإبداء الرأى أى لم يتقويها على كلام له يقوله ، ولو أنه فعل لاعتبرناها ممثلة لرأيه ولقلنا إنه عبر بها عن فكره وأمثلة ذلك كثيرة منها :

الإطالة والأيجاز : — وقد أورد فى ذلك شعراً لأبى دواد بن جرير

---

(٦) زهر الآداب ص ١١٠ .
(٧) زهر الآدب ص ٢٦١ .

الطبرى ، ولأبى وجزة السعدى ص ١٠٥ ثم نثرا لشبيب بن شيبة وجعفر بن يحيى وثمامة بن أشرس ص ١٥٧ — ١٦٠ .

والمعانى والألفاظ . — وقد أورد فيها كلاما للجاحظ ص ١٠٨ .

ونظم القصيدة وبناء هيكلها الفنى :

وقد عول فى ذلك على نص طويل للحاتمى ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .

والنسيب فى القصيدة : — وقد اقتصر فيه على كلام لابن قتيبة ص ٦٠٠

ومناظرة نقدية : على جانب كبير من الأهمية بين الحاتمى المتعصب لأبى تمام وأحد شيوخ البصرة ممن يومأ إليه فى علم الشعر وممن سبق إلى علم الحاتمى تعصبه الشديد للبحترى ص ٦٠١ — ٦٠٩ . ثم مجلس لابن المعتز مع أبى بكر الصولى وجماعة من الشعراء فى موضوع البديع ص ٩٧٧ — ٩٧٨ .

* * *

على أنه لا يمكن تجريد الحصرى من بعض الآراء النقدية المحسوبة له والخاصة به فهو .

١ — يوازن بين الطبع والصنعة ويختار ما بينهما من الأمر الوسط . ها هو ذا يورد قصيدة لأبى محمد عبدالله بن أيوب التيمى فى عمرو بن مسعدة ثم يعلق عليها بقوله : — وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة ، والكلام الجيد الطبع مقبول فى السمع قريب المثال بعيد المنال أنيق الديباجة رفيق الزجاجة (شفاف) يدنو من فهم سامعه كدنوه من وهم صانعه .

والمصنوع مثقف الكعوب معتدل الأنبوب يطرد ماء البديع على جنباته ويجول رونق الحسن فى صفحاته كما يجول السحر فى الطرف الكحيل والأثر فى السيف الصقيل .

وحمل الصانع شعره على الاكراه فى التعمل وتنقيح المبانى دون إصلاح المعانى ، يعفى آثار صنعته ويطفىء أنوار صبغته ويخرجه إلى فساد التعسف وقبح التكلف .

وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجسه وتنفثة وساوسه من غير إعمال النظر وتدقيق الفكر يخرجه إلى حد المشتهر الرث وحيز الغث .

وأحسن ما أجرى إليه وأعول عليه التوسط بين الحالين والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة وقد قال أعرابى للحسن البصرى : — علمنى دينا وسيطا ، لا ساقطاً سقوطاً . ولا ذاهباً فروطاً قال الحسن : — أحسنت خير الأمور أوساطها ، والبحترى عن هذا القوس ينزع وإلى هذا النحو يرجع[٨] .

ونجد له كذلك :

٢ — مقياس حسن المراثى : — قال : — ومن أحسن المراثى ما خلط فيه مدح بتفجع على المرثى . فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة ونظام غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين ، ويستشهد على ذلك بنماذج من رثاء الخنساء لأخيها صخر .

* * *

ويختم الحصرى كتابه بمثل ما بدأه من بسط عذره فى عدم الاسترسال مع المقال . قال : — وهذا التصنيف لا تدرك غايته ولا تبلغ نهايته إذ المعانى غير محصورة بعدد ولا مقصورة إلى أمد .

---

(٨) زهر الآداب ص ٨٣٩ .

ويحس بأنه مقلد غير مجدد ، وبأنه مسبوقَ فى بابه بمثل كتابه فيعترف بأنه ما سلك مذهباً مخترعا لم يسبق إليه ولا قصد غرضاً مبتدعا لم يغلب عليه لـكنه مع ذلك يرجو الإنصاف بل يحث عليه بقوله : « أما بعد فإن أحق من أحتكم إليه وأقتصر عليـــه الاعتراف بفضل الإنصاف وليعلم من ينصف أن الاختيار ليس يعلم ضرورة ولا يوقف له على صورة فيكثر الإغماض ويقل الاعتراض ، ويعلم أن مالا يقع بهواه قد يختاره سواه ، وكل يعمل اقتداره ويحسن اختياره ، فلو وقـع الاجماع على ما يرضى ويسخط ويثبت ويسقط لارتفع حجاج المختلفين فى أمر الدنيا والدين .

وهو يختم الخاتمة بفصل من النقد حين يستطرد قائلا :

وقال المتنبى :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم  إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة  وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

الشجب : الموت وهى لفظة معروفة وإن كانت غير مألوفة عند أهل النقد وقد أنـكرها البحترى على عبيد الله بن طاهر فى مجاذبته إياه حيث يقول :

لو أن ذا الحكيم وازن فى الـ  لفظ واختار لم يقل شجبـه

وكان أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو طبيان قال : اجتمع نفر من أهل الـكلام على رجل من الملحدين فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليل عليها وناقضهم فيها فأعياهم كثرة ما يقول ويقولون فقال بعضهم: أما بعد فإن الموت لاشك فيه . فقال الملحد : ما رأيت خاطباً ولا واعظاً ولا شاهداً لا يرد أوجز منه ، وقلما نرى معنى إلا وهو يدافع أو يناقض ويحاربه عن سواء المحجة وقيل: من طلب عيباً وجده .

قال أبو عمرو بن سعيد القطر بلى : — ليس من بيت إلا وفيه لطاعن مطعن إلا قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه    لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول طرفة بن العبد .

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا    ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول على بن يزيد :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه    فكل قرين بالمقارن مقتـــد

وللعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبى عباس المنتوق وقد دخل عليه وبين يديه سلة زعفران : — أنشدنى بيتاً لا يصارف ولا يكذب وهى لك فأنشده ماليس لطاعن فيه مطعن :

فما حملت من ناقه فوق كورها    أبر وأوفى ذمـــة من محمد

صلى الله عليه وسلم ورحم وكرم وشرف وعظم وعلى آله الطيبين وسلم تسليما(٣) .

(١) زهر الآداب ص ١٠٩١ — ١٠٩٣ .

# ٤ ـ ابن رشيق القيروانى

هو أبو على الحسن بن رشيق المسيلى نسبة إلى المسيلة التى ولد فيها سنة ٣٩٠ هـ، القيروانى نسبة إلى مدينة القيروان التى هاجر إليها سنة ٤٠٦ هـ استزادة فى العلم وطموحاً إلى العظمة، وقد تحقق له الأمران معاً بفضل الحركة العلمية النشيطة فى القيروان وما كانت تحفل به من رجالات العلم والأدب وأندية الدراسة والبحث يتصدرها رجال من أمثال أبى أسحق الحصرى وعبدالكريم النهشلى ومحمد بن جعفر القزاز وعبد العزيز بن سهل الخشنى الضرير . . .

ويفضل أبى الحسن على بن أبى الرجال العالم الفلكى الشهير وهو من أشراف تيهرت، كان كافلا للمعزين باديس قبل ولايته ثم وزر له لما ملك،

(*) ترجمته فى القسم الرابع من الذخيرة لابن بسام ورقة ١٧٣ وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٨٥ تحقيق إحسان عباس، والواق بالوفيات للصفدى ( انظر العمدة ج ١ ص ١١ ) وإنباه الرواة على أنباه النحاه للقفطى ج ١ ص ٢٧٧، ومختصره لشمس الدين الذهبى ( انظر المكتبة الصقلية ص٦٤٤ )، ومعجم الأدباء لياقوت ج٣ ص ٩٦، ج١٩ ص٣٧ ومسالك الأبصار فى ممالك الامصار لابن فضل الله العمرى ج ١٧، وبغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢٠ ودائرة المعارف للبستانى ج ٣ ص ١١٤، وبساط العقيق فى حمارة القيروان وشاعرها ابن رشيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٦٢ . وحياة القيروان للدكتور ياغى صفحات ١١٤، ١٤١، ١٤٥ والمغرب العربى لرابح بونار ص ٣٠٤ — ٣١٨، وتاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن جيلالى ج ١ ص٣٥٨ — ٣٥٩ وتاريخ الأدب الجزائرى لمحمد طمار ص ٤٩ — ٥٠، وابن رشيق الشاعر الناقد وهو العدد ٤٥ من سلسلة اعلام العرب، وابن رشيق القيروانى وهو العدد ٣٢ من نوابغ الفكر والكتابان تاليف عبد الرؤوف مخلوف، وشخصيات أدبية من المشرق والمغرب لابى القاسم كرو وعبد الله شريط ص٣١١ — ٣٢٠، وصفحات مطويه لنقولا زيادة ص ٢٧ — ٣٥ .

والمكتبة الصقلية لأمارى صفحات ٣٧٩، ٦٤٤، ٦٤٩، ٦٥٣، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٤، ٧٠٦، وأبو الحسن الحصرى القيروانى الضرير لمحمد المرزوقى وجيلالى بن الحاج يحيى ص ٧ إلى ١٠ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز المجلد الأول ص٤٧٥ ومعجم أعلام الجزائر لعادل نويهض ص ٦٢ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لعبد الحى ابن العماد ج ٣ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ) ثم العمدة وقراضة الذهب لصاحب الترجمة .

وكانت منزلته لديه سامية ونفوذه فى بلاطه لايحد فتقرب إليه العلماء والأدباء، ولما كان ذا بصر بالأدب والنقد فقد أعجب بابن رشيق وألحقه ببلاط المعز ، وقد لزم ابن رشيق هذا البلاط إلى أن انحطم ، بالهجمة الهلالية سنة ٤٤٩ هـ على القيروان فخرج المعز إلى المهدية وصحبه ابن رشيق إليها ثم فارقه إلى صقليه حيث وافته المنية ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ٤٥٦ هـ بمازر[١] .

ولأهمية ابن رشيق نذكر هذه المقتطفات من تراجم القدماء له : قال ابن فضل الله العمرى وهو يذكر شعراء المغاربة : — ومنهم أبو على ابن رشيق المسيلى ، لورام البحر مجاراته لقصرت به أطماعه[٢] .

وقال ابن خلكان : أحد الأفاضل البلغاء ، له التصانيف المليحة منها كتاب العمدة والأنموذج وقراضة الذهب والشذوذ ...[٣]

يقول الصفدى : وقد وقعت على هذه المصنفات جميعها فوجدتها تدل على تبحره فى الأدب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره فى النقد[٤]

وقال القفطى : — الحسن بن رشيق القيرانى الفاضل الأديب الجليل القدر، من أهل مدينة من مدن أفريقية تعرف بالمحمدية ، وأبوه « رشيق » مملوك رومى لرجل من أهل المحمدية من الأزد[٥] وعلمه أبوه صنعته وهى الصياغة ، قرأ الأدب بالمحمدية وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم واشتاقت نفسه إلى التزيد من

---

(١) ذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك كان سنة ٤٦٣ هـ وقد رجحنا القول الأول لكثرة القائلين به . وانظر « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » تأليف آدم متز وترجمة « محمد أبو ريدة » المجلد الأول ص ٤٨٥ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٧ .

(٢) مسالك الأبصار جـ ١١ وانظر المكتبة الصقلية ص ٦٤٩ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٨٥ وانظر المكتبة الصقلية ص ٦٥٣ .

(٤) انظر العمدة جـ ١ ص ١٧ .

(٥) الأزد قبيلة من قحطان جاءت إلى المغرب مع الفتوح الإسلامية .

ذلك وملاقاة أهل الأدب فرحل إلى القيروان وعمره ست عشرة سنة[٦] فابن رشيق رومى بأصله، عربى بالولاء واللسان والمنشأ، ولما عيره ابن شرف بأن أباه رومى رد ابن رشيق بقوله :

أما أبى فرشيق لست أنكره  قل لى أبوك وصوره من الخشب

وهو يعرض فى بيته هذا بابن شرف فقد قيل : — إن « شرف » اسم أمه، أما أبوه فغير معروف ولعله من هنا جاء قول ابن رشيق « ما أبغى به أبا ولا أرضى بمذهبه مذهباً رضيت به رومياً لا دعياً ولا بدعياً[٧] وقال ابن بسام :— فصل فى ذكر الأدب الكامل أبى على بن رشيق المسيلى، ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة » ، كان ربوة لا يبلغه الماء وغاية لا تنالها الوجناء، إن نقد سعى الطبع الصقيل، أو كتب سجد القلم الضئيل، شعاع القمر وحديث السمر، ومعجزة الخبر والخبر ولما طلع نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس وخرج إلى المهدية بسماء كاسفة الأقمار وذماء أقصر من طى الحمار ، وكان أبو على ممن انحشر فى زمرته المحروبة وتحيز إلى فئته المنكوبة أقام معه وغشى المهدية فيما بعد أسطول الروم فأصبح البحر ثنايا تطلع المنايا وآكاما تحمل موتاً زؤاما فدخل على المعز حين وضح الفجر فوجده فى مصلاه والرقاع عليه ترد والشموع بين يديه تتقد فقام ينشده قصيدته التى أولها : —

تثبت لا يخامرك اضطراب  فقد خضعت لعزتك الرقاب

فقال له : متى عهدتنى لاأتثبت ؟! إذا لم تجئنا إلا بمثل هذا فمالك لاتسكت عنا ؟ ! ثم أمر بالرقعة التى كانت فيها القصيدة فمزقت ولم يقنعه هذا حتى أدناها

(٦) إنباه الرواه على إنباه النحاه جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٧) ابن رشيق الشاعر الناقد ص ٣٨ .

إلى النار فأحرقت . قالوا : فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق وكانت وجهته صقلية[٨] .

ومن شعره :—

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنى فقلت لها قول المشوق المتيم
هواك أتانى وهو ضيف أعزه فأطعمتـــه لحمى وأسقيته دمى

إن كنت تنكرما منك ابتليت به وأن برء سقامى عز مطلبـــه
أشر يعود من الكبريت نحوفمى وانظر إلى زفراتى كيف تلهبه

والكتب الكثيرة التى ألفها ابن رشيق وذكر الصفدى أنه قرأها جميعها قد ضاعت للأسف ولم يبق منها سوى كتابين اثنين هما العمدة ، وقراضة الذهب ، ونحمد الله على أنهما فى موضوعنا ، ونحن الآن معهما لنرى ما فيهما من نقد أدبى .

## أولا : قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب

هذا الكتاب بمثابة تحية من ابن لأبيه وهدية من ولد لوالده كان أبوه صائغاً فسمى ابنه كتابه « قراضة الذهب » ولنلتفت إلى أنه يقرظ نفسه بهذه التسمية ، لكأنه ينبه قارئه إلى أنه سيقرأ كلاماً ثميناً مثل نثار الذهب .

والكتاب عبارة عن رسالة من ابن رشيق إلى صديقه أبى الحسن علي ابن القاسم اللواتى ، فيظهر أن اللواتى كان معجباً بشعر ابن رشيق يترنم به فى وحدته وبين أصحابه ، وذات مرة سمعه أحد جلسائه ينشد بيتين منه فادعى

(٨) القسم الرابع من الذخيرة مصورة بمكتبة جامعة للقاهرة ورقة ١٧٣ وانظر ابن رشيق الشاعر الناقد ص ٤٧ والمكتبة الصقلية ص ٦٤٩ .

هذا الجليس أنهما مأخوذان من شعر لعبد الكريم النهشلي ، وبلغ ابن رشيق ذلك فهاج هائجه وماج مائجه ونهض فكتب هذه الرسالة أو هذا الكتيب ، وهو بعد أن يحيي صديقه يقول له : بلغني — أعزك الله — أنك استحسنت معنى البيتين من مرثية الأمير سيدنا أبي المنصور وهما الأخيران من هذه الأربعة الأبيات ، ذكرت ما قبلهما لتعلقه بهما :

ألم ترهم كيف استقلوا ضحى      إلى كنف من رحمة الله واسع
أمام خميس ماج فى البر بحره      يسير كمتن اللجة المتدافع
إذا ضربت فيه الطبول تتابعت      به عذب يحكى ارتعاد الأصابع
تجاوب نوح بات يندب شجوه      وأيدى ثكالى فوجئت بالفواجع

وأن بعض من لا خلاق له فى الأدب ، ولا معرفة له بحقائق الكلام عارضك فيهما بالطعن ونازعك معناهما بالجهل وادعى عليهما ضرباً من السرق ونوعاً من الأخذ ، ولم تؤت — أيدك الله — من قصر لسان ولا ضعف حجة وبيان لكنما أوتيت من سوء فهم صاحبك وقلة إنصاف مشاغبك لأن المعنى المأخوذ بزعمه إنما هو قول عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى يصف ما يحدث عند اندفاع الجدول فى الماء من تلك الرغوة والنفاخات :

قد صاغ فيه الغمام أدمعه      دراً ورواه جدول غمر
تجيش فيه كأنما رعشت      إليك منه أنامل عشر

فإن كان المعترض أراد ذكر هذا الارتعاد والارتعاش وذكر الأصابع والأنامل ، فصدق . إلا أن هذا لا يعد سرقة لعلل شتى منها أن القصد غير واحد ، ولا أحب الاعتراض على عبد الكريم وليس له ها هنا ذنب أؤاخذه به وإنما الجناية لغيره ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ولو كان هذا الناقد بصيراً

لنظر نظار تحقيق وتأمل تأمل رفيق ، فعرف بعد ما بين المتصدين على قرب ما بين اللفظين ولم يكن ذلك عنده محظوراً لأن عبد الله بن المعتز يقول فى صفة جدول :

كفيل لأشجارها بالحيـــاة إذا ما جرى خلقه يرتعش

وليست لفظة الارتعاش من خاص البديع فيعد ذكرها سرقة كما عد علينا(٩) .

ويظهر أن ما ذهبنا إليه من ازورار ابن رشيق عن عبد الكريم وخوفه من منافسته له كان فى محله ، فهاهو ذا يبدو معقداً منه ومنزعجاً بسبب اتهامه بالاقتداء به أو بالأخذ عنه واقرأ قوله : وهلا نظر إلى قول إمام الشـــعراء امرىء القيس:

« كلمع اليدين فى حبى مكلل » فعلم أن الأخذ منه أقرب والوقوع تحته أشرف ، ولكن هاهنا بلغ علمه وأدته مقدرته ، ولوعد مثل هذا سرقة لم يسلم شىء من الكلام ، وقد جاء من هذا النوع كثير باللفظ وغير اللفظ منه قول عبد الله بن العباس الربيعى يصف برقا — وقد روى لغيره :

كأن تقلبـــــه فى السماء يدا كاتب أو يدا حاسب

يعنى الأصابع لا محالة . وقال ابن المعتز يصف الفرس بمثل ذلك :

وله أربع تريك إذا هملج منه أنامل الحجاب

وقال أبو نخيلة فيما أحسب :

« والشمس كالمرآة فى كف الأشل » يعنى ارتعاشها واضطرابها .

وقال بعض المحدثين أظنه أبا الشيص:

---

(٩) قراضة الذهب ص ١٠ — ١١ .

« فواقع تحكى ارتعاش البنان »

وهذا هو نفس عبد الكريم لو حاسبناه بما قال المتعصب له ، وإن كان قصد المتكلم الغض منى لا التنبيه على فضل عبد الكريم وقال أبو نواس :

أو كقرن الشمس تنشق منه     شعب مثل انفراج البنان

وقال الحسن بن أحمد بن المغلس يذكر الشموع :

كأن الشموع وقد أطلعت     من النار فى كل رمح سنانا

أنامل أعدائك الخائفين     تضرع تطلب منك الأمانا

أخذ صيغته من قول ابن المعتز يصف لسان حية وأحسن :

ينسل منها لسان تستغيث به     كما تعوذ بالسبابة الفرق

وللسرى بن أحمد الكندى المعروف بالرفاء الموصلى يصف سحابة :

والبرق يومض بينها     إيماض حالية الأنامل

وصنعت أنا بين يدى مولانا أدام الله عزه فى صفة أترجة على هيئة الكف أمرنى بوصفها فى مجلس شرب :

أترجة سبطة الأطراف ناعمة     تزهو بلون بديع غير منحوس

كأنما بسطت كفاً لخالقها     تدعو بطول بقاء لابن باديس

ولما كثر هذه الكثرة وتصرف الناس فيه هذا التصرف لم يسم آخذه سارقاً لأن المعنى يكون قليلا فيحصر ويدعى صاحبه سابقاً مبتدعاً ، فإذا شاع وتداولته الألسن بعضها من بعض تساوى فيه الشعراء إلا أن يزيد فيه شاعر زيادة بارعة مستحسنة يستوجبه بها ويستحقه على مبتدعه ومخترعه .

وقد ألف العلماء والنقاد فى سرقات الشعراء كتباً عدة وصنفوا تصانيف

كثيرة اختلفت فيها آراؤهم وتباعدت طرائقهم ، غير أن أهل التحصيل مجمعون من ذلك على أن السرقة إنما تقع فى البديع النادر والخارج من العادة وذلك فى العبارات التى هى الألفاظ لا ما كان الناس فيه شرعا واحداً من مستعمل اللفظ الجارى على عادتهم وألسنتهم ، وكذلك ما كان من المعانى الظاهرة المعتادة فإنها معرضة للأفهام متسلطة على فكر الأنام[١٠] .

والمعانى التى يقال إنها اختراعات ويسمى أخذها سرقة لا محالة إنما هى المقاصد وترتيبها والطرق إليها[١١] .

* * *

إلى هنا يكون ابن رشيق قد أعطى رأيه فى سرقات الألفاظ والمعانى وهى — عنده — لا تكون إلا فيما ندر استعماله وعرف صاحبه أما ما اشتهر فليس أحد أولى به من أحد لكن للمجيد فضله وعلى المقصر درك تقصيره ، وهو يلتفت إلى أن المطابقة والتجنيس أفضح سرقة من غيرهما لأن التشبيه وما شاكل يتسع فيه القول ، أما المطابقة والتجنيس فيضيق فيهما تناول اللفظ ، فلو تناول شاعر قول امرىء القيس :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه    ليلبسنى من دائه ما تلبسا

وكذلك قوله :

( مكر مفر مقبل مدبر معا )

لكان سارقا بل مكابرا مصالتا[١٢] ، ويحكم ابن رشيق طبعه وذوقه

(١٠) قراضة الذهب ص ١٢ — ١٥ .

(١١) قراضة الذهب ص ٢٩ — ٣٠ .

(١٢) قراضة الذهب ص ١٨ .

وعقله وهو يمجد امرأ القيس لمعانيه المخترعة وصوره المبتكرة ، ويقع التمثيل لذلك من شعره فى عشر صفحات من تسع وأربعين صفحة ، وهو لا يفاجئنا بذلك بل يمهد له بقوله : وأنا أقتصر من جميع الشعراء فى أكثر ما أورده على امرىء القيس لأنه المقدم لامحالة وإن وقع فى ذلك بعض الخلاف ، فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة فى نفسه ما لا يجد لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة ويوجبان له على ماسواه مزية، ويشهد الطبع وذوق الفطرة لذلك شهادة بينة واضحة لاتدركها شبهة إذا قصد الإنسان العدل وترك التعصب . وهو ينهى هذا النفس الطويل من التدليل على أسبقية امرىء القيس بقوله : وما زلنا نتناشد قول ابن هانى :

إذا ذكرته النفس جاشت لذكره    كما عثر الساقى بكأس من الخمر

فنستملحه ونظن أنه ابتكره إلى أن فكرت فى قول امرىء القيس :

إذا نال منها نظرة ريع قلبه    كما روعت كأس الصبوح المخمرا

فعلمت أنه هو الذى فتح له هذا المعنى ، وإن لم يكن المعنيان سواء ، والشاعر يورد لفظاً لمعنى فيفتح به لصاحبه معنى سواه لولاه لم ينفتح(١٣) .

وإذا كان الحذق فى الأخذ يتحقق بأن يزيد الثانى فيما أورده الأول زيادة تحسنه أو تنقص من لفظه وتستوفى معناه فإن ثمة كثيراً من المعانى التى أخذت حقها من اللفظ فلم يبق فيها فضلة تلتمس(١٤) .

* * *

ومن أنواع الأخذ قول السلامى يصف الزنبور من أبيات :

---

(١٣) قراضة الذهب ص ٢٤ .

(١٤) القراضة ص ٣٠ .

إذا حك أعلى رأسه فكأنما ... يسالفتيه من يديه جوامع

فإنه تعلق فى اللفظ بصريع إذ يقول :

فغطت بأيديها ثمار نحورها ... كأيدى أسارى أثقلتها الجوامع

وأنشد ابن قتيبة :

وقد كتب الشيخان لى فى صحيفتى ... شهادة عدل أدحضت كل باطل

الشيخان يعنى والديه ، والصحيفة عندهم كناية عن الوجه ، يفخر بأنه ابن والديه ولاشك بدليل مشابهته لهما فى الملامح .

وقد نقل ابن الرومى معنى هذا المدح إلى الذم فقال وأبدع فى التمثيل والتشبيه :

لك وجه كآخر الصك فيه ... لمحات شاهدات بكثرة من رجال

فخطوط الشهود مختلفات ... شاهدات ان لست بابن حلال

فاستحقه بعكسه إياه وزيادته فيه ونقله عن بابه واستظهاره بحسن التشبيه فى اختلاف الخطوط وهذا من سحر الكلام[١٥] .

ومن الشعراء من ينقل اللفظ بعينه إلى معنى موصوف آخر .

قال امرؤ القيس :

يضىء الفراش وجهها لضجيعها ... كمصباح زيت فى قناديل ذبال

فتناوله الناس منه إلى أن بلغ عبد الله بن المعتز فقال وصرفه إلى الثغر :

ألمة فى الدجى وبرق ثنايا ... يرينى مواضع اللثم

فما قصر فى حسن الاتباع وتلطيف الأخذ والتصرف فى القول .

وأما نقل بعض لفظ البيت بمعناه المشتهر المعتاد كقول مرقش الأكبر :

---

(١٥) القراضة ص ٣٥ — ٣٧ .

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

وقول الآخر :

كأن دنانيرا على قسماتهم .

وقول أبى العباس الأعمى :

ووجوه مثل الدنانير ملس .

فأكثر من أن يحصى أو يعد سرقة إلا أن لقول ابن المعتز :

عتاق دنانير الوجوه صباح .

مزية على ما تقدم لجعله الوجوه فى ذاتها دنانير من جهة الاستعارة(١٦) ، وكذلك قول الصنوبرى .

نقشت يد الجدرى وجنته هل جاء دينار بلا نقش ؟

فهذه الزيادة لها مزية خرجت بها عن الأبيات السابقة لا محالة .

ودون هذا النوع من الكثرة والوجود نقل جميع معنى البيت وبعض ألفاظه كقول صريع :

يكسوا السيوف دماء الناكثين به ويجعل الهام تيجان القنا الذبل

أخذه ابن المعتز فقال :

ويجعل هامات أعدائه قلانس يلبسهن الرماحا

فجعل القلانس مكان التيجان ، ويلبس مكان يكسو ، وقصر عن صريع لأنه أسقط المعنى بتركه ذكر السيوف والدماء، والذى ابتكر المعنى جرير بقوله .

كأن رؤوس القوم فوق رماحنا غداة الوغى تيجان كسرى وقيصرا

---

(١٦) ليس هذا استعارة وإنما هو تشبيه بليغ من إضافة المشبه به إلى المشبه .

وقال ابن المعتز :

يا من سبي قلبي بأول نظرة      في نظرة أخرى إلى شفاء

فقال أبو الطيب :

فني تغرم الأولى من اللحظ مهجتى      بثانية والمتلف الشيء غارمه

فجاء بمعنى بيت ابن المعتز ونقل من قوله : — « بأول نظرة » و « فى نظرة أخرى » فقال « الأولى من اللحظ بثانية » غير أنه زاد ذكر الغرامة وذيل البيت بما ذبله وعقب بلزوم ذلك(١٧) ..

وهكذا نرى ابن رشيق مشمراً عن ساعد الجد والاجتهاد فى دفع اتهامه بالسرقة حتى إذا أبلى فى ذلك البلاء الحسن الذى رأينا بعضه لجأ إلى آخر سهم فى جعبته ولعب بآخر ورقة فى يده،وننظر فى ذلك فنتبين قوله بالمواردة :

« إما نسيانا يمر الشعر بمسمعى الشاعر لغيره فيدور فى رأسه أنه له أويأتى عليه الزمان الطويل فينسى أنه سمعه قديماً ، وإذا كان للمعاصر فهو أسهل على أخذه متى تساويا فى الرقة والإجادة ، وربما كان ذلك اتفاق قرائح وتحكيكا من غير أن يكون أحدهما أخذ من الآخر كقول صريع فى داود بن يزيد ابن المهلب .

تجود بالنفس إن ضن الجواد بها      والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقول أبى الشيص فى يعقوب بن داود من رواية الصولى فى كتاب « الوزراء » وخاطب المهدى .

أمسى يقيك بنفس قد حباك بها      والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأقل من الاتفاق فىقسيم الاتفاق فىالبيت بأسره ، وسبيلهسبيل القسيم فيما

---

(١٧) قراضة الذهب ص ١٩ ومن ص ٣٦ إلى ص ٣٩ .

تقدم من الاعتذار عنه وإن كان أبعد ، غير أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن بيتى امرىء القيس وطرفة وما جرى مجراهما فقال .

« عقول رجال توافت على ألسنتها »

وكان هذا كثيراً ما يعرض للفرزدق إما نسيانا وإما تغلباً لأنه كان راوية للشعر مكثراً منه قاهراً لشعراء عصره مهيباً فيهم ، ولم يكن أحد منهم يرميه بالعجز والتقصير فينسب ما يأخذه إلى السرق لأنه ما تعاطى شيئاً يفوته عمل مثله ، إلا أن جريراً كان يرميه بالسرقة والاجتلاب ، على أن الاجتلاب يكون لغير معنى السرق وهو أن يرى الشاعر بيتا يصلح لموضع من شعره فيجتلبه له وقد فعل ذلك جرير فى بيتى المعلوط السعدى .

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وهما من أفضل ما فى القصيدة .

ويضع ابن رشيق النقط فوق الحروف وهو يلتمس العذر لنفسه ولغيره فيما يكون من أمر هذا التقارب بينه وبين من سبقه أو عاصره بقوله . — والذى أعتقده وأقول به أنه لم يخف على حاذق بالصنعة أن الصانع إذا صنع شعراً ما وقافية ما ، وكان من الشعراء شعر فى هذا الوزن وذلك الروى،وأراد المتأخر معنى فأخذ فى نظمه أن الوزن يحصره والقافية تضطره وسياق الألفاظ يحدوه حتى يورد نفس كلام الأول ومعناه حتى كأنه سمعه وقصد سرقته وإن لم يكن سمعه قط ، وعلى هذا يحمل ما كان من شعر امرىء القيس وطرفة لو كان فى عصره ، وإن كان لم يسمع قصيدته كما زعم ، وقد استحلف على ذلك فحلف،وأما ما يحكى عن الفرزدق وجرير فى الجيمية وإتمام الفرزدق كل بيت أنشده صدره بعجز هو وما قاله جرير سواء .

فإنما ذلك لمعرفته بطريقه ومنحاه فى الشعر ، وهذه هى العلة فيما جرى بينهما من الموافقات التى وردت بها الأخبار وهى موافقات كثيرة وربما تناول الشاعران معنى شاعر متقدم ليولدا منه معنى محدثا فاتفقا كقول حمزة بن بيص يمدح الفيض .

ولائمة لامتك يا فيض فى الندى ومن ذا الذى يثنى الغمام عن القطر؟

تناوله أبو الطيب المتنبي والسرى الموصلى فى وقت واحد وممدوحهما واحد ، فقال ابو الطيب فى سيف الدولة :

وما ثناك كلام الناس عن كرم ومن يرد طريق العارض الهطل

وقال السرى الموصلى فيه أيضاً .

هو الغمام فهل تثنى صواعقه وهل يسد على شؤبوبه السبل ؟

وربما وقع هذا من غير ابتداء، فيظن صاحبه أنه اخترعه كما ذكر الثعالبى فى اليتيمة، فإنه قال :— كان قد اتفق لى فى أيام الصبا معنى بديع لم أقدر أنى سبقت اليه ولا شوركت فيه وهو قولى فى آخر هذه الأبيات :

قلبي وجدا مشتعل على الهموم مشتمل

وقد كستنى فى الهوى ملابس الصب الغزل

إنسانة فتانة بدر الدجى منها خجل

إذا زنت عينى بها فبالدموع تغتسل

فأنشدت لابن هندو .

يقولون لى ما بال عينك إذ رأت محاسن هذا الظبي أدمعها هطل

فقلت زنت عينى بطلعة وجهه فكان لها من صوب أدمعها غسل

فصح عندى توارد الخواطر وتشاركها فى المعانى .

قال الشيخ أبو على . ليس العجب مواردته ابن هندو ،وإنما العجب قوله « ومعنى بديع لم أقدر أنى سبقت إليه ولا شوركت فيه » وأبو الطيب يقول فى صفة الحمى .

إذا ما فارقتنى غسلتنى كأنا عاكفان على حرام

وهل هذا إلا ذاك بعينه وأبو الطيب أحسن لفظاً لقوله قبل هذا البيت :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام

فالزيارة والحياء يقتضيان ما أشار اليه من قوله . كأنا عاكفان على حرام لأنهما ليسا من شأن الزوجة ولكن من شأن المعشوقة ولم يصرح بلفظ الزنا كما صرح الثعالبى وابن هندو ، ومع ذلك فمعناه أصح بنية وأكثر تمكنا من جهة أخرى ، وذلك أنه جعل نفسه وزائرته ذكراً وانثى ، والزنا قد يقع بينهما ، وذكرا زنا بين مؤنثين فقال الثعالبى .

إذا زنت عينى بها

وقال ابن هندو : — زنت عينى بطلعة وجهه .

ولو قالا : زنا ناظرى أو لحظى لكان أصح لأن الأنثى وهى العين لا تزنى بالطلعة ولا بالإنسانة ، وقد قالت أعرابية لرجل رأته يلحظ ابنتها : —

وهل لك منها غير أنك ناكح بعينيك عينيها فهل ذاك نافع ؟

فأضافت النكاح إليه فصح المعنى[١٨] .

* * *

ومشروع للشاعر أن ينظم نثر غيره لا تثريب عليه فى ذلك ولا حرج ،

---

(١٨) القراضة ص ٤٢ — ٤٥ .

يستطرد ابن رشيق إلى ذلك ويضرب له بعض الأمثلة كقول امرأة من أهل البصرة لبشار : أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية ؟ فقال بشار : أما علمت أن بيض البزاة أثمن من سود الغربان ؟ قالت: أما ذلك فحسن فى السمع ، فمن لك بأن تحسن شيبتك فى العين كما حسن قولك فى السمع ؟؟ . . وكان بشار يقول : — ما أفحمنى قط غير هذه المرأة . أخذ البحترى قول بشار فقال .

فبياض البازى أحسن لونا      إن تأملت من سواد الغراب[١٩]

. . .

ويذكر ابن رشيق بعد ذلك نبذا من اتفاق الشاعرين المتعاصرين على بعد ما بينهما إذا اتفق موصوفاهما أو تقاربا وهو بذلك يجمع بين مشرق العالم العربى ومغربه فى موازنات أدبية شيقة كقول أبى سعيد الرستمى فى دار بناها الصاحب بن عباد .

متى ترها خلت السماء سرادقا      عليها وأعلام النجوم تماثيلا

وقول أبى القاسم بن هانىء فى جعفر بن على أمير المسيلة :

فكأنما ضرب السماء سرادقا      بالزاب أو رفع النجوم قبابا

فهذا اتفاق لامحالة لأنهما متعاصران وابن هانىء أقدمهما على كل حال .

وأما أبو الحسن التهامى رحمه الله فكثيراً ما أوارده حتى أتهم نفسى فيما أعلم ويعلم الناس أنى سبقته إليه علم ضرورة بحضرة التاريخ إلا أن للمشرق فضيلة ومزية[٢٠] .

. . .

(١٩) القراضة ص ٤٧ .

(٢٠) القراضة ص ٥٠ .

ومن ضروب السرقات التلفيق وهو أن يأخذ الشاعر المعانى المتقاربة ويستخرج منها معنى مؤكداً يكون له كالاختراع وينظر به جميعها فيقوم وحده مقام جماعة من الشعراء وهو مما يدل على حذقه وفطنته ، ولم أر ذلك أكثر منه فى شعر أبى الطيب وأبى العلاء المعرى فإنهما بلغا فيه كل غاية، وكان أبو الطيب أجمع الناس لكثير من المعانى فى قليل من اللفظ وبذلك تقدم عند الفصلاء(٢١) . أما أبو العلاء فيذكر ابن رشيق شيئاً من شعره رادا إياه إلى مصادره من شعر غيره ليعلم سامعه أن الكلام من الكلام يؤخذ وإن خفيت طرقه وبعدت مناسبه(٢٢) .

وقد سطر المؤلفون أن بشارا لم يسرق قط شعراً جاهلياً ولا إسلامياً ، وهذا إسحق الموصلى وهو من هو فى ميزا لشعر وصنعته لا يراه شيئاً ويزعم أنه مختلف الشعر ويذكر عن أبى عبيدة أنه أنشد شبل بن عروة الضبعى قول بشار

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً     صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحداً أوصل أخاك فإنه     مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى     ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

فذكر أنها للمتلمس ، وكيف خفى عن بشار أن ادعاها ؟ ؟ هذا مما لا يمكن لشهرة المتلمس وحرص الرواة على مثل شعره .

وزعم قوم آخرون أن قوله المشهور : —

إذا ما عضبنا عضبة مضرية     هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

لعجيف العقيلى : —

---

(٢١) القرضة ص ٥٢ .
(٢٢) القراضة ص ٥٣ إلى ٥٧ .

وقال الرشيد لإسحق الموصلى فى تفضيل أبى العتاهية لقوله : —

فتنفست ثم قلت نعـــم حباً جرى فى العروق عرقاً فعرقا

ويحك ! أتعرف مثل هذا لأحد غيره؟ أتعرف من تنفس غيره قبله؟ وهذه القطعة بعينها منقولة من شعر قيس بن ذريح إذ يقول : —

بت واللهـــم يالبينى ضجيعى وجرت مـذ نأيت عنى دموعى

وتنفست إذ ذكرتك حـــتى زالت اليوم عن فؤادى ضلوعى

فأما قول بكر بن النطاح : —

ما تهب الشمـال إلا تنفســـ ـت وقال الفؤاد للعـين جودى

فيجوز أن يكون قاله بعد أبى العتاهية لأنهما متعاصران[٢٣].

وزعم قوم أن عينية منصور النمرى التى هى مذهبته سرقها من رجل نمرى يقال له منصور بن بجرة ، ذكر ذلك الأصفهانى ، وأن أبا نواس سلخ معانى الوليد بن يزيد الخمرية وأدخلها فى شعره وكررها .

وزعم إسحق أنه كان يسلخ معانى الهندى وطبقته ، فأين تقع نقطتى من دائرة هؤلاء الجلة ، وقطرتى من بحارهم ؟ ! ! ولولا أنها مجارات أدب وتحديد مودة لاقتصرت من جميع ما أوردت على معرفتك وسعة روايتك غير رافع رأساً ممن أنطقة الحسد وأسكته الكمد .

وقد قلت انبساطاً واستئناساً كما توجب الثقة ويقتضى خلوص النية واسترسال الطباع بين الإخوان : —

دونكها ياسيد الأحـــرار وواحـــد العصر بل الأعصـــار

(٢٣) قال نصيب : — وددت ولم أخلق من الطير أننى أعار جناحى طائر فأطير
ولما سمعت التى قيل فيها هذا البيت تنفست تنفسا شديداً فصاح ابن أبى عتيق : أواه . والله أجبته بأحسن من شعره والله لوسمعك لنعق وطار ، فجعله غرابا لسواده . وانظر العمدة جـ ٢ ص ٤٢ .

رسالة بينة الأعذار    باحت بما تخفى من الأسرار
أدل من فجر على نهار    وفضل ذاك السر فى الإظهار
لطيفة المسلك فى اختصار    خفيفة الروح على الأفكار
كأنها من جودة العيار    قراضة من ذهب الدينار
إليك جاءت لا إلى المارى    هل يعرف التبرسوى التجار

هكذا تنتهى هذه الملحمة النقدية لابن رشيق ، وهو فيها محام بليغ المرافعة قوى الحجة ناهض الدليل طويل النفس، لم يترك مطعناً إلا فنده ولا احتمالا إلا سده ، وهى فى جملتها وتفضيلها نقد تطبيقى كأحسن ما يكون النقد التطبيقى وسياحة فى دنيا الأفكار والصور .

هى مقالة نقدية التزم فيها صاحبها بوحدة الموضوع وساعده على ذلك أنه كان يترافع فى قضية محدودة ويدافع عن موقف معين ، أما القضية فهى قضية السرقات الشعرية ، وأما الموقف فهو موقفه هو مما ادعى عليه من سرقة ، ولقد حاول جهد طاقته أن يكون موضوعياً فوسع دائرة بحثه ، وزحم الميدان بشعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين مشارقة ومغاربة .

والفرق بين قراضة الذهب وبين الأبواب التى تعالج موضوعه فى كتاب العمدة وهى باب المخترع والبديع جـ ١ ص ٢٦٢ — ٢٦٥ وباب الاشتراك جـ ٢ ص ٩٦ — ١٠٠ وباب السرقات وما شاكلها جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٩٤ : —

١ — أن التمثيل فى قراضة الذهب أكثر من التعريف ، وفى العمدة مساو له .

٢ — ابن رشيق فى القراضة ذاتى أولا وموضوعى ثانياً أما فى العمدة فموضوعى فقط ، وبعبارة أخرى : —

العلم فى القراضة مبطن بالعاطفة وهو فى العمدة غير مبطن .

٣ — قراضة الذهب رسالة وأسلوب الرسالة ولو كان موضوعها العلم والأدب يختلف عن أسلوب الكتب .

٤ — وإذا كان ابن رشيق قد ألف العمدة فى المدة من سنة ٤١٢ إلى سنة ٤٢٥ هـ كما قررنا ونحن نتكلم عن النهشلى ، فإنه قد كتب قراضة الذهب بعد ذلك بدليل إحالته على العمدة فى قوله : — « والحذق فى الأخذ على ضروب ، أنا ذاكر منها ما أمكن وتيسر ، إذ ليست هذه الرسالة موضع استقصاء لا سيما وقد فرغت فى كتاب العمدة مما يراد أو أكثر[٢٤] وبدليل قوله فيها : —

وكنت أنا قد صنعت منذ سنين عدة وقد خرجنا للاستسقاء فرجعنا وقد انتشر الجراد حتى كاد أن يحول بيننا وبين الشمس وشق ذلك على الذى خرج للاستسقاء وكان شيخاً صالحاً مات سنة سبع وعشرين بعد القصة بمدة طويلة : —

قد خرجنا بنية الغيث نستسـ ـقى وقد أوحشت وجوه البلاد

بينما نرتجى سحابة مزن غشيتنا سحابة من جراد

ليس من قلة ولا بخل رب إنما ذاك من ذنوب العباد[٢٥]

ومع أن الإنسان يتقدم نحو الموضوعية أكثر كلما تقدم به العمر أكثر إلا أن ابن رشيق فى قراضة الذهب قد خالف هذه القاعدة لأنه يتكلم فى موضوع يخصه ويتعلق بكرامته الأدبية ، والرسالة بعد إخوانية فهى بادىء ذى بدء موجهة إلى صديقه اللوانى أبى الحسن .

---

(٢٤) القراضة ص ٢٩ .

(٢٥) القراضة ص ٥٠ .

## ثانياً : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده

كان ابن رشيق معجباً بأبى الحسن على بن أبى الرجال ، ومشدوداً إليه إلى حد الافتتان به ، كان يحبه ويراه المثل الأعلى للرجل العالم الأديب ذى الجاه ، ويظهر أن هذا الشعور من جانب ابن رشيق قد وجد منفذاً له إلى عقل أبى الحسن وقلبه فتجاوب معه وصار صديقاً له .

وحين ألف ابن رشيق كتاب العمدة كان من الطبيعى وهذه العلاقة الوطيدة تربطه بصاحبه — أن يرفعه إليه وأن يهديه له ، وقد فعل ذلك فى أول الكتاب وفى آخره ، ثلاثة أسطر فقط تسبق رفع الكتاب إليه وإهدائه له ثم « أما بعد فإن أحق من جنى ثمر الألباب واقتطف زهر الآداب من عرف للعلم حقه وفضله وخص بالقرب ذويه وأهله ، فاستوجب من جميل الذكر وجزيل الذخر ما هو أزين فى الدنيا وأبقى فى الآخرة كالسيد الأمجد والفذ الأوحد حسنة الدنيا وعلم العليا ، بانى المكارم وآبى المظالم رجل الخطب وفارس الكتب أبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم الذى نال الرياسة وحاز السياسة وانفرد بالبسط والقبض واتحد فى الإبرام والنقض عن سعى مشكور وفضل مشهور وعلم بالموارد والمصادر ونظر فى الأوائل والأواخر ، وتتبع لآثار من سلف من أهل القدر والشرف إلى أن صار نسيج وحده وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ولا منازع فيه ، فالحمد لله الذى اختصه بالجلالة واستخلصه لشرف الحالة وقدمه على المتقدمين فى الرتب وأقام به سوق العلم والأدب ، وأنا وإن لم أعلق من العلم إلا بحاشية ولا أخذت منه إلا فى ناحية ، فقد وجدت أن الشعر أكبر علوم العرب وأوفر حظوظ الأدب ، ووجدت الناس مختلفين فيه متخلفين عن كثير منه يقدمون ويؤخرون ويقللون ويكثرون قد بوبوه أبواباً مبهمة ولقبوه ألقاباً متهمة وكل واحد منهم قد ضرب فى

جهة وانتحل مذهباً هو فيه أمام نفسه وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم فى كتابه ليكون « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » إن شاء الله تعالى ، وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ونتيجة خاطرى ، ولم أسم كتابى هذا باسم السيد زاده الله تعالى سموا لأكون كجالب التمر إلى هجر ومهدى الوشى إلى عدن ، ولكن تزيينا باسمه الشريف وذكره الطيب واستسلاماً بين يدى علمه الطائل وأدبه الكامل .

ولما عدلت بى الحال عن حضور مجلسه الباهر ومنعنى الإجلال من مناسمة خلقه الزاهر ، نفضت جراب صدرى وانتقدت كنز معرفتى ، وأيقنت أن صورة الإنسان فضلة عن القلب واللسان ، وأن استحقاقه للفضل إنما هو من جهة النطق والعقل فمثلت له نفسى وأهديتها إليه ومثلت بها حقيقة بين يديه .

* * *

ويبدو أن الثقة المطلقة من ابن رشيق فى أبى الحسن قد جعلته يعرض عليه ما يؤلفه من كتابه أولا بأول حتى يستأنس برأيه ويعمل بمشورته ، تأمل قوله :

والسيد — أدام الله عزه — أعلم بمعذرتى وأقوم بحجتى من أن أعرض خزفى على جوهره أو أقيس وشلى بأبحره بل أستقيله وأسترشده وأستعفيه وأستنجده ، ثم إنى لا أظهر طرفاً من كتابى هذا إلا عن أمره وبعد إذنه لأكون به أقوى ثقة وله أشد مقة ، فإن وقع منه بموقع وحل من قبوله فى موضع ، بلغت الإرادات ورجوت الزيادات :

وأزرق الفجر يأتى قبل أبيضه　　وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وإلا سترته ستر العورة وطرحته طرح القلامة لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

هذا كلام ابن رشيق في مقدمة العمدة ، حتى إذا بلغ الكتاب أجله كان آخر شيء فيه قوله : وهذه أبيات كنت صنعتها للسيد أبى الحسن — أدام الله عزه — ختمت بها الكتاب لما جاء موضعها :

إن الذى صاغت يدى وفمى — وجرى لسانى فيه أو قلمى
مما عنيت لسبك خالصه — واخترته من جوهر الكلم
لم أهده إلا لتكسوه — ذكراً يجدده على القدم
لسنا نزيدك فضل معرفة — لكنهن قصائد الكرم
فاقبل هدية من أشدت به — ونسخت عنه آية العدم
لا تحسب الدنيا أبا حسن — تأتى بمثلك فائق الهمم

وما بين المقدمة والخاتمة أدل على وفاء ابن رشيق لصديقه وإعجابه به ، فهو قد ذكره،وأورد شعراً فيه أوله أثنى عليه به فى أربعة عشر موضعاً، وإذا وقع فى شعر أبى الحسن ما يقتضى الاحتجاج له أو الاعتذار عنه فعل(٢٦) .

ونخلص من المقدمة والخاتمة إلى الكتاب نفسه وهو سبعة ومائة باب موزعة على جزئين مكونين من خمسين وستمائة صفحة .

وبادىء ذى بدء نقرر أن هذه الأبواب ليست كلها فى النقد الأدبى(٢٧) بل بعضها فقط. وسننفض هذا البعض لنرى ما فيه من نقد أدبى والله الموفق .

---

(٢٦) انظر فى الجزء الأول صفحات ٤١ ، ٤٦ ، ٨٢ ، ١٣٤ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ وفى الجزء الثانى صفحات ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ١١٠ — ١١٣ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢٥٢ .

(٢٧) انظر فى الجزء الثانى أبوابا مثل : باب فى أصول النسب وبيوتات العرب ص ١٩٠ باب فيما يتعلق بالانساب ص ١٩٣ . باب فى ذكر الوقائع والأيام ص ١٩٨ — باب فى معرفة ملوك العرب ص ٢٢٥ . باب من النسبة ص ٢٣٠ . باب العتاق من الخيل ومذكوراتها ص ٢٣٤ باب ذكر منازل القمر ص ٢٥٢ . باب فى معرفة الاماكن والبلدان ص ٢٥٨ . باب من الزجر والعيافة . ٢٥٩ باب حكم البسملة قبل الشعر ص ٣٠٩ . باب الجوائز والصلات ص ٣١٥.

— ١ —

كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، فإذا اتفقت الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ولم يكن لإحداهما على الأخرى فضل ، كان الحكم للشعر ، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة .

ألا ترى أن الدر — وهو أخو اللفظ ونسيبه وإليه يقاس وبه يشبه — إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى له كسب ومن أجله انتخب ، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال .

وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الاسماع وتدحرج عن الطباع ولم تستقر منه إلا المفرطة فى اللفظ إن كانت أجمله والواحدة من الألف وعسى ألا تكون أفضله ، فإن كانت هى اليتيمة المعروفة والفريدة الموصوفة فكم فى سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به ولا ينظر إليه ، فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده وبناته واتخذه اللابس جمالا والمدخر مالا فصار قرطة الآذان وقلائد الأعناق وأمانى النفوس وأكاليل الرءوس ، يقلب بالألسن ويخبأ فى القلوب مصوناً باللب ممنوعاً من السرقة والغضب[٢٨] .

وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر وأقل جيداً محفوظاً ،

---

(٢٨) يرفض الدكتور زكى مبارك هذا الرأى ويشنع به على ابن رشيق ، وهو يرى أن النثر منظوم كالشعر فالكاتب يؤلف بين الكلمات ويزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التى يعتى بها ناظم الشعر ، وانظر النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ طبعة دار الكاتب العربى بالقاهرة .

وأن الشعر أقل وأكثر جيداً محفوظاً لأن فى أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور ، وكان الكلام كله نثراً ثم احتاج العرب إلى التغنى بمحامدهم وأمجادهم وأوطانهم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً .

ولعل بعض الكتّاب المنتصرين للنثر الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور وأن النبى صلى الله عليه وسلم غير شاعر لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

والذى عليه فى ذلك أكثر من الذى له لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة واشتهرت البلاغة آية للنبوة وحجة على الخلق وإعجازاً للمتعاطين ، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذى من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام ، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك كما قال الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة والمترسلين وليس بترسل ، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً ، ألا ترى كيف نسبوا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم فقالوا : « هو شاعر » لما فى قلوبهم من هيبة الشعر ومخافته وأنه يقع منه ما لا يلحق . والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال الله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » أى لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل ، ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهرى قال : — معناه ما الذى علمناه شعراً وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعراً .

ولو أن كون النبى صلى الله عليه وسلم غير شاعر غض من الشعر لكانت

أميته غضاً من القراءة والكتابة ولم يقل بذلك أحد[٢٩] .

* * *

ويسبق ابن رشيق عبد القاهر الجرجانى فى الباب الثانى من أبواب العمدة إذ يجعله فى الرد على من يكره الشعر ويصدره بقوله[٣٠] :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » وقد بنى لحسان فى مسجده الشريف منبراً ينشد عليه الشعر . قالت عائشة رضى الله عنها: الشعر فيه حسن وقبيح فخذ الحسن واترك القبيح .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه . وقد كتب إلى أبى موسى الأشعرى : مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب .

وقال على بن أبى طالب : الشعر ميزان القول . ورواه بعضهم : ميزان القوم . وقال معاوية : يجب على الرجل تأديب ولده . والشعر أعلى مراتب الأدب وقيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر فقال :

« نسكوا نسكاً أعجمياً »

وكان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب .

---

(٢٩) العمدة ج ١ ص ١٩ — ٢١ .

(٣٠) توفى ابن رشيق سنة ٤٥٦ هـ وتوفى عبد القاهر سنة ٤٧١ هـ وإذا كان ابن رشيق قد الف العمدة فى المدة من سنة ٤١٢ إلى ٤٢٥ كما حقق كثير من الدارسين أى قبل وفاة عبد القاهر بحوالى ٥٠ سنة فمن المعقول أن يكون ابن رشيق هو السابق وعبد القاهر هو اللاحق وأن يكون دلائل الإعجاز قد الف بعد العمدة وانظر الفصل الأول من دلائل الإعجاز .

وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً .

يقول ابن رشيق : « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

فهو غلط وسوء تأول لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شيء من ذلك ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

يريد شعراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وقد قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل » . أى من الرمى بها ، وقال لحسان « اهجهم ومعك جبريل روح القدس والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات . أى عيوب قريش . فلو كان الشعر حراماً أو مكروهاً ما اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم شعراء يثيبهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه منهم . وأما قوله عليه السلام : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً » فإن المقصود به من غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن والشعر وغيره مما جرى هذا المجرى كالجلوس على المقاهى ولعب الشطرنج سواء. أما من يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه فى ذلك بل هو مأمور به[٣١] .

---

(٣١) العمدة ج ١ ص ٢٧ الى ٣٢ .

وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين وجلة الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين والباب الثالث فى أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء فارجع إليه إن شئت[٣٢]

— ٢ —

ويستفتح ابن رشيق الباب الثالث عشر وهو فى القدماء والمحدثين بقوله :— كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالإضافة إلى من كان قبله ، وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن[٣٣] .

ولو أن ابن رشيق اقتصر على هذا الكلام له لقلنا : إنه لم يعط رأيه أو لقلنا إنه مع القدماء ضد المحدثين خصوصاً وأنه قد وردت له عبارة فى صدر الباب السابع عشر ينص فيها على أن المحـــدث دون الجاهلى والمخضرم والإسلامى فى المنزلة » .

لكنه عادل ذلك بقوله مستدركا : « على أنه — أى المحدث — أغمض مسلكا وأرق حاشية[٣٤] .

ثم هو يورد نقولا تدل على أنه مع الجودة تقدم الزمن بصاحبها أو تأخر ، وضد الرداءة تقدم الزمن بصاحبها كذلك أو تأخر . قال : — كان أبو عمرو ابن العلاء لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين قال الأصمعى : جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامى ، وسئل عن المولدين فقال : — ما كان من

(٣٢) العمدة جـ ١ ص ٣٢ — ٤٠
(٣٣) العمدة جـ ١ ص ٩٠ .
(٣٤) العمدة جـ ١ ص ١١٣ .

حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ليس النمط واحدا ترى قطعة ديباج وقطعة مسيح وقطعة نطع »

يقول ابن رشيق : — هذا مذهب أبى عمرو وأصحابه كالأصمعى وابن الأعرابى أعنى أن كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك الشىء إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ثم صارت لجاجة ، فأما ابن قتيبة فقال : — لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر وجعل كل قديم حديثا فى عصره .

ومما يؤيد كلام ابن قتيبة كلام على رضى الله عنه « لولا أن الكلام يعاد لنفد » فليس أحدنا أحق بالكلام من أحد ، وإنما السبق والشرف معا فى المعنى. وقول عنترة :—

هــــل غادر الشعراء من متردم

يدل على أنه يعد نفسه محدثا قد أدرك الشعر بعــــد أن فرغ الناس منه ولم يغادر واله شيئاً وقد أتى فى هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم ولا نازعه إياه متأخر ، وعلى هذا القياس يحمل قول أبى تمام وكان إماماً فى هذه الصناعة غير مدافع :—

يقول من تقرع أسمـــاعه كم ترك الأول للآخر

فنقض قولهم : — ما ترك الأول للآخر شيئاً . وقال فى مكان آخر فزاده بياناً وكشفاً للمراد : —

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت

حيا ضك منه فى العصور الذواهب

ولـكنه صوب العقـــول إذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب [٣٥]

إلى هذا الحد كان ابن رشيق متحمساً للجودة ومتحرراً من ربقة القدم وهو ينص على أن امرأ القيس والنابغة والأعشى لم يتقدموا بتقدم زمنهم وإنما بحلاوة كلامهم وطلاوته مع البعد عن السخف والركاكة، على أنهم لو أغربوا لـكان ذلك محمولا عنهم إذ هو طبع من طبـاعهم . كما ينص على أن الشعر المحدث إذا صح كان لصاحبه الفضل المبين بحسن الاتباع ومعرفة الصواب مع أنه أرق حوكا وأحسن ديباجة [٣٦] .

وفى مـكان آخر يقول : — والمتأخر من الشعراء فى الزمان لا يضره تأخره إذا أجاد كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصر ، وإن كان له فضل السبق فعليه درك التقصير كما أن للمتأخر فضل الإجادة أو الزيادة [٣٧] .

* * *

هذا هو ابن رشيق الناقد المحايد ، أما ابن رشيق مؤرخ الأدب والشاعر المحدث ، فإنه يسجل ظاهرة تفوق المحدثين فى معـانيهم الشعرية بقوله : — « قال أبو الفتح عثمان بن جنى : المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ » ، والذى ذكره أبو الفتح صحيح بين لأن المعانى إنما اتسعت لاتساع الناس فى الدنيا وانتشار العرب بالإسلام فى أقطار الأرض فمصروا الأمصار وحضروا الحواضر وتأنقوا فى المطاعم والملابس وعرفوا بالعيان عاقبة مادلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره ؛ وإنمـا خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متعاطى ، وكل يصف الشىء بمقدار ما فى نفسه من ضعف أو قوة وعجز أو قدرة ، وصفة الإنسان ما رأى يكون

(٣٥) العمدة ج ١ ص ٩١ .
(٣٦) العمدة ج ١ ص ٩٣ .
(٣٧) العمدة ج ١ ص ٢٠٠ .

لا شك أصوب من صفته ما لم ير ،وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر .

ويستدل ابن رشيق على صحة كلامه بما كان من ابن الرومى حين لامه لائم لأنه لا يشبه تشبيه ابن المعتز وهو أشعر منه ،فقد صاح : واغوثاه ، يالله!! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ، ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى ؟

هل قال أحد قط أملح من قولى كذا وقولى كذا . .

يذكر ابن رشيق القصة كلها بأشعارها ثم يقول : — ولم أدل بهذا البسط كله على أن العرب خلت من المعانى جملةولا أنها أفسدتها ولكن دلت على أنها قليلة فى أشعارها تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ، وهى كثيرة فى أشعار هؤلاء وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ونصبوا الأعلام للمتأخرين ،وإذا تأملت هذا تبين لك ما فى أشعار الصدر الأول الإسلاميين من الزيادات على معانى القدماء والمخضرمين ثم ما فى أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة التى لا يقع مثلها للقدماء إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزاد وامعانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا مخضرم ولا إسلامى ، والمعانى أبداً تتردد وتتولد والكلام يفتح بعضه بعضاً[٣٨] .

وهكذا يعالج ابن رشيق قضية القدماء والمحدثين معالجة مزدوجة ، فهو

---

(٣٨) العمدة جـ ٢ ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

قد نظر إليها نظرتين نظرة نقدية موضوعية ونظرة ذوقية ذاتية وهو حر فيما يستسيغه مادام منصفاً .

— ٣ —

قصر ابن رشيق الباب التاسع عشر على مشكلة المعنى واللفظ وهو يقرر أن للناس فيها آراء ومذاهب :

منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده وهم فرق :

(ا) قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنيع كقول بشار :

إذا ماغضبنا غضبــــة مضرية هتكناحجاب الشمس أوقطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيـلة ذرا منبر صلى علينـــا وسلما

وهذا النوع أدل على القوة وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار وكذلك ما مدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت .

(ب) وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبى القاسم بن هانىء ومن جرى مجراه ، فإنه يقول فى أول مذهبته :

أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم وشامت فقالت : لمع أبيض مخذم
وما ذعرت إلا لجرس حليها ولا رمقت إلا برى فى مخـدم

وليس تحت هذا إلا الفساد وخلاف المراد . وما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف ، غير أنها مغزوة فى دارها أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه . فما هذا كله ؟

وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة . فإذا أخذ فى الحلاوة والرقة وعمل بطبعه وعلى سجيته أشبه الناس ودخل فى جملة الفضلاء ، وإذا تكلف الفخامة وسلك طريق الصنعة أضر بنفسه وأتعب سامع شعره .

( ج ) ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعنى بها واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط كأبى العتاهية وعباس بن الأحنف ومن تابعهما وهم يرون الغاية قول أبى العتاهية :

يا إخوتى إن الهوى قاتلى    فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى    فإننى فى شغل شاغل
عينى على عتبة منهلة    بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى    من شدة الوجد على القاتل

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته .

والأكثرية على تفضيل اللفظ على المعنى . قال العلماء : — اللفظ أغلى من المعنى ثمناً وأعظم قيمة وأعز مطلباً ، فإن المعانى موجودة فى طباع الناس يستوى الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد وفى المضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل وفى الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة لم يكن للمعنى قدر .

* * *

وإذا كان هذا رأى الأكثرية فإن لابن رشيق رأيه الخاص به والذى يوازن فيه بين الألفاظ والمعانى بل إنه ليرجح كفة المعانى بمقدار ما ترجح الروح الجسم قال :

اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح .

وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة فى السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحا فى غير جسم ألبتة[٣٩] .

وإذا كان ابن رشيق بهذا الكلام له قد آخى بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى وقال بتلازمهما واشترط الجودة فى كليهما فإن رأيه هذا هو القول الفصل فى هذه القضية من قضايا النقد .

— ٤ —

والشعر عند ابن رشيق قسمان : ـ

مطبوع لا صنعة فيه وهو الأصل الذى وضع أولا وعليه المدار .

---

(٣٩) العمدة جـ ١ ص ١٢٤ — ١٢٨ .

ومصنوع أى فيه صنعة وهو وإن وقع فيـه هذا الاسم فليس متـكلفا تـكلف أشعار المولدين لـكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعةعن غير قصد ولا تعمل فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف.

والمصنوع قسمان : ـ ماصنعته قليلة بلا تـكلف وما صنعته كثيرة بتكلف ، وقد استظرف النقاد الصنعة إذا جاءت عفوا فى بيت أو بيتين من القصيدة لأنها فى هذه الحالة تـكون دليلا على جودة شعر الشاعر وصدق حسه وصفاء خاطره ، أما إذا كثرت فإنها تـكون عيبا يشهد بخلاف الطبع وإيثار الـكلفة كالذى نجده فى شعر أبى تمام وكلثوم بن عمر العتابى ومسلم بن الوليد ونحوهم.

وخير الأمور أوسطها عند ابن رشيق فهو يفضل النوع الأول من المصنوع على المطبوع ويقول : — ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الـكلفة ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما ، إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز ألبته أن يكون طبعاً واتفاقا إذ ليس ذلك فى طباع البشر ،وسبيل الحاذق بهذه الصناعة إذا غلب عليه حب التصنيع أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه [٤٠] .

وقد توسع ابن رشيق فى معنى الصنعة ليشمل التصنيع كاستعمال الحضرى لغة البدوى والعـكس وهى بهذا المعنى مرفوضة لأنها خلاف الأصل وضد الطبع ، وإذا كان الشاعر متصنعا بان جيده من سائر شعره كأبى تمام فصار محصوراً معروفا بأعيانه ، وإذا كان الطبع غالباً عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب [٤١] .

---

(٤٠) العمدة ج ١ ص ١٢٩ — ١٣٤ .
(٤١) العمدة ج ١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

— ٥ —

أجمل ابن رشيق المقومات الأساسية للشخصية الأدبية فى هذا النص «والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية قراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه العلم وبابه الدربة (٤٢)» .

ولم يكتف بهذا بل جعل الباب السابع والعشرين فى آداب الشاعر واهتم فيه اهتماماً عظيماً بالثقافة على اعتبار أنها عنصر مكتسب كالدربة قال : — والشاعر مأخوذ بكل علم مطلوب بكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل من نحو ولغة وفقه وحساب وفريضة ، فليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر ومعرفة النسب وأيام العرب ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار وضرب الأمثال ، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ومعرفة الأخبار والتلمذة لمن فوقه من الشعراء فيقولون :ـ فلان شاعر راوية يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد وسهل عليه مأخذ الكلام ولم يضق به المذهب ، وإذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ،وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو ماثل بين يديه لضعف آلته ، وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء فقال : هو الراوية . يريد أنه إذا روى استفحل . قال يونس بن حبيب : — وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة وقال رؤبة فى وصف شاعر : ـ

لقد خشيت أن تكون ساحراً　　راوية مرا ومرا شاعرا

ويروى: لقد حسنت ...　　...　　...　　...　　...　　...

---

(٤٢) العمدة جـ ١ ص ١٢١ .

وقال الأصمعى :ـ لا يصير الشاعر فى قريض الشعر فحلا حتى يروى أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعانى وتدور فى مسامعه الألفاظ . وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزاناً على قوله ، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه، والنسب وأيام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم [٤٣] .

* * *

وإذا كان الأصمعى يلزم الشاعر بتعلم العروض ليكون ميزانا على قوله كما قال آنفا ، فإن لابن رشيق فى هذا الموضوع رأياً يخالف رأى الأصمعى ، قال فى ختام باب الأوزان : ـ « قد ذكرت ما يليق ذكره بهذا الموضع ليعرفه المتعلم إن شاء غير متكلف به شعراً إلا ما ساعده عليه الطبع وصح له فيه الذوق لأنى وجدت تكلف العمل بالعلم فى كل أمر من أمور الدين أوفق إلا فى الشعر خاصة فإن عمله بالطبع دون العروض أجود ، لما فى العروض من المسامحة فى الزحاف ، وهو ما يهجن الشعر ويذهب برونقه [٤٤] » .

. . .

وقد لمح ابن رشيق الدربة بل صرح بها وهو يشرح قول بكر بن النطاح الحنفى : « الشعر مثل عين الماء إن تركتها اندفنت وإن استهتنتها هتنت » قال : وليس مراد بكر أن تستهتن بالعمل وحده لأنا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مراراً وتنزف مادته وتنفد معانيه ، فإذا أجم طبعه أياماً وربما زماناً طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة وانهمر فى كل قافية شاردة وانفتح له من المعانى والألفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وأبهم دونه ، لكن

(٤٣) العمدة جـ١ ص ١٩٦ — ٢٠٤ . (٤٤) العمدة جـ١ص ١٥٠ — ١٥١ .

بالمذاكرة مرة فإنها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعانى ، وتوقظ أبصار الفطنة ، وبمطالعة الأشعار كرة فإنها تبعث الجد وتولد الشهوة [٤٥] .

« وأبصار الفطنة » فى العبارة الأخيرة نص على الذكاء وبهذا يستوفى ابن رشيق مقومات الشخصية الأدبية قاطبة .

وبعد استكمال هذه المقومات تأتى عملية الخلق الأدبى أو ما يسمى بالإبداع الفنى .

وقد عقد ابن رشيق لذلك باباً سماه « عمل الشعر وشحذ القريحة له » [٤٦] صدره بقوله : ـ لابد للشاعر وإن كان فحلا حاذقا مبرزاً مقدما من فترة تعرض له فى بعض الأوقات إما لشغل يسير أو موت قريحة أو نبو طبع فى تلك الساعة أو ذلك الحين ، وقد كان الفرزدق وهو فحل مضر فى زمانه يقول : ـ تمر علىّ الساعة وقلع ضرسى من أضراسى أهون على من عمل بيت من الشعر .

ثم إن للناس ضروبا مختلفة يستدعون بها الشعر فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى ، كل امرىء على تركيب طبعه واطراد عادته ، سئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ؟ فقال : كيف ينقفل دونى وعندى مفاتحه ؟ قيل له : وعنها سألناك ، ما هى ؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب .

يقول ابن رشيق : فهذا لأنه عاشق ولعمرى إنه إذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله فى الركاب.

وقيل لكثير : كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة فيسهل على أرصنه ويسرع إلى أحسنه .

---

(٤٥) العمدة جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٤٦) هو الباب الثامن والعشرون جـ ١ ص ٢٠٤ — ٢١٥ .

ويدلى ابن رشيق بدلوه فى قوله : ـ ومما يجمع الفكرة من طريق الفلسفة استلقاء الرجل على ظهره [٤٧] وعلى كل حال فليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم لكون النفس مجتمعة لم ينفرق حسها فى أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعيبها وإذ هى مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى ولأن السحر ألطف هواء وأرق نسيما وأعدل ميزانا بين الليل والنهار ، وإنما لم يكن العشى كالسحر وهو عديله فى التوسط بين طرفى الليل والنهار لدخول الظلمة فيه على الضياء بعد دخول الضياء فى السحر على الظلمة ، ولأن النفس فيه كالة من تعب النهار وتصرفها فيه ومحتاجة إلى قوتها من النوم متشوقة نحوه فالسحر أحسن لمن أراد أن يصنع [٤٨] .

هذا هو الظرف المناسب للخلق الأدبى وتلك هى البيئة المساعدة على إنتاجه.

أما ما بعد ذلك من عملية الخلق الأدبى وإنتاجه ، فيختلف الناس فيها اختلافا بينا . ـ

لعبد الله بن رواحة طريقته ، ولأبى تمام طريقته ، وللمتنبى طريقته ولغير هؤلاء من الشعراء طريقته : ـ

سأل رسول صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة كالمتعجب من شعره فقال : كيف تقول الشعر ؟ قال : أنظر فى ذلك ثم أقول .

وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز بالصدور يقول ابن رشيق ناقداً طريقة أبى تمام وموضحا طريقته الخاصة به فى إنتاج شعره : ـ وذلك هو

(٤٧) انتفم العالم الجزائرى أبو الفضل محمد المشدالى ( ت ٨٦٤ هـ ) بهذه الفكرة قالوا : كان يستلقى على قفاه ويتأمل فياتى بصواعق لاينهض لها غيره ولقد كان يفعل ذلك كثيرا . ( انظر تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن جيلالى ج ٢ ص ٢٧١ — ٢٨٠ ) .

(٤٨) العمدة ج ١ ص ٢٨٠ .

التصدير فى الشعر ولا يأتى به كثيراً إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه ، والصواب ألا يصنع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته ، غير أنى لا أجد ذلك فى طبعى جملة ولا أقدر عليه بل أضع القسم الأول على ما أريده ثم ألتمس فى نفسى ما يليق به من القوافى بعد ذلك فأبنى عليه القسم الثانى ، أفعل ذلك فيه كما يفعل من يبنى البيت كله على القافية ، ولم أر ذلك بمخل على ولا يزيحنى عن مرادى ولا يغير علىّ شيئاً من لفظ القسم الأول إلا فى الندرة التى لا يعتد بها أو على جهة التنقيح المفرط .

وابن رشيق لا يلزم الناس بطريقته وهو لهذا لا ينهى بها بحثه ولا يغلق عليها نفسه وإنما ينبه إلى أن هناك طرائق أخرى :-

فمن الشعراء من يسبق إليه بيت أو بيتان وخاطره فى غيرهما يجب أن يكونا بعد ذلك بأبيات أو قبله بأبيات وذلك لقوة طبعه وانبعاث مادته .

ومنهم من ينصب قافية بعينها لبيت بعينه من الشعر مثل أن تكون ثالثة أو رابعة أو نحو ذلك لا يعدو بها ذلك الموضع إلا انحل عنه نظم أبياته وذلك عيب فى الصنعة شديد ونقص بين لأنه — أعنى الشاعر — يصير محصوراً على شىء واحد بعينه مضيقا عليه وداخلا تحت حكم القافية وكانوا يقولون : ليكن الشعر تحت حكمك ولا تكن تحت حكمه .

ومنهم من إذا أخذ فى صنعة الشعر كتب من القوافى ما يصلح لذلك الوزن الذى هو فيه ثم أخذ مستعملها وشريفها ومساعد معانيه وما وافقها واطرح ما سوى ذلك إلا أنه لابد أن يجمعها ليكرر فيها نظره ويعيد عليها تخيره فى حين العمل .

هذا الذى عليه حذاق القوم .

ومن الشعراء من إذا جاءه البيت عفوا أثبته ثم رجع إليه فنقحه وصفاه من كدره ، وذلك أسرع له وأخف عليه وأصح لنظره وأرخى لباله .

وآخر لا يثبت البيت إلا بعد إحكامه فى نفسه وتثقيفه من جميع جهاته وذلك أشرف للهمة وأدل على القدرة وأظهر للكلفة وأبعد من السرقة»[٤٩].

وعلى الشاعر بعد فراغه من نظم شعره أن يعيد النظر فيه فيسقط رديه ويثبت جيده . ويكون سمحا بالركيك منه مطرحا له راغبا عنه ، فإن بيتا جيداً يقاوم ألفى ردىء قال امرؤ القيس : وهو أفضل الشعراء والمقدم عليهم :ـ

أذود القوافى عنى ذيادا ذياد غلام جرىء جرادا
فلما كثرن وعيينه تخير منهن شتى جيادا
فأعزل مرجانها جانبا وآخذ من درها المستجادا

يقول ابن رشيق : ـ فإذا كان أشعر الشعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه فكيف ينبغى لغيره أن يصنع ؟

ويقال إن أبا نواس كان يفعل هذا الفعل فينفى الردىء ويبقى الجيد[٥٠]

* * *

وابن رشيق يستبطن النفس الإنسانية ويصف ضعفها أمام ما يصدر عنها من إنتاج شعرى بقوله « والشعر مزلة العقول ، وذلك أن أحداً ما صنعه قط فكتمة ولو كان رديئا ، وإنما ذلك لسروره به وإكباره إياه ، وهذه زيادة فى فضل الشعر وتنبيه على قدره وحسن موقعه من كل نفس »[٥١] .

إن هذا الكلام له يشبه أن يكون فصلا من فصول علم النفس الأدبى ، وابن رشيق به ناقد فيلسوف أو عالم نفسانى أو نقول : شاعر مجرب .

* * *

---

(٤٩) العمدة ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ . (٥٠) العمدة ج ١ ص [illegible]
(٥١) العمدة ج ١ ص ١١٧ .

ذلك كان الإطار وتلك كانت الطرق المثالية لرسم صورة أدبية تشبهه وتنسجم معه .

ولابن رشيق فيما يتعلق بالأبعاد الفنية للغة الأدب كلام طيب قال : —
ولا يستغنى المولد عن تصفح أشعار المولدين لما فيها من حلاوة اللفظ وقرب المأخذ وإشارات الملح ووجوه البديع الذى مثله فى شعر المتقدمين قليل وإن كانوا هم فتحوا بابه وفتقوا جلبابه ، وللمتعقب زيادات وافتنان ، لا على أن تكون عمدة الشاعر مطالعة كلام المحدثين دون القدماء ، فإنه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المتانة وفضل القوة ما يبلغ به طاقة من تبع جادته ،وإذا أعانته فصاحة المقدم وحلاوة المتأخر اشتد ساعده وبعد مرماه فلم يقع دون الغرض ، وعسى أن يكون أرشق سهاما وأحسن موقعا ممن لو عول عليه من المحدثين لقصر عنه ووقع دونه ، وليجعل طلبه أولا للسلامة فإذا صحت له طلب التجويد حينئذ ، وليرغب فى الحلاوة والطلاوة رغبته فى الجزالة والفخامة ، وليجتنب السوقى القريب والحوشى الغريب حتى يكون شعره حالا بين حالين كما قال بعض الشعراء : —

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

فأول ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجد الذى هو الغاية وفيه وحده الكفاية حسن التأتى والسياسة وعلم مقاصد القول ، فإن نسب ذل وخضع ، وإن مدح أطرى وأسمع ، وإن هجا أقل وأوجع ، وإن فخر خب ووضع ، وإن عاتب خفض ورفع وإن استعطف حن ورجع .

ولتكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائناً من كان ليدخل إليه من بابه ويداخله فى ثيابه فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذى به تفاوت الناس وبه تفاضلوا .

وقد قيل : لكل مقام مقال ، وشعر الشاعر لنفسه وفى مراده وأمور ذاته من مزح وعزل ومكاتبة ومجون وما أشبه ذلك غير شعره فى قصائد الحفل التى يقوم بها بين السماطين ، يقبل منه فى تلك الطرائق عفو كلامه ومالم يتكلف له ولا ألقى به بالا ، ولا يقبل منه فى هذه إلا ما كان محككا معاوداً فيه النظر جيداً لا غث فيه ولا ساقط ولا قلق ، وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع(٥٢) .

* * *

ويلقى ابن رشيق نظرة على الشعراء إلى عهده ، وتمتد هذه النظرة فتشمل علماء بلده يقول : ومن الشعراء من يضع كل لفظة موضعها لا يعدوه فيكون كلامه ظاهراً غير مشكل وسهلا غير متكلف ، ومنهم من يقدم ويؤخر إما لضرورة وزن أو قافية وهو أعذر ، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ويقدر على تعقيده وهذا هو العى بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب والشذوذ التى يقل مثلها فى الكلام ، فقد عيب على من لا تعلق به التهمة وهو الفرزدق ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم ولا يقضى له بالعلم إلا أن يكون فى شعره التقديم والتأخير ، وأنا أستثقل ذلك(٥٣) .

وهو لا يستثقل ذلك فقط بل إنه يوشك أن يمنع الرخص فى الشعر ، هاهو ذا يستفتح الباب الذى عقده لها بقوله :

وأذكر هنا ما يجوز للشاعر استعماله إذا اضطر إليه ، على أنه لا خير فى الضرورة على أن بعضها أسهل من بعض ، ومنها مايسمع عن العرب ولا يعمل

---

(٥٢) العمدة جـ ١ ص ١٩٨ — ١٩٩ .
(٥٣) العمدة جـ ١ ص ٢٥٩ — ٢٦١ .

به لأنهم أتوا به على جبلتهم والمولد المحدث قد عرف أنه عيب ، ودخوله فى العيب يلزمه إياه[٥٤] .

وابن رشيق بكل ما قاله قد وفى الموضوع حقه ولا يسعنا إلا شكره .

— ٦ —

فى القصيدة العربية ثلاثة مواقف مهمة سماها ابن رشيق المبدأ والخروج والانتهاء . وسنصحبه فى كل موقف على حدة .

المبدأ : قال : الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغى للشاعر أن يجود ابتداء شعره فإنه أول مايقرع السمع وبه يستدل على ماعنده من أول وهلة ، وليتجنب ألا ، خليلى ، قد . فلا يستكثر منها فى ابتدائه فإنها من علامات الضعف إلا للقدماء الذين جروا على عرق وعملوا على شاكلة ، وليجعله حلواً سهلاوفخما جزلا ، وليرغب عن التعقيد فيه فإنه أول العى ودليل الفهة ، وليحترس مما تناله فيه بادرة أو يقع عليه مطعن ، وإنما يؤتى الشاعر فى هذه الأشياء إما من غفلة فى الطبع وغلظ ، أو من استغراق الصنعة وشغل هاجس بالعمل ، والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها وينظر فى أحوال المخاطبين فيقصد محابهم ويميل إلى شهواتهم وإن خالف شهوته ، ويتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره .

وقد لاحظ ابن رشيق أن مذاهب الشعراء تختلف فى افتتاح القصائد بالنسيب ، فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وصفة الطلول والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومر النسيم وذكر المياه التى يلتقون عليها ، والرياض التى يحلون بها ، وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابهم ، أما أهل الحاضرة فيأتى أكثر تغزلهم فى ذكر

---

(٥٤) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٩ .

الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحرس والأبواب وفى ذكر الشراب والندامى ودس الكتب وما شاكل ذلك مما هم به منفردون .

وينبه ابن رشيق إلى أن أهل البادية قد يتغزلون على طريقة أهل الحاضرة ، وأن أهل الحاضرة قد يتغزلون على طريقة أهل البادية تظرفاً أو حباً فى التقليد ، وهو يسمح بذلك على طريق التجوز .

ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة ، وذلك ما يسميه النقاد بالوثب والبتر والقطع والكسع والاقتضاب ، وتسمى القصيدة إذا جاءت على تلك الحال بتراء وقطعاء وكسعاء ومقتضبة .

الخروج : وهو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ثم تمادى فيما خرجت إليه كقول البحترى :

سقيت رباك بكل نوء عاجل     من وبله حقالها معلوما
ولو أننى أعطيت فيهن المنى     لسقيتهن بكف إبراهيما

يقول ابن رشيق : وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب فى الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله « دع ذا » و « عد عن ذا » ويأخذون فيما يريدون ، أو يأتون بإن المشددة ابتداءً للكلام الذى يقصدونه فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله « دع دا » أو « عد عن ذا » ونحو ذلك سمى طفراً وانقطاعاً ، وكان البحترى كثيراً ما يأتى به نحو قوله :

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى     لكن قلبى بالرجاء موكل
إن الرعية لم تزل فى سيرة     عمرية قد ساسها المتوكل

الانتهاء : يقول ابن رشيق عنه : وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها فى الأسماع ، وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتى بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه . ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقه وفيها راغبة مشتهية ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة ، كل ذلك رغبة فى أخذ العفو وإسقاط الكلفة ألا ترى معلقة امرىء القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر :

كأن السباع فيه غرقى غدية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات وهى أفضلها[٥٥] .

* * *

وبعد الكلام عن المواقف المهمة فى القصيدة يأتى الكلام عن وحدتها الفنية . وقد عقد ابن رشيق باباً للنظم[٥٦] صدره بقوله : قال أبو عثمان الجاحظ « أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان » .

يقول ابن رشيق : وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذى ذكره الجاحظ لذ سماعه وخف محتمله وقرب فهمه وعذب النطق به وحلى فى فم سامعه فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه وثقل على اللسان النطق به ومجته المسامع فلم يستقر فيها منه شىء .

ولا يغرنك إيراده هذا النص للجاحظ وتعليقه عليه بما قرأته له فهو ليس

---

(٥٥) العمدة ج ١ ص ٢١٧ — ٢٤١ .

(٥٦) هو الباب الرابع والثلاثون ج ١ ص ٢٥٧ — ٢٦٢ .

على رأى الجاحظ ولا مع الوحدة الفنية للقصيدة العربية واقرأ قوله : « ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض ، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده ، وما سوى ذلك فهو عندى تقصير إلا فى مواضع معروفة مثل الحكايات وماشاكلها ، فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد[٥٧] .

— ٧ —

وقد جعل ابن رشيق الباب السادس والثلاثين فى المجاز[٥٨] واستفتحه بقوله : العرب كثيراًماتستعمل المجاز وتعده من مفاخر كلامها فإنه دليل الفصاحة ورأس البلاغة وبه بانت لغتها عن سائر اللغات .

والعبارة الأخيرة غير مسلمة له ، فالمجاز قاسم مشترك بين كل اللغات وجميع الآداب ، والكلمات فى الأسلوب الأدبى أياً كانت لغته تتردد بين الحقيقة والمجاز ، وابن رشيق نفسه يقول : وماعدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضاً فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز إلا أنهم خصوا به باباً بعينه وذلك بأن يسمى الشىء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب كما قال جرير :

إذا نزل السماء بأرض قوم　　　رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال « نزل » يريد نزول المطر الذى فيه وقال «رعيناه» والمطر لا يرعى ولكن أراد النبت الذى يكون عنه فهذا كله مجاز .

---

(٥٧) العمدة جـ ١ ص ٢٦٢　　　(٥٨) العمدة جـ ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٨ .

وينص ابن رشيق على أن المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعاً فى القلوب والأسماع .

والاستعارة عنده أفضل المجاز وأول أبواب البديع وليس فى حلى الشعر أعجب منها وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها ، والناس مختلفون فيها : منهم من يستعير للشىء ما ليس منه ولا إليه كقول لبيد :

وغداة ريح قد وزعت وقرة    إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه كما قال ذو الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى
وساق الثريا فى ملاءته الفجر

هكذا فهم ابن رشيق . وعندى أن البيتين لا فرق بينهما من ناحية الاستعارة الموجودة فيهما فهى فى كل منهما استعارة مكنية ، على أن الاستعارة تصريحية أومكنية لابد أن يكون أساسها التشبيه ، لكن أ يكون هذا التشبيه واضحاً أم خفياً ؟ هذا ما أشار إليه ابن رشيق ببيتى لبيد وذى الرمة وعالجه بقوله : وبعض المتعقبين يرى ما كان من نوع بيت ذى الرمة ناقص الاستعارة إذ كان محمولا على التشبيه ويفضل عليه ما كان من نوع بيت لبيد ، وهذا عندى خطأ لأنهم إنما يستحسنون الاستعارة القريبة وعلى ذلك مضى جلة العلماء وبه أتت النصوص عنهم ، وإذا استعير للشىء ما يقرب منه ويليق به كان أولى مما ليس منه فى شىء ، ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبى نواس :

بح صوت المال مما    منك يشكو ويصيح

فأى شىء أبعد استعارة من صوت المال ، فكيف حتى بح من الشكوى والصياح . قال القاضى الجرجانى : الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصلى ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها وملاكها بقرب التشبيه ومناسبة المستعار له وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر ، وقال قوم آخرون منهم أبو محمد الحسن ابن وكيع :

خير الاستعارة ما بعد وعلم فى أول وهلة أنه مستعار فلم يدخله لبس ، ومنهم أبو الفتح عثمان ابن جنى قال : الاستعارة لاتكون إلا للمبالغة وإلافهى حقيقة ، ويعلق ابن رشيق على اختلاف وجهات النظر هذه بقوله : « وكلام ابن جنى أيضاً حسن فى موضعه لأن الشىء إذا أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة، فإذا أعطى وصف غيره سمى استعارة ، إلا أنه لايحب للشاعر أن يبعد الاستعارة جداً حتى ينافر ولا أن يقربها كثيراً حتى يحقق ولكن خير الأمور أوساطها[٥٩] .

ومن استمرار تعصب ابن رشيق للغة العربية ورميه غيرها بالقصور والعجز قوله : والاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام اقتداراً ودلالة ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم وليس ذلك فى لغة أحد من الأمم غيرهم[٦٠] :

وانحياز ابن رشيق إلى جانب المجاز لا يعنى أنه يحبذ الإكثار منه فى الكلام . لا . لا يحبذ ابن رشيق ذلك بل يحبذ الأمر الوسط ولزوم حد الاعتدال ، فهو يتحدث عن الأمثال ويورد نماذج لها ثم يعلق عليها بقوله :

---

(٥٩) العمدة جـ ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٤ ، (٦٠) العمدة جـ ١ ص ٢٧٤ .

وهذه الأشياء فى الشعر إنما هى نبذ تستحسن ونكت تستظرف مع القلة وفى الندرة ، فأما إذا كثرت فهى دالة على الكلفة فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس فقد قعد به عن أصحابه وهو يقدمهم فى الصناعة لإكثاره من ذلك ، وكذلك لا يجب أن يكون استعارة وبديعاً كشعر أبى تمام فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز ، وكيف قال فيه ابن قتيبة ، وما ألف عليه المتعقبون كالجرجانى والآمدى وغيرهما ، وإنما هرب الحذاق من هذه الأشياء لما تدعو إليه من التكلف لا سيما إن كان فى الطبع أيسر شىء من الضعف والتخلف ، ولا ينبغى للشعر أن يكون أيضاً خالياً مغسولا من هذه الحلى ، فارغاً ككثير من شعر أشجع وأشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة مع أنه لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ويسهل عليه تناولها كأبى نواس فى الخمر وأبى تمام فى التصنيع ، والبحترى فى الطيف وابن المعتز فى التشبيه وديك الجن فى المراثى وأبى الطيب فى الأمثال وذم الزمان وأهله ، وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه[٦١] .

وهكذا يؤمن ابن رشيق بالمذهب الوسط فى صور الأدب وفى كثير من مسائل النقد ، فهو مع من قال : الاعتدال فى كل شىء حتى فى الاعتدال .

## — ٨ —

وابن رشيق مرن ومتطور فهو لا يجمد على القديم ولا يتعبد به ، ودليلنا على هذا قوله فى باب التشبيه « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون

---

(٦١) العمدة جـ ١ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

إلا القليل عن مثلها استنباطاً لها وإن كانت بديعة فى ذاتها مثل قول امرىء القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه    أساريع ظبي أو مساويك إسحل

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة وهى دودة تكون فى الرمل وتسمى جماعتها بنات النقى ، وإياها عنى ذو الرمة بقوله :

خراعيب أمثال كأن بنانها    بنات النقى تخفى مراراً وتظهر

فهى كأحسن البنان ليناً وبياضاً وطولا واستواء ودقة وحمرة رأس كأنه ظفر قد أصابه الحناء ، إلا أن نفس الحضرى المولد إذا سمعت قول أبى نواس فى صفة الكأس :

تعاطيكها كف كأن بنانها    إذا اعترضتها العين صف مدارى

أو قول عبد الله بن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة
مقومة أثمارهن عقيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرىء القيس وإن كان تشبيهه أشد إصابة ، فأما قوله :

« أو مساويك إسحل» فجار مجرى غيره من تشبيهاتهم لأنهم يصفونها بالعنم والأقلام وما أشبه ذلك ، والبنان قريب الشبه من أعواد المساويك فى القد والاستواء والإملاس ، إلا أن الأول على كراهته أشبه بها .

وقد استبشع قوم قول الآخر يصف روضاً :

كأن شقائق النعمان فيه    ثياب قد روين من الدماء

فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً فإن فيه بشاعة ذكر الدماء ، ولو قال : من العصفر مثلا أو ما شاكله لكان أوقع فى النفس وأقرب إلى الأنس .

وكذلك صفتهم الخمر فى حبابها بسلخ الشجاع وما جرى هذا المجرى من التشبيه فإنه وإن كان مصيباً لعين الشبه غير طيب فى النفس ولا مستقر على القلب .

وكأنى أرى بعض من لا يحسن إلا الاعتراض بلا حجة قد نعى على هذا المذهب وقال :

رد على امرىء القيس . ولم أفعل ولكنى بينت أن طريق العرب فى كثير من الشعر قد خولفت إلى ما هو أليق بالوقت وأشكل بأهله .

وقد عاب الأصمعى بين يدى الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم إلى وجوه العود

على أنه تشبيه لا يلحق ولا يشق غبار صاحبه . ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به وفضل عليه قول عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها وسط النساء أعارها
عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت
فى عينه سنة وليس بنائم

وأجرى الناس هذا المجرى قول صريع الغوانى على أنه لم يقع لأحد مثله :

ففطت بأيديها ثمار نحورها
كأيدى الأسارى أثقلتها الجوامع

فهذا تشبيه مصيب جداً إلا أنهم عابوه بما بينت . ومثله قول أبى محجن الثقفى فى وصف قينة :

وترفع الصوت أحياناً وتخفضه
كما يطن ذباب الروضة الغرد

فأى قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟ وقد سرق بيت عنترة وقلبه فأفسده[٦٢]

. . .

ويمضى ابن رشيق فى طريق التطور حتى يصل فيه إلى حد أنه يطرح عن المحدث المولد ما كان من جنس تشبيه النعامة للطرماح وصفة الثور الوحشى له أيضاً ، وصفة مغارز ريش النعامة إذا أمرط للشماخ ، ومثل بيت العنكبوت فيما يمتد من لغام الناقة تحت لحييها فى شعر الحطيئة وتشبيه الذباب بالأجذم ،ولحيي الغراب بالجلم لعنترة وأشباه هذا مما انفردت به الأعراب والبادية كعاداتها ؛ كانفرادها بصفات النيران والفلوات الموحشة وورودها مياهها الآجنة وتعسف طرقاتها المجهولة إلى غير ذلك مما لا يعرف عياناً إذ كان المحدث غير مأخوذ به ولا محمول عليه ، ألا ترى إلى أبى نواس وهو مقدم فى المحدثين لما وصف الأسد وليس من معارفه ولعله ما شاهده قط إلا مرة فى العمر إن كان شاهده دخل عليه الوهم فجعل عينيه بارزتين وشبههما بعيون المخنوق وقام عنده أن هذا أشنع وأشبه بشتامة وجه الأسد ، وذهب عنه من صفة أبى زبيد وغيره لغؤور عينيه مما هو أعلم به ممن أخذ عليه .

(٦٢) العمدة جـ ١ ص ٢٩٩ — ٣٠٢ .

ويظهر — والله أعلم — أن أبا نواس إنما رجع بالصفة إلى الرجل المشبه بالأسد ، وجعل ازورار عينيه وبروز جفنيه من علامات الغيظ والحنق على أقرانه فى الحرب ، وكذلك لما تعاطى الأعرابى أبو نخيلة ما لا يعرف قال :— ( ولم تذق من البقول الفستقا ) فجعله بقلا على ما فى نفسه من لعاع البقل .

. . .

وإنه وإن كان المحدثون قد شاركوا القدماء فيما مر وغيره إلا أن القدماء أولى به .

وواضح أن ابن رشيق يصدر فى كلامه هذا عن ذوقه وذوق أهل عصره وهو بهذا من المجددين فى الأدب والنقد .

— ٩ —

والأبواب : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ هى أبواب المبالغة والايغال والغلو على الترتيب .[٦٣]

وقد عالج فيها ابن رشيق موضوع الإفراط فى الصفة معالجة قيمة والعلاقة بينها لاتخرج عن كونها علاقة الجزء بالكل أو الخاص بالعام أو الفرع بالأصل فالإيغال ضرب من المبالغة إلا أنه فى القوافى خاصة لايعدوها وهو إما بمعنى الإبعاد وإما بمعنى سرعة الدخول فى الشىء ، يقال أوغل فى الأرض إذا أبعد ، ويقال أوغل فى الأمر إذا دخل فيه بسرعة ، فعلى الأول كأن الشاعر أبعد فى المبالغة وذهب فيها كل الذهاب ، وعلى الثانى كأنه أسرع الدخول فى المبالغة بمبادرته هذه القافية أو تلك .

أما الغلو : فهو من المغالاة ومن غلوة السهم وهى مدى رميته تقول: غاليت

---

(٦٣) العمدة جـ ٢ ص ٥٣ — ٦٥ .

فلانا مغالاة وغلاءً إذا اختبرتما أيكما أبعد غلوة سهم ، وإذا قلت : غلا السعر غلاء فإنما تريد أنه ارتفع وزاد على ما كان .

وما يسمى الغلو قد يسمى الإغراق والإغراق أيضاً أصله في الرمى ، وذلك أن تجذب السهم في الوتر عند النزع حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس وإنما تفعل ذلك لبعد الغرض الذى ترميه ، هذا عن اشتقاقها . أما عن استعمالها فيختلف الناس في المبالغة : —

منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها ويراها الغاية القصوى في الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان . ومنهم من يعيبها وينكرها .

ويسوق ابن رشيق نصاً مطولا على لسان من يراها عيباً وهجنة بقوله: — قال بعض الحذاق بنقد الشعر : المبالغة ربما أطالت المعنى ولبسته على السامع فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره لأنها لاتقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، وقد رأيناهم ( القدماء ) احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التى استعملوها وبالتشكيك في الشبيهين قال ذو الرمة : —

فيا ظبية الوعساء بين جلاجل

وبين النقا آأنت أم أم سالم ؟

فلو أنه قال : أنت أم سالم على نفى الشك ، بل لو قال : أنت أحسن من الظبية لما حل من القلوب محل التشكك وكما قال جرير : —

فإنك لو رأيت عبيد تيم

وتيما قلت : أيهم العبيد ؟

فلو قال : عبيدهم خير منهم لما ظن به الصدق فاحتال في تقريب المشابهة لأن في قربها لطافة تقع في القلوب وتدعو إلى التصديق والمبالغة في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ فيشغل الاسماع بما هو محال ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصدها من ليس به تمكن من محاسن الكلام . ويعلق ابن رشيق على هذا النص بما يدل على ميله إلى المبالغة وقوله بها فليس كل مبالغة كذلك إلا أن التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضربا من المبالغة ، وكذلك ما ناسب قول ابن المعتز يصف خيلا :—

صببنا عليها ظالمين سياطنا
وطارت بها أيد سراع وأرجل

ومن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق التقصى . وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو بن الأيهم التغلبي :—

ونكرم جارنا مادام فينا
ونتبعه الكرامة حيث كانا

فتقصى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه .

ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات وفي ذلك تهويل مع صحة لفظ لاتحيل معنى كقول الله تعالى :— « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض » .

فأما الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة ويقع فيه الاختلاف لافيما سواه مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت ليطل التشبيه وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام ، فمن أبيات المبالغة قول امرىء القيس :—

كأن المدام وصوب الغمام
وريح الخـــــزامى ونشر القطر

يعل به برد أنيابها

إذا غرد الطـــائر المستحر

فوصف فاها بهذه الصفة سحراً عند تغير الأفواه بعد النوم فكيف تظنها في أول الليل .

ومن معجز المبالغة قول الله عز وجل :— « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » فجعل من يسر القول كمن يجهر به ، والمستخفي بالليل كالسارب بالنهار وكل واحد منهما أشد مبالغة في معناه وأتم صفة .

وقد مر أن الايغال نوع من المبالغة ، غير أنه في القوافي فقط ، حكى الحاتمي عن عبدالله بن جعفر عن محمد بن يزيد المبرد قال :— حدثني التوزي قال : قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينقضي كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى . قال : قلت نحو من ! قال : نحو الأعشى إذ يقول :—

كناطح صخرة يوماً ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فقد تم المثل بقوله :— « وأوهى قرنه » فلما احتاج إلى القافية قال : « الوعل » قال : قلت : وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح ؟ قال : لأنه ينحط من قنة الجبل على قرنه فلا يضيره . قال : قلت ثم نحو من ؟ قال نحو ذي الرمة بقوله :—

قف العيس في أطلال مية واسأل

رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتمم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال ( المسلسل ) فزاد شيئاً وقوله : —

أظن الذى يجدى عليك سؤالها
دموعا كتبديد الجمـــان المفصل

فتمم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال « المفصل » فزاد شيئاً أيضاً .

ومن الإيغال الحسن قول الخنساء :—

وإن صخراً لتأتم الهداة به
كأنه عـــلم فى رأسه نار

فبالغت فى الوصف أشد مبالغة وأوغلت إيغالا شديداً بقولها « فى رأسه نار » بعد أن جعلته علماً وهو الجبل العظيم .

ومن أحسن إيغال المحدثين قول مروان بن أبى حفصة : —

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا
أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

فقوله « وأجزلوا » قد أتى فى نهاية الحسن .

ومن الإيغال نوع يسمى الاستظهار . وهو قول ابن المعتز لابن طباطبا العلوى أو غيره :—

فأنتم بنو بنته دوننا
ونحن بنو عمـــه المسلم

فقوله : « المسلم » استظهار لأن العلوية من بنى عم النبى عليه الصلاة والسلام أيضاً أعنى أبا طالب ومات جاهلياً فكأن ابن المعتز أشار بحذقه إلى ميراث الخلافـــة .

* * *

وإذا كان من الناس من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هى فى معرفته بوجوه الإغراق والغلو . فإن ابن رشيق لا يقر ذلك لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف ، وقد قال الحذاق : خير الكلام الحقائق فإن لم يكن فما قاربها وناسبها وأصح الكلام عنده ما قام عليه الدليل وثبت فيه الشاهد من كتاب الله تعالى ، وهو قد قرن الغلو فيه بالخروج عن الحق فقال جل من قائل : — « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » وإذا لم يجد الشاعر بداً من الإغراق لحبه ذلك ونزوع طبعه إليه فليكن ذلك منه فى الندرة وبيتا فى القصيدة إن أفرط ، ولا يجعل ذلك هجيراه كما يفعل أبو الطيب .

* * *

وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بكاد أو ما شاكلها نحو كأن ، ولو ، ولولا . ألا ترى ما أعجب قول زهير : —

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم بأحسابهم أو مجدهم قعدوا

فبلغ ما أراد من الإفراط وبنى كلامه على صحة . ومما استحسنه الرواة ونص عليه العلماء قول امرىء القيس يصف سناناً : —

حملت ردينيا كأن شبانه
سنا لهب لم يتصل بدخان

وإذا نظرت إلى قول أبى صخر : —

تكاد يدى تندى إذا ما لمستها
وينبت فى أطرافها الورق النضر

وقول أبى الطيب : —

عجبت من أرض سحاب أكفهم
من فوقهـــا وصخورها لاتورق

لم يخف عنك وجه الحكم فيهما ، على أن فى قول أبى الطيب بعض الملاحة والمخالفة لطبعه فى حب الإفراط وقلة المبالاة فيه إذ كان ممكنا أن يقول : إن الصخور أورقت ، ولغة القرآن أفصح اللغات وأنت تسمع قول الله تعالى : — « يكاد البرق يخطف أبصارهم » وقوله: « إذا أخرج يده لم يكد يراها » وقوله: « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » .

— ١٠ —

وقبل أن يعالج ابن رشيق موضوع السرقات فى قراضة الذهب كان قد عالجها فى كتاب العمدة ويقع ذلك منه كما قلنا فى ثلاثة أبواب هى على الترتيب: باب المخترع والبديع ، باب الاشتراك ، باب السرقات وما شاكلها .

وهو فى الباب الأول يحدد معانى الاختراع والتوليد والإبداع ربما لأنها ستتردد كثيراً فيما بعد ، فهو يحدد معنى الكلمة قبل أن يستعملها وهى خطة مثلى فى البحث .

والمخترع من الشعر هو ما لم يسبق إليه قائله ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه كقول امرىء القيس : —

سموت إليها بعـــد ما نام أهلها
سمو حباب المـاء حالا على حال

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره وسلم الشعراء إليه فلم ينازعه أحد إياه .

والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو يزيد فيه

زيادة ، فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً سرقة إذ كان ليس أخذاً على وجهه ، مثال ذلك البيت السابق لامرىء القيس وقول عمر بن أبى ربيعة — وقيل وضاح اليمن —

فاسقط علينا كسقوط الندى
ليلة لا ناه ولا زاجر

فولد معنى مليحا اقتدى فيه بمعنى امرىء القيس دون أن يشركه فى شىء من لفظه أو ينحوه نحوه إلا فى المحصول وهو لطف الوصول إلى حاجته فى خفية .

وأما الذى فيه زيادة فكقول جرير يصف الخيل :

يخرجن من مستطير النقع دامية
كأن آذانها أطراف أقلام

فقال عدى بن الرقاع يصف قرن الغزال :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فولد بعد ذكر القلم إصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى إذ كان القرن أسود ، وقال العمانى الراجز بين يدى الرشيد يصف الفرس :

تخال أذنيه إذا تشوفا قادمة أو قلما محرفا

فولد ذكر التحريف فى القلم وهو زيادة صفة .

* * *

وإذا كان الاختراع وصفاً للمعنى فإن الإبداع وصف للفظ والشاعر الذى

يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع هو الشاعر الذى استولى على الأمد وحاز قصب السبق[٦٤] :

* * *

وفى باب الاشتراك يقرر ابن رشيق أن منه ما يكون فى اللفظ ومنه ما يكون فى المعني فالذى يكون فى اللفظ ثلاثة أشياء :

الأول : أن يكون اللفظان راجعين إلى شيء واحد ومأخوذين من حد واحد وهو التجنيس فذلك اشتراك محمود .

والثانى : — أن يكون اللفظ يحتمل تأويلين : أحدهما يلائم المعنى الذى أنت فيه والآخر لا يلائمه ، ولا دليل فيه على المراد كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمـــه حى أبوه يقاربه

فقوله ( حى ) يحتمل القبيلة ويحتمل الواحد الحى ، وهذا الاشتراك مذموم قبيح ، والمليح قول كثير يشبب .

لعمرى لقد حببت كل قصيرة إلى وما تدرى بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

فأنت ترى فطنته لما أحس بالاشتراك كيف نفاه وأعرب عن معناه الذى نحا إليه :

والثالث — ليس مما مر فى شيء وهو سائر الألفاظ المبتذلة للتكلم بها لا يسمى تناولها سرقة ولا تداولها اتباعا لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر ، فهى مباحة غير محظورة إلا أن تدخلها استعارة أو تصحبها قرينة تحدث فيها معنى أو تفيد فائدة فهناك يتميز الناس ويسقط اسم الاشتراك الذى يقوم به العذر، ولو غيرت اللفظة وأتى بما يقوم مقامها كقول ابن أحمر:

---

(٦٤) العمدة جـ ١ ص ٢٦٢ — ٢٦٥ .

بمقلص درك الطريدة متنــــه كصفا الخليقــة بالفضــاء الملبد

فقوله « درك الطريدة » وقول أبى الطيب :

أجل الظليم وربقـة السرحان

جميعاً كقول امرىء القيس :

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فأما ما ناسب قول الأيرد اليربوعى يرثى أخاه :

وقد كنت أستعفى الإله إذ اشتـكى

من الأجر لى فيــه وإن عظم الأجر

وقول أبى نواس فى صفة الخمر :

ترى العين تستعفيك من لمعانهـا وتحسر حتى ما تقـل جفونهـا

فهو من المشترك الذى لا يعد سرقة ، وقد نص القاضى الجرجانى على أنه من المنقول المتداول المبتذل .

• • •

والاشتراك فى المعانى نوعان :

أحدهما : — أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما فيتباعد اللفظان وذلك هو الجيد المستحسن نحو قول امرىء القيس :

كبـكر المقاناة البيـاض بصفرة غذاها نمير المـاء غير محلل

وقول غيلان ذى الرمة :

نجـلاء فى برج صفراء فى نعج كأنها فضة قـد مسها ذهب

فوصفا جميعاً لونا بعينه فشبهه الأول بلون بيضة النعام ،وشبهه الثانى بلون

الفضة قد خالطها الذهب يسيراً ولذلك قال : — « قد مسها » .

والثانى : — منه ما يوجد فى الطباع من تشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والحسن بالشمس والقمر ، والسخى بالغيث والبحر ،ومنه ما أصله مخترع لكن تواطأ الشعراء عليه آخرا عن أول نحو قولهم فى صفة الخد ( كالورد ) وفى القد ( كالغصن ) وفى العنق ( كعنق الظبى وكأبريق الفضة أو الذهب ) فهذا النوع وما شابهه قد كان مخترعا ثم كثر حتى تساوى الناس فيه ، إلا أن يولد أحد منهم فيه زيادة أو يخصه بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم ، ومثل ذلك تشبيه العزم بهبوب الريح والذكاء بشواظ النار(٦٥) .

وابن رشيق قد مهد بالبابين السابقين لباب السرقات وما شاكلها ، ولا عجب فهو باب متسع جداً ، وفيه أشياء غامضة إلا على البصير الحاذق بالصناعة ، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل ، ويستعين ابن رشيق فيه بنقول عن الحاتمى والقاضى الجرجانى وعبد الكريم النهشلى ثم يشرح أنواع السرقات وهى كثيرة منها :

الإصراف : وهو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ، فإن صرفه إليه على جهة التمثل فهو اجتلاب واستحقاق وإن ادعاه جملة فهو انتحال ، ولا يقال منتحل إلا لمن ادعى شعراً لغيره وهو يقول الشعر ، وأما إن كان لا يقول الشعر فهو مدع غير منتحل .

الاجتلاب : كما قال عمرو ذو الطوق :

صددت الكأس عنا أم عمر    وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو    بصاحبك الذى لا تصبحينا

(٦٥) العمدة جـ ٢ ص ٩٦ — ١٠٠.

استلحقهما عمرو بن كلثوم فهما فى قصيدته ، وكان عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً .

والانتحال كما قال الفرزدق فى بنى ربيع :

تمنت ربيع أن يجىء صغارها بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها

أخذه البعيث بعينه فى بنى كليب رهط جرير فقال الفرزدق :

إذا ماقلت قافيـــة شروداً تنخلها ابن حمراء العجان

يعنى البعيث وكان ابن سرية .

الإغارة : وهى أن يصنع الشاعر بيتاً ويخترع معنى مليحاً فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا فيروى له دون قائله كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

فقال : متى كان الملك فى بنى عذرة ؟ ؟ . . إنما هو فى مضر وأنا شاعرها فغلب الفرزدق على البيت ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره .

والغصب : مثل الإغارة إلا أن صاحب الشعر يتركه للغاصب ويرويه له ، سمع الفرزدق الشمردل اليربوعى ينشد فى محفل :

فما بين من لم يعط سمعاً وطاعة وبين تميم غير حز الحلاقم

فقال له : والله لتدعنه أو لتدعن عرضك، فقال : خذه لا بارك الله لك فيه ، وقال ذو الرمة بحضرته أبياتاً فقال له : إياك وإياها لا تعودن اليها . أنا أحق بها منك . قال : — والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبداً إلا لك :

المرافدة : وهى أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له كما قال جرير

لذى الرمة : أنشدنى ما قلت لهشام المرئى فأنشده قصيدته :

نبت عيناك عن طلل بحزوى     محته الريح وامتنح القطارا

فقال : ألا أعينك ؟ قال : بلى بأبى وأمى . قال : قل له :

يعد الناسبون إلى تميم     بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل سعد     وعمرا ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بينها المرئى لغوا     كما ألغيت فى الدية الحوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده فلما بلغ هذه قال : جيد . أعده فأعاده فقال : كلا والله لقد علكهن من هو أشد لحيين منك هذا شعر ابن المراغة .

والشاعر يستوهب البيت والبيتين والثلاثة وأكثر من ذلك إذا كانت شبيهة بطريقته ولا يعد ذلك عيباً لانه يقدر على عمل مثلها ولا يجوز ذلك إلا للحاذق المبرز .

الاهتدام : وهو أخذ مادون البيت ويسمى أيضاً النسخ مثل قول النجاشى

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة

ورجل رمت فيها يد الحدثان

أخذ كثير القسم الأول واهتدم باقى البيت فجاء بالمعنى فى غير اللفظ قال:

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة

ورجل رمى فيها الزمان فشلت

النظر والملاحظة : وهو أن يتساوى المعنيان دون اللفظ ويخفى الأخذ مثل قول مهلهل :

أنبضوا معجس القسى وأبرقنا كما توعد الفحول الفحولا .

نظر إليه زهير بقوله :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا
ضارب حتى إذا ماضاربوا اعتنقا

وأبو ذؤيب بقوله :

ضروب لهامات الرجال بسيفه إذا حن نبع بينهم وشريج

الإلمام : وقد يسمى التغاير[٦٦] وهو أن يتضاد المعنيان ويدل أحدهما على الآخر نحو قول أبي الشيص :

أجد الملامة في هواك لذيذه حباً لذكرك فليلمني اللوم

وقول أبي الطيب في عكس هذا :

أأحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

الاختلاس : يسمى أيضاً نقل المعنى لأنه ينقله من غرض إلى غرض مثل قول أبي نواس :

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان

اختلسه من قول كثير :

أريد لانسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

الموازنة : وهي أخذ بنية الكلام فقط مثل قول كثير :

تقول مرضنا فما عدتنا وكيف يعود مريض مريضاً ؟

وازن في القسم الآخر قول نابغة بني تغلب :

بخلنا لبخلك قد تعلمين وكيف يعيب بخيل بخيلا

العكس : وهو أن يجعل مكان كل كلمة ضدها مثل قول ابن أبي قيس — ويروى لأبي حفص البصري — .

---

(٦٦) العمدة ج ٢ ص ١٠٣ ، ٢٨٧ .

ذهب الزمان برهط حسان الألى
كانت مناقبهم حديث الغابر
وبقيت فى خلف يحل ضيوفهم
منهم بمنزلة اللئيم الغادر
سود الوجوه لئيمة أحسابهم
فطس الأنوف من الطراز الآخر

المواردة : وهى أن يتفق الشاعران فى اللفظ والمعنى دون أن يسمع أحدهما بقول الآخر كبيتى امرىء القيس وطرفة ، وقد سئل المتنبي عن مثل ذلك فقال : « الشعر جادة وربما وقع الحافر على موضع الحافر » .

وإذا ركب الشاعران معنى كان أولاهما به أقدمهما موتا أو أعلاهما سنا ، فإن جمعهما عصر واحد ألحق بأولاهما بالإحسان وإن كانا فى مرتبة واحدة روى لهما جميعاً .

الالتقاط والتلفيق: وقد يسمى الاجتذاب والتركيب وهو أن يؤلف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض نحو قول يزيد بن الطثرية :

إذا ما رآنى مقبلا غض طرفه ... كأن شعاع الشمس دونى يقابله

فأوله من قول جميل :

إذا ما رأونى طالعا من ثنية ... يقولون : من هذا وقد عرفونى

ووسطه من قول جرير :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وعجزه من قول عنترة الطائى :

إذا أبصرتنى أعرضت عنى ... كأن الشمس من حولى تدور

كشف المعنى : وهو توضيحه أكثر نحو قول امرىء القيس : —

نمس بأعراف الجياد أكفنا  إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقال عبدة بن الطبيب بعده :

ثمة قمنا إلى جرد مسومة  أعرافهن لأيدينا مناديل

فكشف المعنى وأبرزه .

الشعر المجدود : وهو الذى اشتهر أكثر من أصله مثل قول عنترة العبسى

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى  وكما علمت شمائلى وتكرمى

فقد رزق جداً واشتهارا على قول امرىء القيس :

وشمائلى ما قد علمت وما  نبحت كلابك طارقا مثلى

ومنه أخذ عنترة .

. . .

تلك هى الأنواع التى ذكرها ابن رشيق فى باب السرقات وما شاكلها ويظهر أن « وما شاكلها » هذه تعنى تلك الأنواع التى لا تعد سرقة ، وإن جرت العادة على إدخالها فيها أو ذكرها معها كالمواردة وكشف المعنى والشعر المجدود ونحوها مما يحوز فيه الآخذ الفضل ويستأثر بالمعنى وهو ما أشار إليه ابن رشيق بقوله : — « والمخترع معروف له فضله متروك له من درجته غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلا أو يبسطه إن كان كزا أو يبينه إن كان غامضاً أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا أو رشيق الوزن إن كان جافيا فهو أولى به من مبتدعه وكذلك إن قلبه أوصرفه عن وجه إلى وجه آخر ، فأما إن ساوى المبتدىء فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ، فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه وسقوط همته وضعف قدرته

فمما أجاد فيه المتبع على المبتدع قول الشماخ :

إذا بلغتنى وحملت رحلى ... عرابة فاشرقى بدم الوتين

فقال أبو نواس .

أقول لناقتى إذ بلغتنى ... لقد أصبحت منى باليمين

فلم أجعلك للغربان نحلا ... ولا قلت اشرقى بدم الوتين

وكرره فقال :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً ... فظهورهن على الرجال حرام

قربننا من خير من وطىء الحصى ... فلها علينا حرمة وذمام

. . .

ومما يتساوى فيه السارق والمسروق منه قول امرى القيس : —

فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

وقول عبدة بن الطبيب : —

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ومما قصر فيه الآخذ عن المأخوذ منه قول أبى دهبل الجمحى فى معنى بيت الشماخ :

ياناق سيرى واشرقى ... بدم إذا جئت المغيرة

سيثيبنى أخرى سوا ... ك وتلك لى منه يسيرة

فأنت ترى أين بلغت همته .

ويعطف ابن رشيق على ما مر بقوله : — ومما يعد سرقا وليس بسرق اشتراك اللفظ المتعارف كقول عنترة :

وخيل قد دلفت لها بخيل ... عليها الأسد تهتصر اهتصارا

وقول عمرو بن معدى كرب :

وخيل قد دلفت لها بخيل ۞ تحية بينهم ضرب وجيع

وقول الخنساء :

وخيل قد دلفت لها بخيل ۞ فدارت بين كبشيها رحاها

. . .

وأجل السرقات نظم النثر وحل الشعر . قال نادب الإسكندر « حركنا الملك بسكونه » تناوله أبو العتاهية فقال :

قد لعمرى حكيت لى غصص الموت
وحركتنى لها وسكنتها

وقال عيسى عليه السلام : — « تعملون السيئات وترجون أن تجازوا عليها بمثل ما يجازى به أهل الحسنات ؟ . لا . لا يجنى من الشوك العنب » .

فقال ابن عبد القدوس :

إذا وترت امرأ فاحذر عداوته ۞ من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

وأخذ الكتاب قولهم : — « قدمت قبلك » من قول الأقرع بن حابس ويروى لحاتم :

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ۞ بموت فكن أنت الذى تتأخر

وقولهم : — « وأتم نعمته عليك » من قول عدى بن الرقاع العاملى :

صلى الإله على امرىء ودعته ۞ وأتم نعمته عليك وزادها

فما جرى هذا المجرى لم يكن على سارقه جناح عند الحذاق[٦٧] .

---

(٦٧) العمدة جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٩٤ .

— ١١ —

وحين نأتى إلى فنون الشعر نجد أن النقاد العرب تختلف نظرتهم وهم ينزلون الشعراء منازلهم ، فبعضهم ينظر إلى شمول شعر الشاعر لأغراض الشعر المختلفة ، وبعضهم ينظر إلى مدى العمق فى شعره ولو لم يكن شاملا لأغراض كثيرة ، ومن هنا تنوعت المقاييس واضطربت الآراء ، فمن نظر إلى السطح انحاز إلى الشاعر الذى غطى شعره مساحه واسعة من أرض الشعر ، ومن تغلغل فى الأغوار إلى أعماق الفن انحاز إلى المتخصصين الذين قصروا أنفسهم على أغراض معدودة أو غرض فرد وابن رشيق من الصنف الأول ، فالباب السبعون من كتاب العمدة فى التصرف ونقد الشعر ، وهو يستهله بقوله : — « يجب للشاعر أن يكون متصرفا فى أنواع الشعر من جد وهزل وحلو وجزل وألا يكون فى النسيب أبرع منه فى الهجاء ، ولا فى الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ، ولا فى واحد مما ذكرت أبعد منه صوتا فى سائرها ، فإنه متى كان كذلك حكم له بالنقد وحاز قصب السبق .

وابن رشيق مقلد فى هذا الرأى وهو يدل على مصدره بقوله : — حكى الصاحب بن عباد فى صدر رسالة صنعها عن أبى الطيب قال : — « حدثنى محمد بن يوسف الحمادى قال . حضرت بمجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحترى فقال : يا أبا عبادة : أمسلم أشعر أم أبو نواس فقال : بل أبو نواس لأنه يتصرف فى كل طريق ويبرع فى كل مذهب إن شاء جد وإن شاء هزل ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه[٦٨] .

. . .

(٦٨) العمدة جـ ٢ ص ١٠٤ .

ويضع ابن رشيق لكل فن من فنون الشعر مقاييس جودة خاصة به .

فحق النسيب أن يكون عذب الألفاظ قريب المعانى(٦٩) .

والفضائل النفسية هى المعول عليها فى المدح لكن إذا أضيفت إليهافضائل عرضيةأو جسمية كالجمال والأبهة وبسطة الخلق وسعة الدنياوكثرةالعشيرة كان ذلك جيداً . وعنده أن قدامة ليس على صواب وهو يقصر المدح على الفضائل النفسية وحدها وإنما الواجب عليه أن يقول ·

إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما انكار ما سواها كرة واحدة فما أظن أحدا يساعده فيه ويوافقه عليه(٧٠) .

والافتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه ، وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار وبالعكس(٧١) .

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيساً كبيراً وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون فى المدح والهجاء لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة(٧٢)

وللعتاب طرائق كثيرة وللناس فيه ضروب مختلفة ، فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف ، وقد يعرض

---

(٦٩) العمدة ج ٢ ص ١١٦ .

(٧٠) العمدة ج ٢ ص ١٢٥ ·

(٧١) العمدة ج ٢ ص ١٤٣ .

(٧٢) العمدة ج ٢ ص ١٤٧ — ١٥٢ ·

فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف[٧٣] ،

. . .

وأبلغ الهجاء حسبما جاء فى كتاب الوساطة ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض وماقربت معانية وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن[٧٤] .

وينبغى للشاعر ألا يقول شيئاً يحتاج أن يعتذر عنه ، فإن اضطره المقدار إلى ذلك وأوقعه فيه القضاء فليذهب مذهباً لطيفاً وليقصد مقصداً عجيباً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه وكيف يسمح أعطافه ويستجلب رضاه فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ لا سيما مع الملوك وذوى السلطان[٧٥] .

. . .

ولأن الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف نجد ابن رشيق يحتفل به ويشرع له وأحسن الوصف عنده ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع كما قال النابغة الجعدى يصف ذئباً افترس جؤذراً .

فبات يذكيه بغير حديدة
أخو قنص يمسى ويصبح مفطرا

إذا ما رأى منه كراعا تحركت
أصاب مكان القلب منه وفرفرا

---

(٧٣) العمدة جـ ٢ ص ١٦٠ .
(٧٤) العمدة جـ ٢ ص ١٧١ .
(٧٥) العمدة جـ ٢ ص ١٧٦ .

فأنت ترى كيف قام هذا الوصف بنفسه ومثل الموصوف فى قلب سامعه، والناس يتفاضلون فى الأوصاف كما يتفاضلون فى سائر الأصناف، فمنهم من يجيد وصف شىء ولا يجيد وصف آخر، ومنهم من يجيد الأوصاف كلها وإن غلبت عليه الإجادة فى بعضها كامرىء القيس قديماً وأبى نواس فى عصره والبحترى وابن الرومى فى وقتهما وابن المعتز وكشاجم، فإن هؤلاء كانوا متصرفين مجيدين الأوصاف.

. . .

وهو ابن عصره فى قوله: — « وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياهها وحمر الوحش والبقر والظلمان والوعول ما بالأعراب وأهل البادية لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات وعلمهم أن الشاعر يتكلفها تكلفاً ليجرى على سنن الشعراء قديماً.

ويدل ابن رشيق على أنه على مذهب أبى نواس فى شعره بقوله: — والأولى بنا فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلهما وما كان مناسباً لهما كالكئوس والقنانى والأباريق وتفاح التحيات وباقات الزهر إلى مالابد منه من صفات الخدود والقدود والنهود والوجوه والشعور والريق والثغور والأرداف والخصور، ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين، فان ارتفعت البضاعة فصفات الجيوش وما يتصل بها.

. . .

ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم وصفاً من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف بها مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها به حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته.

والوصف هو الكشف والإظهار ، يقال وصف الثوب الجسم إذا نم عليه ولم يستره ، ومنه قول ابن الرومى :

إذا وصفت ما فوق مجرى وشاحها
غلائلها ردت شهادتها الأزر

إلا أن من الشعراء والبلغاء من إذا وصف شيئاً بالغ فى وصفه وطلب الغاية التى لا يعدوها شيء إن مدحا فمدحا وإن ذما فذما[٧٦] .

هذا الدرس لفنون الشعر أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد .

ولولا ما تخلله من نماذج شعرية لما عرضنا له ، فقد شفع ابن رشيق بعض هذه النماذج بنقد لا بأس به .

٥ — ابن شرف القيروانى

هو أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف الجذامى . كاتب مترسل وشاعر مجيد وناقد مدقق، ولد بالقيروان سنة ٣٩٠ ﻫ فى أحد البيوتات الشريفة القادمة مع الجيش العربى الفاتح ، وكانت القيروان فى ذلك الوقت زاهية بالعلوم والفنون والآداب وأتاح ذلك لابن شرف تلمذة مبكرة ومثمرة على أساتذة فضلاء أجلاء كأبى الحسن القابسى وأبى إسحق الحصرى ومحمد بن جعفر القزاز وغيرهم فنبغ حتى اشتهر والتحق بديوان المعز بن باديس .

وكان هو وابن رشيق متقدمين عنده على سائر من فى حضرته من العلماء والأدباء فكان يقرب هذا تارة ويدنى ذاك تارة . وقد ظل ابن شرف ملازما للمعز إلى أن كانت الزحفة الهلالية على القيروان وخروج المعز إلى المهدية سنة ٤٤٩ ﻫ فخرج ابن شرف معه إليها لكنه لم يستقر بها بل عبرها الى صقلية

(٧٦) العمدة ج ٢ ص ٢٩٤ — ٣٠٠ .

ولحق به ابن رشيق هناك ، وكان قد وقع بينهما فى القيروان ما وقع بين جرير والفرزدق أو بين الخوارزمى وبديع الزمان ، فلما اجتمعا بصقلية تنمر كل منهما لصاحبه وتشوق أعلام البلد الى ما كان بينهما من المنافرات والمناقضات ، فجاء أحد العقلاء الى ابن رشيق وقال له: — انما علما الاحسان وشيمخا أهل القيروان ، وقد أصبحتما على جلاء وبين الأعداء ، والأشبه بكما ألا تفريا أديمكما ، ولا تطعما الأعداء لحومكما ، وقد قال ابن رشيق لهذا المتوسط : إيت ابن شرف وأتاه فوجده أجنح للسلم وأدنى الى الحلم ، برىء اليه من صببه وصعده وأعطاه بذلك صفقتى لسانه ويده وكان ابن رشيق ربما اعترض وتعرض وتحلب وتلمض ، أما ابن شرف فلم يحل ما عقد .

وقد ظلا بصقلية فترة كانت العلاقة بينهما فيها طيبة وأكثر من طيبة حتى أن ابن شرف لما هم بالذهاب الى الأندلس عرض على ابن رشيق أن يصحبه لكن ابن رشيق لم يقبل وتمثل ببيتين من الشعر قيل إنهما له ، وقيل بل أنشدهما فقط وهما :

مما يزهدنى فى أرض أندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وقد رد ابن شرف ببيتين من شعره ضمنهما حكمة اجتماعية وسياسية تدل على أنه داهية قال : —

إن ترمك الغربة فى معشر
قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت فى دارهم
وأرضهم ما دمت فى أرضهم

ثم إنه ودع رفيقه واجتاز الأندلس وحده فسكن المرية وغيرها وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد باشبيلية وغيرهم وفى إشبيلية كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ.[١]

مؤلفاته :— خلف ابن شرف كتبا منها :—

١— أبكار الأفكار :— وهو من أدبه الإنشائى شعراً ونثراً ولم يصلنا لكن رأينا قطعة منه فى كتاب « بدائع البدائه » لعلى بن ظافر الصابونى[٢].

فمما جاء فيه شعراً ما حكاه ابن شرف عن نفسه وعن رفيقه ابن رشيق قال :— استخلانا المعز يوماً وقال : أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء فإنى أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به وكلهن قارئات كاتبات فأحب أن أريهن هذا وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه وآسى به من عيب عليه ، فانفرد كل منا وصنع فى الوقت فكان الذى قلت :—

وبلقيسية زينت بشعر
يسير مثل ما يهب الشحيح

رقيق فى خدلجة رداح
خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد
به زغب فمعشوق مليح

---

(١) المكتبة الصقلية ص ٦٤٦ ، وشخصيات أدبية من المشرق والمغرب ص ٣٢١—٣٢٧ ورسائل البلغاء ص ٢٣٣ ومابعدها ، وابن رشيق الشاعر الناقد ص ٥٤ وما بعدها وخريدة القصر وجريدة العصر ج ٢ ص ١١٠ ومعجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٧ .

(٢) ص ٢٤٠ — ٢٤٢ طبعة سنة ١٩٧٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

فان يك صرح بلقيس زجاجا

فمن حدق العيـــون لها صروح(٣)

وكان الذى قال ابن رشيق : —

يعيبون بلقيسية أن رأوا لهـــا

كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما

يزيد خدود الغيد تزغيبها ملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله : — « يعيبون » وقال : أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه .

* * *

ومما جاء فى أبكار الأفكار من نثر ابن شرف قوله فى العداوة : — كم قاطعك من راضعك وقابحك من مالحك ، ونافقك من وافقك ، وناصبك من صاحبك ، وحادك من وادك . وقوله فى أنواع شتى : — الجود أنصر من الجنود . الباذل كثير العاذل . الكريم كثير الغريم . احذر الكريم إذا افتقر واللئيم إذا اقتدر . احذر التقى إذا أنكر والذكى إذا فكر . المطل أحد المنعين والعشق أحد الرقين والسلو أحد العتقين . رفث الكلام أحد السفاحين ، وموالاة القبل أحد النكاحين . جميل الرد أحد الجودين ، وبقاء الذكر أحد الخلودين . من كثر فجره وجب هجره ومن كرمت خصاله وجب وصاله . الوسيلة جناح النجاح . . .

---

(٣) الخدلجة : المرأة الممتلئة الأعضاء من اللحم مع دقة العظام ، والرداح المرأة العظيمة الأوراك والمآكم والمأكمتان هما اللحمتان الوثيرتان فى العجز من الأكمة وهى التل .

٢ — أعلام الكلام :— يقول حسن حسنى عبد الوهاب « به نخب وملح » ويقول غيره : « فيه طرائف من الأدب »[٤]

٣— رسائل الانتقاد : أو مسائل الانتقاد ، وقد طبع ما وصلنا منه أولا فى مجلة المقتبس الدمشقية سنة ١٩١١ م بتحقيق الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ثم ضمنه الأستاذ محمد كرد على الطبعة الثانية من كتابه « رسائل البلغاء » سنة ١٩١٣ بالقاهرة .

وفى سنة ١٩٢٦ م طبعته مكتبة الخانجى المصرية تحت اسم « أعلام الكلام » وجعلته العدد الأول فى سلسلة « كتب نادرة » .

والاسمان مسماهما واحد كما نرى . فهل الأمر كذلك حقيقة ؟ أم هناك كتاب مستقل اسمه أعلام الكلام ؟

الله وحده يعلم والأمر بعد محتاج إلى زيادة بحث وإطالة نظر ولو أن من الباحثين المحدثين من يرجح أنهما اسمان لكتاب واحد مؤتنسين فى هذا بما أشار إليه ابن بسام فى الذخيرة من أن لابن شرف كتابا موسوما بأعلام الكلام وهو رسالة مقامات عارض بها البديع فى بابه ، وصب فيها على قالبه ، ومنها مقامة فى أخبار الأدباء وذكر الشعراء[٥]

ومهما يكن من أمر فإن هذا الذى اتفقت على طبعه دمشق والقاهرة تحت اسم « رسائل الانتقاد » مرتين و « أعلام الكلام » مرة هو الأثر الوحيد الذى وصل إلينا لابن شرف ، فلنصحبه فيه لنرى ما عنده أو ما قاله فى النقد الأدبى بخاصة .

---

(٤) رسائل البلغاء ص ٢٣٦ وشخصيات أدبية ص ٣٢٣ .

(٥) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة قسم ٤ جا ص ١٥٤ وأنظر « اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس الهجرى » لمنصور عبد الرحمن ، ونشرة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٩م .

والكتاب عبارة عن مقدمة ، ومقامتين ، ومختارات شعرية وهو يشغل فى رسائل البلغاء من ص ٢٤١ إلى ص ٢٦٩ أما طبعة الخانجى فتقع فى ٥٥ صفحة .

* * *

وعلى الرغم من أن المقدمة لا تشغل إلا صفحة وبعض الصفحة ، إلا أنها أوسع من المقامتين فى المعنى ، أقصد أن فحواها يدل على أنها مقدمة لكتاب ضاع معظمه ، وليس هذا محض استنتاج .

وإنما هو إلى ذلك دلالة نصية،فابن شرف يشير إلى كتب« كليلةودمنة » لابن المقفع « والنمر والثعلب » لسهل بن هارون و « مقامات بديع الزمان الهمذانى » ويقول : « فأقمت من هذا النحو عشرين حديثاً أرجو أن يتبين فضلها ولا تقصر عما قبلها » عشرين حديثاً أى عشرين مقامة ضاع منها تسعة أعشارها ولو أنها وصلتنا لزاد الكتاب عن مائتى صفحة ويظهر أنها كانت رسائل انتقاديه لأكثر من ناحية وبلغة سهلة وكانت مطرزة بالأمثال والحكم وجارية على لسان أبى الريان . ومن يدرى فقديكون أبو الريان قد استعان بأنواع من الطيور والحيوان فى بيان وجهة نظره أو فى انتقاد مالا يعجبه من غيره ليتم وجه الشبه بين رسائل الانتقاد من ناحية ، وبين كليلةودمنةوالنمر والثعلب ومقامات الهمذانى من ناحية ، لأنه إذا كانت المقامتان اللتان معنا تشبهان مقامات بديع الزمان فليس بينهما وبين كليلة ودمنة ـ مثلا ـ أى شبه .

* * *

وتدل المقدمة على أن ابن شرف قد كتب هذه المقامات وهو فى مغرب عمره ، ربما وهو بأشبيلية حيث وافته المنية ، فهو يقول فى ختامها : ولعمرى ما أشكر من نفسى ولا أثنى على شىء من حسى إلا ظفرى بالأقل مماحاولته على

ما أضرمته نيران الغربة من قلبي وثلمته صعقات الفتنة من لبي ، وقطعت أهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحدة والوحشة من غرائزى وبصائرى لكن نية القاصد وسعة المقصود أعانا ذا الودعلى إتحاف المودود .

ونقف عند عبارة « سعة المقصود » فنجد أن المقامتين أضيق من أن تكونا ذواتي سعة ، أما عبارة « إتحاف المودود » فتدل على أنه ألفه لأحد عظماء الأندلس . وقد التبس الأمر على باحث محدث[٦] حين قرأ قول ابن شرف « هذه أحاديث صنعتها مختلفة الأنواع مؤتلفة فى الأسماع ، فصيحات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف وأسانيد طراف ، يروق الصغير معناها والكبير مغزاها ، وعزوتها إلى أبى الريان الصلت بن السكن من سلامان وكان شيخا هما فى اللسان وبدراتما فى البيان ، قد بقى أحقابا ولقى أعقابا ، ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فامتحنا من علمه بحراً جارياً وقد حنا من فهمه زنداً وارياً وأدرنا من بره طرفاً واجتنينا من ثمره طرفاً ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل وغفلة الزمان تهتبل » ظن الباحث الفاضل أن المسألة فيها تناقض فتردد بين القول بتأليف ابن شرف لرسائله فى سن الشباب وبين القول بتأليفها فى سن الشيخوخة واضطرب .

ولعله يقتنع بأنه ألفها فى آخر عمره .

أما عبارة « ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل وغفلة الزمان تهتبل » فإنما يحدد بها وقت التحصيل والطلب وعهد الفتوة والطرب أيام كانت الدولة الصنهاجية فى أوج سلطانها ، والقيروان فى سابغ عظمتها وباهر إشعاعها ، وهو ينعم برعاية المعز بن باديس له ، ويمسى ويصبح ويجد ويمزح فى مسقط رأسه وبين ذويه وأهله .

---

(٦) هو الأستاذ عبد الرؤوف مخلوف ، وأنظر ابن رشيق الناقد العاعرله ص ٥٤ـ٦١ .

أما جريه فى مضمار البديع ، وسهل ، وابن المقفع ، فذلك ما كان مسك الختام لحياته الحافلة .

## المقامة الأولى

وندلف من المقدمة إلى المقامة الأولى .

وفيها جارى ابن شرف صاحبه أبا الريان فى الشعر والشعراء ومنازلهم فى جاهليتهم وإسلامهم ، واستكشفه عن مذهبه فيهم ومذاهب طبقته فى قديمهم وحديثهم ، ولما أشفق أبو الريان من سعة الموضوع بسبب أن الشعراء أكثر من الإحصاء ، وأن أشعارهم أبعد من الاستقصاء ، حدد له ابن شرف أسماء المشهورين ، وقد غطت قطاع الجاهليين والإسلاميين مخضرمين ومحدثين إلى المتنبى ، وختم قائمة الأسماء بعدد من شعراء المغرب والأندلس ممن لا يبعد — من وجهة نظره — عن معاصرهم ولا يقصر عن سابقهم .

ولم يزد أبو الريان على أن وضع بإزاء كل شاعر بطاقة تعريف أبرز فيها خصائصه الفنية وأهم ما اشتهر به ، وقد حرص على أن يتم ذلك فى تركيز شديد حتى أن بعضها جاء فى سطر وبعضها فى نصف سطر ، ولنتبين ذلك على وجه التقريب نذكر أن هذه المقامة تقع فى تسع صفحات وقد تكلم فيها المؤلف عن ثمانية وأربعين شاعراً من فحول الشعراء ، ويمكن تصنيف هذه البطاقات على الوجه الآتى :—

— بطاقات هى إلى تاريخ الأدب أقرب منها إلى النقد الأدبى مثل «وأما حسان فقد اجتنب بوا كر غسان ، ثم جاء الاسلام وانكشف الإظلام فجاحش عن الدين وناضل عن خاتم النبيين فشعر وزاد ، وحسن وأجاد إلا أن الفضل فى ذلك لرب العالمين وتسديد الروح الأمين .

ومثل : وأما الراعى عبيد فجبل على وصف الأبل فصار بالراعى يعرف ونسى ما له من الشرف .

— بطاقات عبارة عن نقد أدبى غير معلل مثل : وأما الشيخ أبو عقيل(٧) فشعره ينطق بلسان الجزالة عن جنان الأصالة ، فلا تسمع له إلا كلاما فصيحاً ومعنى بينا صريحاً ، وإن كان شيخ الوقار والشرف والفخار لبادئات فى شعره وهى دلائله قبل أن يعلم قائله .

ومثل : وأما النابغة زياد فأشعاره الجياد لم تخرج عن نار جوانحه حتى تناهى نضجها ، ولا قطعت من منوال خواطره حتى تكاثف نسجها لم تهلهلها ميعة الشباب ولا وهاء الأسباب ولا لوم الاكتساب ، فشعره وسائط سلوك وتيجان ملوك .

— بطاقات هى مزيج من تاريخ الأدب والنقد الأدبى غير المعلل مثل :— وأما العباس بن الأحنف فمعترل بهواه وبمعزل عما سواه ، رفع نفسه عن المدح والهجاء ووضعها بين يدى هواه من النساء ، قد رقق الشغف كلامه وثقفت قوة الطبع نظامه فله رقة العشاق وجودة الحذاق .

ومثل :— وأما الصنوبرى ففصيح الكلام غريبه مليح التشبيه عجيبه مستعمل لشواذ القوافى يغسل كدرتها بمياه فهمه الصوافى ، فتجلو وتدق وتعذب وترق وهو وحيد جنسه فى صفة الأزهار وأنواع الأنوار ، وكان فى بعض أشعاره يتخالع وفى بعضها يتشاجع ، وقد مدح وهجا ونثر وشجا ، وأعجب شعره وأطرب وشرق وغرب ، ومدح من أهل أفريقية أمير الزاب جعفر بن على منفق سوق الآداب فوصله بألف دينار بعثها إليه مع ثقات التجار .

---

(٧) الشيخ أبو عقيل هو لبيد صاحب المعلقة عمر حتى جاوز المائه وقد أدرك الإسلام وهو صاحب البيت المشهور :ـ الأكل شىء ما خلا الله باطل .. وكل نعيم لامحالة زائل .

— بطاقات فيها أكثر من شاعر ، وقد يوازن بين من فيها مثل :—وأما القيسان فطبقة عشقة توقة استحوذت الصبابة على أفكارهم واستفرغت دواعى الحب معانى أشعارهم ، فكلهم مشغول بهواه لا يتعداه إلى سواه .

ومثل :— وأما الكميت والرماح ، ونصيب والطرماح فشعراء معاصرة ومناقضات ومفاخرة فنصيب أمدح القوم ، والطرماح أهجاهم ، والرماح أنسبهم والكميت أشبههم تشبيباً .

وهناك بطاقات التعريف فيها بالشاعر غير فنى مثل : وأما الأخطل فسعد من سعود بنى مروان ، صفت لهم مرآة فكره وظفروا بالبديع من شعره ، كان باقعة من حاجاه ، وصاعقة من هاجاه (٨) .

— وبطاقات يمكن أن تضرب مثلا للسجع المعطل عن الاسترسال فى كلام علمى أولى به أن تراعى معانيه قبل أى شىء آخر مثل :—

وأما الطائى حبيب فمتكلف إلا أنه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ، وشغله المطابقة والتجنيس حب ذلك أويس !!! جزل المعانى مرصوص المغانى مدحه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه طرفا نقيض وقطبا سماء وحضيض ، وفى شعره علم جم من النسب وجملة وافرة من أيام العرب ، وطارت له أمثاله وحفظت له أقواله . ديوانه مقرو ، وشعره متلو .

ولم تخل المقامة من بعض المقاييس النقدية .

وهذه المقاييس إما مقاييس جودة وإما مقاييس رداءة .

فمن مقاييس الجودة :

١— حسن التصوير .

٢— اختراع المعانى .

---

(٨) يقال : هو باقعة من البواقع للكيس الداهى من الرجال شبه بالطائر الذى يرد البقع حتى لا يصاد .

٣ــ الطبــع .

ونجدها فى الـكلام على امرىء القيس وابن الرومى والبحترى .

٤ــ أصالة الأدب حتى أنه ليدل على صاحبه أو كما يقول النقاد المحدثون « الأسلوب هو الشخص » : ونجده فى الـكلام على الشيخ أبى عقيل .

٥ــ خلود الأدب بخصائصه الفنية وعدم وقوفه عند مناسبته أو زمنه . ونجده فى الـكلام على زهير بن أبى سلمى .

٦ــ صقل الأدب وتجويده قبل إذاعته . ونجده فى الـكلام على النابغة زياد .

٧ــ حسن التصرف فى فنون الشعر المختلفة . ونجده فى الـكلام على الأعشى ميمون .

ومن مقاييس الرداءة .

١ــ تقصير الشاعر فى بعض فنون الشعر . ونجده فى الـكلام على النابغة الجعـدى .

٢ ــ قرب لغة الأدب من لغة العلم . ونجده فى الـكلام على دعبل .

٣ــ التـكلف . ونجده فى الـكلام على أبى تمام .

وفى المقامة ــ إلى ذلك ــ نص على أن كشاجم حكيم شاعر وهو وصف تقريرى لا يعطى رأى ابن شرف فى مزج الشعر بالفلسفة .

ونص على أنه يستقبح خروج الأدب على العقائد الدينية والتقاليد المرعية ، فهو يأخذ على ابن هانىء استعانته على صلاح دنياه بفساد أخراه لرداءة عقله ورقة دينه وضعف يقينه ، ولو عقل لم تضق عليه معانى الشعر حتى يستعين عليها بالـكفر . يقول أبو الريان مرخيا قياده ومعلنا حياده « هذا ما عندى فى المتقدمين والمتأخرين على احتقار المعاصر واستصغار المجاور فحاش الله من الاتصاف بقلة

الإنصاف للبعيد والقريب والعدو والحبيب » .

وقد صدق ، فكلامه موضوعى ونقده صائب ولا عيب فيه سوى أنه موجز جـداً فلا تفسير ولا أسباب ولا أمثلة ويظهر أنه ترك ذلك كله لذكاء القارىء .

ونتقل إلى : — المقامة الثانية .

وهى من النقد الأدبى فى الصميم ،وقد جاءت فى ست عشرة صفحة وبعض الصفحة بدأها هـكذا : ـ

قلت لأبى الريان فى مجلس عقيب هذا المجلس : ياأبا الريان: لقد رأيت لك نقدا مصيبا ومرعى عجيبا ولقد أرغب فى أن أنال منه نصيبا قال : النقد هبه الموالد وفيه زيادة طارف إلى تالد ولقد رأيت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ فى نقده ولا جودة فهم فى رديه وجيده، وكثير ممن لا علم له يفطن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضه .

قلت : أنا شديد الرغبـة إلى فضلك فى أن تسهمنى من ميزك وعقلك ما أستهدى بسراجه على مستقيم منهاجه فأقف من سرائره على بعض ماوقفت، وأعرف من مفاخره ومعانيه جزءاً مما عرفت ، قال نعم :

أول ما عليه تعتمد وإياه تعتقد ألا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ولا باستيراد ولا باستملاح حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم أن العجلة فى كل شىء موطىء زلوق ومركب زهوق فإن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ويرد على السامع منه فقاقع ،فلا يرعك شماخة مبناه وانظر إلى ما فى سكناه من معناه فإن كان فى البيت ساكن فتلك المحاسن ،وإن كان خاليا فاعدده جسما باليا وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما فى أضعافها فكم من معنى عجيب فى لفظ غير غريب ، والمعانى هى الأرواح والألفاظ هى

الأشباح ، فإن حسنا فذلك الحظ الممدوح وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح .

وقد عالج ابن شرف فى هذه الفقرة ثلاث قضايا نقدية على جانب كبير من الأهمية وهى :ـ

١ — النقد الأدبى بين الموهبة والاكتساب ، وقد قرر أنه طبع وثقافة ، فقد يجهد العلماء بالشعر ورواته أنفسهم فى تحصيله دون جدوى ثم هو قد يحصل لمن لم يطلبه ، ويقع عفوا لكثير ممن لا علم له . يريد أنه لابد مع الموهبة من ثقافة نقدية خاصة، ولابد مع الثقافة النقدية الخاصة من موهبة،فلا غناء لأحدهما عن الآخر كى يكون الإنسان ناقداً بمعنى الكلمة .

٢ — ما يمكن تسميته بالنقد الوهلى أى النقد لأول وهله ، وهو نقد خداع الخطأ فيه أكثر من الصواب ، والزلل إليه أسرع من السداد ،فما لم تنعم النظر وتستخدم الفكر لا تنقد .

٣ — قضية اللفظ والمعنى ويمتاح ابن شرف كتاب العمدة فى تشبيه اللفظ بالجسم والمعنى بالروح وهو يشترط لجودة الأدب سلامة الاثنين من العطب فإن حسنا فذلك الحظ الممدوح وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح ، أى المعنى . يريد أن يقول :ـ

إن التقصير فى اللفظ محتمل ، أما التقصير فى المعنى فليس بوارد ولا محتمل.

* * *

ولما انتقل ابن شرف إلى قضية القدماء والمحدثين عالجها بإسهاب فقد أحكم القول فيها وأرجعها إلى مافى الطبيعة البشرية من حب القديم والحفاظ عليه والتقديس له لارتباطه فى نفوسنا بمن سلف من آبائنا وأجدادنا .

وقد استدل على صحة رأيه وصدق مذهبه بجملة عظيمة من النقد التطبيقى أبرز فيها بعضا من أخطاء القدماء وارتأى لحكمة ظاهرة أن يقف عند أحسن

اثنين منهم بما يشبه الإجماع وهما امرؤ القيس وزهير بن أبى سلمى، وقد أنزلهما من عليائهما بعد أن بين أغلاطهما ونبه إلى ما فى شعرهما من فساد قال : — وتحفظ عن شيئين : أحدهما أن يحملك إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثانى أن يحملك استصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له ، فإن ذلك جور فى الأحكام وظلم من الحكام حتى تمحص قولهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، وهذا باب فى اغتلاقه استصعاب وفى صرف العامة وبعض الخاصة عنه إتعاب وقد وصف تعالى فى كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها من المحدث الجديد فقال حاكيا لقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة» وقال : « لن نعبد إلا ما وجدنا عليه آباءنا» وقد قلت أنت : —

أغرى الناس بامتداح القديم ‏ ‏ ‏ وبذم الجديد غير ذميم

ليس إلا لأنهم حسدوا الحى ‏ ‏ ‏ ورقوا على العظام الرميم

وقلت : —

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا ‏ ‏ ‏ ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان جديدا ‏ ‏ ‏ وسيغدو هذا الجديد قديما

فلا يرعك أن تجرى على منهاج الحق فى جميع الخلق ، فبه قامت السموات والأرض وبه أحكم الابرام والنقض وسأمثل لك فى ذلك مثالا وأملأ أسماعك مقالا وفهمك عدلا واعتدالا : —

هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصراً ومقدمهم شعراً وذكراً ، وقد اتسعت الأقوال فى فضله اتساعا لم يفز غيره بمثله حتى أن العامة تظن بل تؤمن

أن جواد شعره لا يكبو وحسام نظمه لا ينبو وهيهات من البشر الكمال ومن الآدميين الاستواء والاستدلال .

فمن كلامه المخلخل الأركان الضعيف الاستمكان المتزلزل البنيان قوله :

أمرخ خيامهم أم عشر ... أم القلب فى إثرهم منحدر
وشاقك بين الخليط الشطر ... وممن أقام من الحى هر
وهر تصيد قلوب الرجال ... وأفلت منها ابن عمر وحجر [(٩)]

فأنت تسمع هذا الكلام الذى لا يتناسب ولا يتواصل ولا يتقارب ولا يحصل منه معنى ولا فائدة سوى أن السامع يدرى أنه يذكر فرقة من أحباب لكن ذلك عن ترجمة معجمة مضطربة منقلبة ؛ سأل عن الخيام أمرخ هى أم عشر ؟

وليست الخيام مرخا ولا عشراً ، وإنما هما عودان . فإن أراد ( فى مكان هذين الخيام ) فقد نقض عمدة الكلام لأن مرخه وعشره أتى بهما نكرتين فأشكل ذلك ، وإنما يجوز لو جعلهما معرفة بالألف واللام ، والوزن لا يساعده على ذلك ثم قال : ـ

أم القلب فى إثرهم منحدر .

وليس هذا السؤال من السؤال الأول فى شىء إلا من بعد بعيد واحتيال شديد ، وقال بعد هذا : ـ

---

(٩) قبل هذه الأبيات : —

تروح من الحى أم تبتكر ... وماذا عليك بأن تنتظر

والمرخ شجر قصار تنبت بنجد . والعشر شجر طوال تنبت بالغور يقول : أنزلوا نجداً الذى من نباته المرخ ؟ أم الغور الذى من نباته العشر يعنى أهم متجدون أم متغورون ؟؟ والشطرة : — جمع شطير وهو القريب ، ولقد كانت الأعراب تعمل خيامها من نبات الأرض التى تنزلها فاذا رحلوا تركوه واستأنفوا غيره من شجر البلد الذى حلوا به .

وشاقك بين الخليط الشطر وممن أقام من الحى هر

فأتى بكثير كلام لا يفيد إلا قليل معنى ، وذلك القليل لا غريب ولا عجيب وهو كله ذكر فراق ثم رجع إلى أن هرا مقيمة تصيد قلبه وقلب غيره ، فأبطل بإقامتها كل ما قال من أخبار الفراق ونقضه وجعل بكاءه المتقدم لغير شىء ثم قال : —

وأفلت منها ابن عمر وحجر

فحسن عنده أن يخبر أن الناس قد صادت هر قلوب جميعهم إلا قلب حجر أبيه ، وهذا من الأحاديث الركيكة ،والأخبار التى ما بأحد حاجة إليها، ومع هذا فقد أورد أصحاب الأخبار أن هرا هذه كانت زوجة أبيه حجر ، فانظر ما فى جملة هذه الأبيات من الركاكات وقلة الإفادات فإنها لاتفيد قلامة ولاتهز ثمامة ، ولسنا ننكر بهذه العيوب ونزارتها ما أقرر ناله به من الفضائل وندراتها [١٠] .

---

(١٠) جاء فى أساس البلاغة مادة ثم : كنا أهل ثمه ورمه أى أهل إصلاح شانه والاهتمام بأمره ، وثم الشىء يثمه أى جمعه وأصلحه ، وفلان لايملك ثما ولارما أى لايملك شيئا ولايصلح لشىء ، وجاء فى كتاب العمدة لابن رشيق : —

وقد يأتى القدماء من الاستعارات باشياء يجتنبها المحدثون ريستهجنونها ويعافون أمثالها ظرفا ولطافة وإن لم تكن فاسدة ولامستحيلة فمنها قول امرىء القيس : —

وهر تصيد قلوب الرجال ∴ وأفلت منها ابن عمرو حجر

فكان لفظة «هر» واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة ،ولو أن أباه حجرا من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الاسف ، وأين هذه الاستعارة من أستعاره زهير حين قال يمدح

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما ∴ كذب الليث عن أقرانه صدقا

لاعلى أن امرأ القيس أتى بالخطأ من جهته ولكن للكلام قرائن تحسنه وقرائن تقبحه كذكر الصيدفى هذين البيتين .

وانظرا العمدة حـ ١ ص ٢٧١ .

وابن شرف بهذا ناقد محايد يذكر الحسنات ويذكر السيئات فهو ينظر إلى الأديب جملة ويرى نواحية مجتمعة ،لا تقعد به سيئاته عن ذكر حسناته ولا تشغله حسناته عن ذكر سيئاته وهذا هو النقد الجملى ، ليكن هذا الأديب أمير شعراء الجاهلية أو ليكن زهير بن أبي سلمى وهما قمة القدماء فالمسألة ليست مسألة قدم أوحداثة وإنما المسألة مسألة جودة أو رداءة بصرف النظر عن إطارها الزمنى ، وليس لهذا الإطار اعتبار فى النقد الأدبى إلا بمقدار مراعاته فى الصورة التى احتواها وملأناه بها، إذا ناسبت هذه الصورة إطارهاولاءمته وانسجمت معه كانت جيدة وإن جاء الأمر على عكس ذلك كانت رديئة ،أما القدم المطلق وأما الحداثه المطلقة فليست معنا فى حكمنا على القديم ، وليست معنا فى حكمنا على الحديث وإذا كان ابن شرف قد تعقب امرأ القيس وزهيرا فلكى يثبت أن القديم لا يعتصم بقدمه عن الخطأ وأن الحديث لا يخطىء لمجرد أنه جديت ، فالخطأ جائز على سائر البشر ، ولندعه هو يتكلم قال :— «وفضلاء الشعراء كثيرون جداً ولكل سقطات وسأقفك على بعضها لعظيم المؤونة فى الإحاطة بها ، ليس إلا لأوضح بذكرها منهجا من مناهج النقد لاحرصا على بغض الفصحاء ولاقصداً إلى تهجين الصرحاء وأية رغبـــة لنا فى ذلك وهم جرثومة فروعنا ، وبهم افتخار جميعنا » .

فهو صاحب قضية يبرهن عليها وليس موتوراً يتشفى وبعبارة علمية : هو ينقد نقداً موضوعياً .

* * *

ولما كان الكلام فى القدماء والمحدثين كلاماً فى الشعراء وليس فى الشعر، والواجب من وجهة نظر النقد الفنى أن يكون العكس ، فقد نزل ابن شرف على مقتضى الواجب وتكلم عن عيوب الشعر وهى كثيرة منها :

١ — اللحن الذى لا تسعه فسحة العربية كقول الفرزدق :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع

من المال إلا مسحتا أو مجلف[١١]

فرفع ( مجلف ) وحقه النصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وكقول جرير الخطفى :

ولو ولدت فقيرة جر وكلب

لسب بذلك الجرو الكلابا

فنصب الكلابا بغير ناصب ، وقد تحيل أيضاً بعض النحويين على وجهٍ الإقفاء أحسن منه فاحذر هذا ومثله وإياك وما يعتذر منه يفسيح من العذر فكيف بضيق ضنك .

٢ — خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دبيت على العصا

هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

وهذا البيت فى قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفصحها فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة .

٣ — تعقيد الكلام بتقديم آخره وتأخير أوله كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا

أبو أمه حى أبوه يقاربه

---

(١١) سحت شعره : أستاصله وجلف ظفره : استاصله وجلفت السنون أموالهم : أستاصلتها واتت عليها ولم تبق منها الا الحقير التافه .

٤ — الكسر ، لأنه يخرجه عن نعته شعراً وليس مما يقع لمن نعت بشاعر، فأما الإقواء ، والإبطاء والسناد، والإكفاء ، والزحاف، وصرف مالا ينصرف فكل ذلك يستعمل إلا أن السالم من جميع ذلك أجمل وأفضل .

٥ — مجاورة الكلمة مالا يناسبها ولايقاربها مثل قول الكميت :
خود تكامل فيها الدل والشنب(١٢) .

وكما قال بعض المتأخرين فى رثاء :

فإنك غيبت فى حفرة تراكم فيها نعيم وحور

وإن كان النعيم والحور من مواهب أهل الجنة فليس بينهما فى النفوس تقارب ، ولا لفظ ( تراكم ) مما يجمع بين الحور والنعيم ومثله قول بعضهم :

والله لولا أن يقال تغيراً وصبا وإن كان التصابى أجدرا
لأعاد تفاح الخدود بنفسجاً لثمى ، وكافور الترائب عنبرا

فالتفاح ليس من جنس البنفسج ، لأن التفاح ثمرة ، والبنفسج زهرة وقد أجاد فى جمعه بين الكافور والعنبر لأنهما من قبيل واحد ولو قال :

لأعاد ورد الوجنتين بنفسجاً
لثمى وكافور الترائب عنبرا

لأجاد الوصف وأحسن الرصف لكون الورد من قبيل البنفسج فهذا النوع فافتقد وهذا الشرع فاعتمد .

* * *

وإذا كانت العيوب السابقة مشتركة بين الشعراء محدثين وقدماء فإن

(١٢) الخود : الشابة الناعمة ، والشنب وصف للثغر وهو رقته وصفاؤه • وبرده .

لفضلاء المولدين سقطات مختلفات فى أشعارهم يذكر ابن شرف بعضها لنجتنبها لا لطلب الزلات ولا لاقتفاء العثرات فمن ذلك :

٦ — تباين شعر الشاعر جودة ورداءة .

كان بشار تتباين طبقات شعره فيصعد كثيرها ويهبط قليلها ، وكذلك كان حبيب بن أوس الطائى ، فإذا سمعت جيدهما كذبت أن رديهما لهما ، وإذا صح عندك أن ذلك الردىء لهما أقسمت أن جيدهما لغيرهما .

٧ — الافتتاحات الثقيلة مثل قول حبيب أول قصيدة :

هن عوادى يوسف وصواحبه
فعزما فقدما أدرك الشأو طالبه

ومثل قول ديك الجن أول قصيدة :

كأنه ياكأنه خلل الحلة وقف الهلوك إذ بغما

فابتدأ هو وحبيب بمضمرات على غير مظهرات قبلها وهو ردىء[١٣] .

٨ — الكلام المضاد للغرض كابتداء قصيدة أبى نواس التى أنشدها الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى يهنيه ببنيانه الدار الجديدة فدخل إليه عند كمالها وقد جلس للهناء والدعاء وعنده وجوه الناس فأنشده :

أربع البلى إن الخشوع لباد
عليك وإنى لم أخنك ودادى

فتطير الفضل من ذلك ونكس رأسه وتناظر الناس بعضهم إلى بعض ثم تمادى فختم الشعر بقوله :

---

(١٣) الهلوك : الفاجرة والجمع الهلك
وقوم هلاك : صعاليك سيئو الحال ،
وأمرأة بغوم : رخيمة الصوت وباغمها غازلها بكلام رقيق وكانت بيننا مباغمة اى ملاغة

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم
بنى برمك من رائحين وغادى

فكمل جهله وتم خطؤه وزاد القلوب المتوقعة للخطوب سرعة توقع وأضاف للنفوس المتوجعة بذكر الموت شدة توجع وأراد أن يمدح فهجا ودخل ليسر فشجا .

٩ — القافية المعجمة التى لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وإنما هى مفردة لحشو القافية كقول بعضهم :

فبلغت المنى برغم أعاديك وأبقاك سالماً رب هود .

فأنت ترى غثاثة هذه القافية والله تعالى رب جميع الخلق وكل شىء فخص هودا عليه السلام وحده لضعف نقده وعجزه عن الإتيان بقافية تليق وتحسن .

١٠ — جفاء الحبيب فى النسيب والتضجر ببعده وغلظة العتاب على صده كقول أبى نواس :

أجارة بيتينا أبوك غيور
وميسور ما يرجى لديك عسير
فإن كنت لا خلا ولا أنت زوجة
فلا برحت منا عليك ستور
وجاورت قوماً لا تزاور بينهم
ولا قرب إلا أن يكون نشور

فلم أسمع بأوحش من هذا النسيب ولا أخشن من هذا التشبيب وذلك قوله :

إن لم تكونى لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور للتراب عليك

ولا كان جارك ما عشنا نحن إلا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون إلى يوم النشور ، على أن كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وإنما المعروف فى أهل الرقة والظرف والمعهود من أهل الوفاء والعطف أن يفدوا أحبابهم بالنفوس من كل مكروه وبوس فأين ذهبت ولادته البصرية وآدابه البغدادية حتى اختار الغدر على الوفاء ، وبلغت به طباعه على إجفاء الجفاء فاعلم هذا ، وإياك أن تعمل به .

١١ — ومن عيوب الشعر السرق وهو كثير الأجناس فى شعر الناس ، فمنها سرقة ألفاظ ومنها سرقة معان .

وسرقة المعانى أكثر لأنها أخفى من الألفاظ ، ومنها سرقة المعنى كله ومنها سرقة البعض ، ومنها مسروق باختصار فى اللفظ وزيادة فى المعنى وهو أحسن المسروقات ومنها مسروق بزيادة ألفاظ وقصور عن المعنى وهو أقبحها ، ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص والفضل فى ذلك للمسروق منه ولا شىء للسارق كسرقة أبى نواس معنى أبى الشيص بكماله . قال أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
متأخر عنه ولا متقدم

فسرقه الحسن بكماله فقال :

فما جازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير

فهذا هذا على أن بيت أبى الشيص أحلى وأطبع ومع حلاوته جزالة ، وقد ذكر عن الحسن أنه قال : ما زلت أحسد أبا الشيص على هذا البيت حتى أخذته منه ، وسرقة المعاصر سقوط همة .

* * *

وقد جرت عادة بعض النقاد على الكلام عن توارد الخواطر بين الشاعر والشاعر فى باب السرقات الأدبية ولكن ابن شرف لم يفعل ذلك ،وقد أنصف فتوارد الخواطر ليس من السرقات الأدبيـة حتى عند من درسوه تحت هذا العنوان ، ونجد له فى كتابه « أبكار الأفكار » عبارة ذكية تبرر هذا التوارد قال :

استدعانى المعز بن باديس يوما واستدعى أبا على الحسن ابن رشيق الأزدى وكنا شاعرى حضرته وملازمى ديوانه فقال : أحب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى صفة الموز على قافية الغين فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الذى صنعته : —

يا حبذا الموز وإسعاده     من قبل أن يمضغه الماضغ
قد لان حتى لا مجس له     فالفم ملآن به فارغ
سيان قلنا مأكل طيب     فيه وإلا مشرب سائغ

والذى صنعه ابن رشيق : —

موز سريع أكله     من قبل مضغ الماضغ
فمأكل لآكل     ومشرب لسائغ
فالفم من لين به     ملآن مثل فارغ
يخال وهو بالغ     للحلق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال فعملنا ولم ير أحدنا صاحبه ما عمل ، فكان ما عملته : —

هل لك فى موز إذا     ذقناه قلنا حبذا
فيه شراب وغذا     يريك كالماء القذى

لو مات من تلذذا به لقيل ذا بذا

وما عمله ابن رشيق : —

لك موز لذيذ يعيذه المستعيذ
فواكه وشراب به يداوى الوقيذ
ترى القذى العين فيه كما يريها النبيذ

قال ابن شرف : فأنت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحداً ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : —

ما ندرى مم نعجب . أمن سرعة البديهة أم من غرابة القافية أم من حسن الاتفاق ،

والحقيقة أن العجب من كل ذلك .

ولنضف إلى السببين اللذين ذكرهما ابن شرف سبباً ثالثاً هو اتفاق المناخ بنوعية الثقافى والجغرافى .

١٢ — عيوب دقيقة وقد اقتصر فى التمثيل لها على أبى الطيب قال : —

ومما يقع فى عيوب الشعر ويغفل الشاعر عنه لصغر جرم العيب وسلامة اللفظ الذى احتبى فيه ثم يكون ذلك سبب غفلة النقاد أيضاً عنه مثل قول المتنبى : —

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا .

وضع هذا الكلام على أنه إنما شكا داءه ووصفه بالعظم ،فعادشاكيا نفسه وجعلها أعظم الداء لأنه أراد : كفى بدائك داء فغلط وقال : كفى بك داء فصار كفى بالسلامةداء ،فالسلامة هى الداء،وقال الله تعالى «وكفى بناحاسبين» فالله هو أعظم شهيد فجعل المتنبى نفسه أعظم الداء ولم يرد إلا استعظام دائه .

وإصلاح هذا الفساد وبلوغه إلى المراد أن يقول : —

كفى بالمنايا أن تكن أمانيا : وحسبك داء أن ترى الموت شافيا

فيعود الداء المستعظم كما أراد وتزول خشونة ابتدائه وشدة جفائه إذ خاطب الممدوح بالكاف فجعله داء عظيما فى أول كلمة سمعها منه ، وقد تأدب خواص الناس وكثير من عوامهم فى مثال هذا المكان ، فهم يقولون عند مخاطبات بعضهم بعضاً بما يخشن ذكره . قلت للأبعد ، ويا كذا أو كذا للأبعد .

ومثله قوله يرثى أخت سيف الدولة .

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب

كناية بهما عن أشرف النسب

فجعل « يا أخت خير » و « يا بنت خير » كناية عن أشرف النسب ، والكناية لا تكون إلا لعلل تتسع فيها التهم لأن الكناية ستر وتعمية فما بال شرف النسب يورى عنه تورية المعايب ، ويكنى عنه والتصريح به من المفاخر والمناقب ، وقد غفل عن إصلاح هذا بلفظ فصيح ومعنى صحيح قد كاد يبرز من الجنان إلى طرف اللسان وهو لو فطن إليه .

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب

غنى بهذا وذا عن أشرف النسب

* * *

بهذا نصل إلى نهاية هذه المقامة ، وقد ختمها ابن شرف بقوله . وهذه الجملة التى أثبت لك فيها ما دخل على الشعراء المجيدين من التقصير والغفلة والغلط وغير ذلك كافية ومغنية عن إيراد سوى ذلك ، وإن لقيتها بجودة بحث وصحة قياس لم تحتج إلى كشف عيوب أشعار الناس ولعل قائلا يقول . مال على هؤلاء وترك سواهم لميله على من بكت ولتفضيله من عنه سكت ، فقل لمن

قال ذلك : — الأمر على خلاف ما ظننت ، لم أذكر إلا الأفضل فالأفضل والأشهر فالأشهر إذ كانت أشعارهم هى المروية ، فالحجة بهم وعليهم هى القوية، فقد نقلته على من ميلى عليهم إلى ميلى بالحق إليهم .

قال أبو الريان فأما نقد المستحسن فتمثيله لك يعظم ويتسع لكثرته فلا يسعنا إيراده ، ولكن ما سلم من جميع ما أوردناه فهو فى حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، وأحسن منه ما اعتدل مبناه وأغرب معناه وزاد فى محمودات الشعر على سواه . ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه إلى حيز السلامة ثم لا مدح ولا كرامة .

قال محمد : فقلت : لله درك يا أبا الريان فما ألين جانبك وما أقرب غائبك وما ألحح طالبك وما أسعد صاحبك فقال . أنجح الله مطالبك ، وقضى مآربك وصفى من القذى مشاربك وبث فى الحواضر والبوادى مناقبك .

• • •

بهذا تنتهى رسائل أو « مسائل » الانتقاد كما حققها المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب وضمنها الأستاذ محمد كرد على الطبعة الثانية من «رسائل البلغاء».

أما طبعة الخانجى ففيها مقامة ثالثة أو مجلس ثالث عبارة عن مختارات شعرية . والناشر ( عبد العزيز أمين الخانجى ) يطمئننا إلى أن هذه الزيادة إنما هى من الأصل المعتمد الذى ينقل عنه(١٤) قال : « قال محمد : وطلبتنى نفسى بمعرفة مذهب أبى الريان فى اختيار الشعر واغتنمت جوده بما أردته ووجوده متى طلبته فقلت له يوما : — يا أبا الريان : أبت نفسى إلا أن ترتوى من مائك ، وإلا أن تسام من طيب غذائك، وقد دلنى لين جانبك عليك وسهل على مباحثتك يسر الأشياء لديك فتبسم ثم قال : ما الفن الذى تريد ؟ ومن أى صنف تستزيد

(١٤) أعلام الكلام ص ٤٦ .

قلت . اقتراحى على فهمك وكرمك أن تنشدنى ولا تمل وتملى على ولا تكل من مستحسن الأشعار عندك ما أجمع بين ميزك فيه ونقدك على الاختيار . قال نعم ونعما . أنشدك ما حضرنى ولعله يجذب ما نافرنى فإنى رأيت الشىء بالشىء يذكر ، ولا تخلنى أقدم الأجود فالأجود ، لكنى أقدم ما اعتفانى وأؤخر ما عفانى وسأبدأ بالأبيات المفردات والمزدوجات ، وأؤخر القطع العشريات والقصائد المعربات فقد رويت منها ما استغربت معناه واستطرفت مغزاه فقلت . هات لا فض فوك ولا انفض معتفوك ، فقال . خذ الأشعار الحكمية والأبيات المثلية وأنشدنى : —

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

* * *

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

* * *

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب ؟

* * *

وجملة ما أملاه عليه ثلاثة عشر ومائة بيت ، منها أربعة عشر بيتاً فى الحكم ، وثلاثة وعشرون فى الغزل ، وثلاثون فى الرثاء وست وأربعون فى المديح . ولم ينسب منها إلى أصحابها إلا رثاء قتيلة بنت النضر بن الحارث لأبيها ، ولما انتقل إلى المدح لم يزد على أن قال : « ويعجبنى من المدح » . وهو آخر الأغراض وقد ختمه بهذه الأبيات : —

قوم بلوغ الغلام عندهم طعن نحور الكماة لا الحلم
إذا تولوا أعداءهم كشفوا وإن تولوا صنيعهم كتموا
تظن من فقدك اعتذارهم أنهم أنعموا وما علموا

أعيذهم من صروف دهرهم فإنه فى الكرام متهم[١٥]

وكل ما أملاه أبو الريان من شعر لم يسبقه ولم يلحقه كما لم يتخلله نقد ، وكان يمكن لهذا أن نهمله لكنا آثرنا هذه الإيماءة إليه تتميماً للفائدة، فهو يعطى الوجه الآخر للمسألة أقصد ، أنه إذا كانت المقامة السابقة وهى المقامة الثانية قد اشتملت على شعر ردىء فإن المقامة اللاحقة وهى هذه المقامة قد اشتملت على شعر جيد والوجهان : الاستقباح والاستحسان يمثلان وجهة نظر ناقد مغربى فذ هو ابن شرف .

(١٥) أعلام الكلام ص ٤٧ — ٥٠٤

— ٦ —

# ( حازم القرطاجنى )*

هو أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن الأوسى . ولد سنة ٦٠٨هـ فى مرسى قرطاجنة الواقع بالجنوب الشرقى من بلاد الأندلس قرب مرسية ، وقد اشتهر بنسبته إلى مسقط رأسه فعرف بالقرطاجنى . نشأ حازم فى هذا المرفأ ، وبه حفظ القرآن الكريم وجوده وفقه قراءاته ولما أيفع أقبل مثل معاصريه على دراسة العلوم الشرعية واللغوية وكان ذلك يدعوه إلى التردد باستمرار على مدينة مرسية القريبة منه للأخذ عن أشياخها ، وهناك درس كثيراً من أمهات الكتب حتى فاق نظراءه واكتملت عناصر ثقافته فكان فقيها مالكيا كوالده ، نحويا بصريا كعامة علماء الأندلس ، حافظا للحديث راوية للأخبار والأدب شاعراً ، ولم تقف به همته عند هذا الحد بل كان طموحه يدفعه إلى الاستزادة من البحث والدرس والأخذ عن الأعلام المعروفين المقيمين بجنوبى الجزيرة وقد ذهب لهذا إلى غرناطة وأشبيلية فجمع من الأسانيد والإجازات ما جمع واتصل آخر الأمر بشيخه الجليل

---

(*) ترجم له ابن سعيد فى القدح المعلى ٢٠ — ٢١ والسيوطى فى بغية الوعاة ٢١٤ وهو ينقل عن أبى حيان وعن رحلة ابن رشيد ، ونقل المقرى ما أورده السيوطى فى أزهار الرياض ٣ — ١٧٢ وزاد عليه نقولا من مصادر أخرى ، وأورد له أشعارا فى النفح ٣ : ٣٤١ — ٣٤٦ وذكره ابن العماد فى شذرات الذهب ٥ : ٣٨٧ وبروكلمان فى الجزء الأول من تاريخه ٣١٧ وتكملته ١ — ٤٧٤ ومحمد الحبيب الخوجه فى مدخله إلى منهاج البلغاء ص ٥٢ — ٧١ والدكتور محمد رضوان الداية فى تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ص ٤٧١ وتناول الدكتور محمد مهدى علام مقصورته فى حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس جـ ١ ١ — ٣١ ، جـ ٢ : ١ — ١١٠ سنتى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ والأستاذ غرسيه غوس فى المجلد الاول من مجلة الأندلس : ٧١ — ١٠٤ والدكتور عبده قلقيلة فى كتابه « النقد الادبى فى العصر المملوكى ص ٦٣ — ٧١ والدكتور محمد شكرى عياد فى كتابه ارسطو طاليس فى الشعر » ص ٢٤١ — ٢٤٢ والاستاذ عثمان الكعاك فى تقديمه لديوان حازم وهو العدد رقم ٩ من سلسلة المكتبة الاندلسية .

أبى على الشلوبين عمدة الحديث والعربية ، وقد لاحظ هذا الإمام فى مريده شيئاً من الاستعداد للأخذ بالعلوم العقلية فنصحه بالعكوف عليها ووجهه إلى دراسة المنطق والخطابة والشعر ، ولما كان حازم معجباً بأستاذه ومكبراً له فقد أقبل على مطالعة ما أشار عليه به .

وقد تعرضت حياته لأحداث أليمة ، ففى سنة ٦٣٣ هـ سقطت قرطبة فى يد فردناند الثالث وتوالت بعدها مدن بياسة سنة ٦٣٤هـ وبلنسية سنة ٦٣٦ وشاطبة ودانية سنة ٦٣٨ هـ ، وكان لسقوط هذه القواعد والمدن وبخاصة قرطبة من النتائج ما حمل كثيراً من أسر العلم والأدب على الهجرة ، وقد اضطر حازم ككثير من مواطنيه إلى مفارقه وطنه ومسقط رأسه فهاجر إلى المغرب ويظهر أن الحياة فيها لم ترق له ، فعلى الرغم من حسن وفادة الموحدين للمهاجرين الأندلسين بعامة ولحازم بخاصة لملازمته بلاط الرشيد بن المأمون منشداً إياه بديع مدائحه نجده يتحول إلى تونس فنحن نراه فى بلاط أميرها الحفصى أبى زكرياء الأول ينشده قصيدته الصادية الطويلة التى أعلن فيها بيعته وطلب حمايته واستصرخه لإنقاذ الأندلس المنكوبة المغلوبة ، وقد احتل فى تونس نفس المكانة المرموقة التى كان يتمتع بها فى مراكش بسبب ارتياح أبى زكريا وابنه المستنصر إليه وتقديرهما لمواهبه وقد جعله المستنصر موضع ثقته وأدخله فى ديوان الإنشاء وكلفه بالنظر فى الكتب التى كانت ترفع إلى سدته ، ففى ترجمة الفقيه النحوى أبى جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى أنه ألف كتاباً باسم « وشى الحلل » شرح فيه أبيات الجمل ، ورفعه للملك المستنصر الحفصى ، فدفعه المستنصر للاستاذ أبى الحسن حازم وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجده فحكى أبو عبد الله القطان المسفر — وكان يخدم حازماً — قال : كنت بدار أبى الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب ، فسمعت

نقراً على الباب فخرجت فإذا بالفقيه أبى جعفر فرجعت وأخبرت أبا الحسن فقام مبادراً حتى أدخله وبالغ فى بره وإكرامه فرأى الكتاب بين يديه فقال له : يا أبا الحسن قال الشاعر : —

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

فقال له يافقيه أبا جعفر أنت سيدى وأخى، ولكن هذا أمر الملك لايمكن فيه إلا قول الحق ، والعلم لا يحتمل المداهنة فقال له : فأخبرنى بما عثرت عليه . قال له نعم ، فأظهر له مواضع فسلمها أبو جعفر وبشرها وأصلحها بخطه[1] » .

ويبدو حازم هنا وقد تبوأ مكانة علمية مرموقة هيأت له أن يحكم على إنتاج معاصريه مفوضاً من السلطان، وملتزماً بما يراه هو من المقاييس النقدية ، وبهذا كانت حياته حافلة بالنشاط الفكرى فى كثير من فروع المعرفة وبخاصة علوم البلاغة والنقد الأدبى والعربية والعروض والقافية ، فسار ذكره فى الآفاق ووصلته من المشرق إجازات عدة مثل إجازة ابن العمادية الذى نوه بشأنه ووصفه بأنه صدر الأفاضل والإمام السيد[2] .

وتخرج على يديه كثيرون منهم أبو حيان الأندلسى وابن سعيد وابن رشيد وأبو الحسن التجانى وأبو الفضل التجانى والكتانى وابن عصفور وابن راشد القفصى وابن القوبع الذى يشهد بأن فضل تكونه فى علم البلاغة راجع إلى كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم ، وغير هؤلاء كانت هناك جماعات

---

(١) ــ نفح الطيب للمقرى حـ ٢ ص ٤٠٧ وانظر تاريخ النقد الأدبى فى الاندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص ٤٧٤ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ ومجلة الفكر التونسية عدد يناير سنة ١٩٦٧ .

(٢) ابن العمادية هو أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سالم بن منصور بن الفتوح الهمذانى المعروف بابن العمادية الأسكندرى محدث ولد سنة ٦٠٧ وتوفى سنة ٦٧٣ هـ .

اعترفت من فيض علمه بالوقوف على آثاره ومطالعة كتبه . وقد توفى رحمه الله ليلة السبت ٢٤ من رمضان سنة ٦٨٤ هـ(٣) .

ويمثل حازم حلقة هامة فى سلسلة النقد الأدبى بالمغرب العربى بل فى سلسلة النقد العربى كله بكتابه « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » وقد كانت مخطوطته الوحيدة موجودة بالعبدلية فى جامع الزيتونة بتونس تحت رقم ٢٨٠٤ ثم حولت إلى المكتبة الجامعية بها(٤) ويوجد منها مصورة شمسية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٣٣١ فى مجلدين المجلد الأول به تسع عشرة لوحة والمجلد الثانى به اثنتان وستون ومائة لوحة ، وقد ظل الكتاب مخطوطاً بتونس ومصوراً بالقاهرة إلى أن طبعه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة فى دار الكتب الشرقية بتونس سنة ١٩٦٦ بعد أن نال بتحقيقه له درجة الدكتوراه من جامعة باريس سنة ١٩٦٤، وليس للكتاب أول ولا آخر ، فهو ضائع الطرفين ويقع المطبوع منه فى ثمانين وثلاثمائة صفحة ، وكان الأمير قد ذكر فى حاشيته على المغنى لابن هشام أن منهاج البلغاء يقع فى ستة أجزاء(٥) .

والورقة الأولى من المطبوع لا تمثل أول الكتاب ، والعنوان الموجود بها هو عنوان القسم الثانى منه أما القسم الأول فضائع وفى كلام حازم بعد ذلك ما يدل على أنه تناول فيه القول وأجزاءه والأداء وطرقه والأثر الذى يحصل للسامعين عند سماع الكلام والورقة الأخيرة كذلك لا تمثل آخر الكتاب لكنها توحى بقرب الفراغ منه فهى تتضمن المعرف ( د ) من المنهج الرابع وعنوانه « معرف دال على طرق المعرفة بمبلغ هذا الكتاب من أصول الصناعة » والأسطر القليلة التى تلته تشعر بأن ما بقى من الكتاب قليل يتم

---

(٣) مدخل المحقق الى كتاب المنهاج ص ٤٥ — ٧١ .

(٤) مدخل المحقق ض ٨٩ .

(٥) حاشية الأمير على مغنى اللبيب ج ١ ص ٧٥ .

فيه تصوير الغرض منه بما يشبه أن يكون تقريظاً له أما ما بقى من الكتاب وهو المطبوع فيتكون من ثلاثة أقسام هى الثانى والثالث والربع فى المعانى والمبانى والأسلوب على التوالى . وكل قسم من هذه الأقسام عبارة عن أربعة أبواب أطلق حازم على كل واحد منها اسم منهج ثم جعل المناهج أو الأبواب متألفة من فصول دعاها على التعاقب بمعلم أو معرف وهو يتبعها غالباً بملاحظات بلاغية أو نقدية يجمعها فى فصول ختامية يعنون لها بمأم أو مآم، هذا وقد جعل فقر المنهاج متمايزة عن بعضها وعنونها بلفظين على التعاقب هما: إضاءة وتنوير. والموضوعات النقدية فى منهاج البلغاء كثيرة منها : —

١ — خصائص الشعر ، وضرورة الصدور فيه عن طبع وتعلم[٦] .

٢ — المعنى واللفظ[٧] .

٣ — التأثرية[٨] .

٤ — مقومات الشخصية الأدبية وهى الطبع والذكاء والثقافة والدربة[٩] .

٥ — الفرق بين القاعدة العلمية والقاعدة الفنية[١٠] .

٦ — الصدق والاختلاق فى الأدب[١١] .

٧ — العلاقة بين موسيقى الشعر وموضوعه[١٢] .

---

(٦) منهاج البلغاء صفحات ١٠ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٧) منهاج البلغاء صفحات ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٩٢

(٨) منهاج البلغاء صفحات ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٠٢١ ، ١٢٢

(٩) منهاج البلغاء صفحات ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١١١ .

(١٠) منهاج البلغاء ص ٨٢

(١١) منهاج البلغاء صفحات ٧١ ، ٧٢ . ١٣٣ ، ١٤٥ .

(١٢) منهاج الغلفاء صفحات ٢٦٦ — ٢٧١ .

٨ — التعويل فى إصدار الأحكام الأدبية على المتخصصين فى النقد إذ لا معرج على ما يقوله فى الشىء من لا يعرفه ولا التفات إلى رأيه فيه ، وقد نعى على المتكلمين الذين إذا فرق أحدهم بين التجنيس والترديد وماز الاستعارة من الإرداف ظن أنه حصل على شىء من هذا العلم فأخذ يتكلم فى الفصاحة بما هو محض الجهل بها .

وإن كلام المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وهو يتعجب ممن يظن أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها فى الزمن القريب وهى البحر الذى لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها ، وإنما يبلغ الإنسان منها ما فى قوته أن يبلغه[١٣] .

٩ — مقياس جودة الشعر ومقياس رداءته .

وأفضل الشعر عنده ما حسنت محاكاته وهيئته وقويت شهرته أو صدقه أو خفى كذبه وقامت غرابته .

وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة واضح الكذب خلياً من الغرابة ، وما أجدر ما كان بهذه الصفة ألا يسمى شعراً وإن كان موزوناً مقفى إذ المقصود بالشعر معدوم منه[١٤] .

١٠ — الاعتدال فى استعمال البديع[١٥] .

١١ — ميله إلى الأمر الوسط فى الأدب ، وهو يعلل هذا الميل بقوله :—

إن الكلام إذا خف واعتدل حسن موقعه من النفس ، وإذا طال وثقل

---

(١٣) منهاج البلغاء ص ٨٧ — ٨٨ .

(١٤) منهاج البلغاء ص ٧٢ — ٧٣ .

(١٥) منهاج البلغاء ص ٦٥ ، ٣٨١ .

اشتدت كراهة النفس له، ويقصر إحدى إضاءاته على هذا المقياس النقدى قائلا: —

وليس يحمد فى الكلام أن يكون من الخفة بحيث يوجد فيه طيش ولا من القصر بحيث يوجد فيه انبتار، ولكن المحمود من ذلك ماله حظ من الرصانة لا تبلغ حد الاستثقال وقسط من الكمال لا يبلغ به إلى الإسام والإضجار، فإن الكلام المتقطع الأجزاء المنبتر التراكيب غير ملذوذ ولا مستحلى وهو شبه الرشفات المتقطعة التى لا تروى غليلا، والكلام المتناهى الطول يشبه استقصاء الجرع المؤدى إلى الغصص فلا شفاء مع التقطيع المخل ولا راحة مع التطويل الممل ولكن خير الأمور أوسطها[١٦].

١٢ — التحجيل: — وبيانه أنه إذا كان التخييل هو قوام المعانى الشعرية فإن الإقناع هو قوام المعانى الخطابية، واستعمال الإقناعات فى الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع فى الموضع بعد الموضع.

كما أن التخاييل سائغ استعمالها فى الأقاويل الخطابية فى الموضع بعد الموضع وإنما ساغ ذلك لأن النفوس تحب الافتنان فى مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة من بعض ذلك والفن المراوح بين معانيه أفضل من الفن الذى لامراوحة فيه، لكن ينبغى أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة فى الشعر تابعة للأقاويل المخيلة ومؤكدة لها فيما قصد بها من الأغراض وأن تكون المخيلة هى العمدة وكذلك الخطابة ينبغى أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة للاقاويل المقنعة ومؤكدة لمعانيها ومناسبة لها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هى العمدة[١٧]

وقد كان المتنبى يحسن وضع البيت الإقناعى بين الأبيات المخيلة لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيلة ثم يختمها ببيت إقناعى يعضد به ما تقدم من

---

(١٦) منهاج البلغاء ص ٦٥ .
(١٧) منهاج البلغاء ص٣٦١ — ٣٦٢ .

التخييل ويجم النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة فى الفصل التالى، فكان لشعره أحسن موقع من النفوس ، ويجب أن يعتمد مذهبه فى ذلك فإنه حسن [(١٨)] .
وإذا ذيلت أواخر الفصول بالأبيات الحكمية واتضحت شيات المعانى التى بهذه الصفة على أعقابها فكان لها بمنزلة التحجيل، زادت الفصول بذلك بهاء وحسنا ووقعت من النفوس أحسن موقع إذ فى ورود البيت الحكمى إثر المعانى المخيلة إنجاد للمعانى المخيلة وإعانة لها على ما يراد من تأثر النفوس بها [(١٩)] .

. . .

ويحسن التنبيه إلى أن هذه الأبيات الحكمية أو ما جعله حازم بمنزلة التحجيل هو ما سماه رشيد الدين الوطواط بإرسال المثل وإرسال المثلين والكلام الجامع. يقول الوطواط فى إرسال المثل : — ويكون ذلك بأن يذكر الشاعر مثلا فى بيته ، ويقول فى إرسال المثلين : وتكون هذه الصنعة بأن يذكر الشاعر مثلين فى بيت واحد، أما الكلام الجامع فيتحقق بألا يترك الشاعر أبياته خلواً من الحكمة والموعظة الحسنة [(٢٠)] .

* * *

ومهما يكن من موضوعات كتاب حازم فإن آراءه فى كل موضوع على حدة هى التى تعطى القيمة الحقيقية له ولكتابه ، ويعتبر الزركشى منهاج البلغاء لحازم ومقدمة التفسير لابن النقيب أجمع وأتم ما صنف العلماء فى علمى البيان والبديع [(٢١)] ويرى غيره أن كتاب حازم يفوق كل الكتب السابقة فى هذا

---

(١٨) منهاج البلغاء ص ٢٩٣ .
(١٩) منهاج البلغاء ص ٣٠١ — ٣٠٢ .
(٢٠) حدائق السحر فى دقائق الشعر ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٦ .
(٢١) الزركشى هو بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى المصرى مؤلف كتاب «البرهان فى علوم القرآن» وابن النقيب هو شمس الدين محمد بن سليمان بن الحسن البلخى المقدسى الفقيه اللغوى ت سنة ٦٨٩ هـ

الفن للطريقة الحكمية المنطقية التى سلكها فى معالجة مسائله وقضاياه وللأسلوب الرصين المتزن الذى كتبه به .

وهذا الكلام حق فقد استدرك حازم بكتابه على جملة الكتب النقدية التى تقدمته وكان مدركا لعمله وقاصداً له بدليل قوله : —

« وقد تكلم الناس فى ضروب المطابقات وبسطوا القول فيها فلا معنى للإطالة إذ قصدنا أن نتخطى ظواهر هذه الصناعة وما فرغ الناس منه إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه »[٢٢] .

. . .

وإذا كان ابن الأثير قد رد بعنف آراء أرسطو التى تعرض ابن سيناء لشرحها فى الشفا وقرر أنه لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا ، وإذا كان قدامة قد حاول بمنتهى الحيطة والحذر أن يستلهم كتابى الخطابة والشعر فإن حازما قد جمع فى كتابه بين الأصول العربية والمبادىء الهيلينية ومزج نقد اليونان بنقد العرب .

ومن شعره وهو بسبيل مما عنى نفسه به فى كتابه قوله يصف الإيحاء الشعرى وهو غرض جديد فى الشعر العربى : —

بنت فكر لا نظير لها صاغها من لا نظير له
وأمد الله خاطره بهداه حين أعمله
فحباه الله إذ كملت ما حباه حين كمله
وعلى الأقوال فضلها من على الأقوام فضله

(٢٢) منهاج البلغاء ص ٥٠ .

وله فى نفس الغرض : —

ملأت لى من أبدع الحكم دلو آمالى إلى الوذم
بنت فكر قمت إذ قدمت لتلقيها على قدم
فارتوى منها على ظمأ خاطرى من مورد شبم
أصبحت أولى بما نسبت لى من الإحسان والكرم
دونكم ما قد تكلفه خاطر يشكو من السأم
من بوادى الشعر هام هوى ففؤادى فيه لم يهم
إن رسم الشعر فى خلدى طلل أقوى على القدم (٢٣)

---

(٢٣) ديوان حازم تحقيق عثمان الكعاك طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ ص ٩٧ ، ص ١١٢

# آراؤه النقدية

## — ١ —

لحازم في مقومات الشخصية الأدبية إضاءات فنية يدعو فيها إلى الطبع والذكاء والثقافة والدربة قال : - النظم صناعة آلتها الطبع ، والطبع هو استكمال للنفس فى فهم أسرار الكلام والبصيرة بالمذاهب والأغراض التى من شأن الكلام الشعرى أن ينحى به نحوها ، فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام بحسبه عملا ، وكان النفوذ فى مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه إنما يكونان بقوى فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء [٢٤] وقال : « وللأفكار تفاوت فى تصرفها فى ضروب المعانى وضروب تركيبها ويتقوى على ذلك بالطبع الفائق والفكر النافذ الناقد الرائق ، وبالمعرفة بجميع ما يحتاج إلى معرفته فى هذه الصناعة من حفظ الكلام والقوانين البلاغية ، ولابد من الذوق الصحيح المائز بين ما يناسب ومالا يناسب ، وما يصح ومالا يصح بالاستناد الى تلك القوانين على كل جهة من جهات الاعتبار فى ضروب التناسب وغير ذلك مما يقصد تحسين الكلام به [٢٥] . وقال : — ولما كان القول فى الشعر لايخلو من أن يكون وصفا أو تشبيبا أو حكمة أو تاريخا احتاج الشاعر أن تكون له معرفة بنعوت الأشياء التى من شأن الشعر أن يتعرض لوصفها ولمعرفة مجارى أمور الدنيا وأنحاء تصرف الأزمنة والأحوال ، وأن تكون له قوة ملاحظة

---

(٢٤) منهاج البلغاء ص ١١٩ .
(٢٥) منهاج البلغاء ص ٣٥ — ٣٦

لما يناسب الأشياء والقضايا الواقعة من أشياء أخر تشبهها وقضايا متقدمة تشبه تلك التى فى الحال [٢٦] .

. . .

وهو يشفع رأيه النظرى بدليله العملى فى قوله :ـ ولم تكن العرب تستغنى بصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معانى الكلام بالقوانين المصححة لها وجعلها ذلك علما تتدارسه فى أنديتها ويستدرك به بعضهم على بعض وتبصير بعضهم بعضا فى ذلك ، وقد نقل الرواة من ذلك الشيء الكثير لكنه مفرق فى الكتب لو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج منه علما كثيراً موافقا للقوانين التى وضعها البلغاء فى هذه الصناعة ، وكيف يظن ظان أن العرب على ما اختصت به من جودة الطباع لنشأتهم على الرياضة واستجداد المواضع وانتجاع الرياض العوازب كانت تستغنى فى قولها الشعر الذى هو بالحقيقة شعر ونظمها القصائد التى كانت تسميها أسماط الدهور عن التعليم والإرشاد إلى كيفيات المبانى التى يجب أن يوضع عليها الكلام والتعريف بأنحاء التصرف المستحسن فى جميع ذلك والتنبيه على الجهات التى منها يداخل الخلل المعانى ، ويقع الفساد فى تأليف الألفاظ ، وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة وتعلم منه قوانين النظم واستفاد عنه الدربة فى أنحاء التصاريف البلاغية فقد كان كثير أخذ الشعر عن جميل وأخذه جميل عن هدبة بن خشرم وأخذه هدبة عن بشر بن أبى خازم ، وكان الحطيئة قد أخذ علم الشعر عن زهير وأخذه زهير عن أوس بن حجر وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين المشهورين [٢٧] .

. . .

(٢٦) منهاج البلغاء ص ٤٢ .

(٢٧) منهاج البلغاء ص ٢٦ — ٢٧ .

ويستكمل حازم المقومات الأساسية للملكة الأدبية بالدربة أو ما سماه هو كثرة المزاولة فهو يذهب إلى أنه قد يحصل للشاعر بالطبع البارع وكثرة المزاولة ملكة يكون بها انتقال خاطره فى الخيالات الشعرية أسرع شىء حتى ليحسب من سرعة خاطره أنه لم يشغل فكره بملاحظة هذه الخيالات وإن كانت لا تتحصل له إلا بملاحظتها ولو مخالسة [٢٨] .

• • •

وعنده أنه لا يكمل لشاعر قول على الوجه المختار إلا بأن تكون له قوة حافظة وقوة مائزة وقوة صانعة ، فأما القوة الحافظة فهى أن تكون خيالات الفكر منتظمة ممتازاً بعضها عن بعض محفوظا كلها فى نصابه ، فإذا أراد مثلا أن يقول غرضا ما فى نسيب أو مديح أو غير ذلك وجد خياله اللائق به قد أهبته له القوة الحافظة بكون صور الأشياء مترتبة فيها على حد ما وقعت عليه فى الوجود ، فإذا أجال خاطره فى تصويرها فكأنه اجتلى حقائقها .

• • •

والقوة المائزة هى التى يميز بها الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك وما يصح مما لا يصح .

• • •

والقوة الصانعة هى التى تتولى العمل فى ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعانى والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض والتدرج من بعضها إلى بعض ، وبالجملة هى القوة التى تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة [٢٩] » .

---

(٢٨) منهاج البلغاء ١١١ .

(٢٩) منهاج البلغاء ٤٢ — ٤٣ .

وإذا كان حازم قد أجمل القول فى القوة الصانعة هنا ، فإنه فى موطن آخر قد صنفها إلى عشر قوى هى : —

١ — القوة على التشبيه فيما لا يجرى على السجية ولا يصدر عن قريحة بما يجرى على السجية ويصدر عن قريحة .

٢ — القوة على تصور كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها ، والمعانى الواقعة فى تلك المقاصد ليتوصل بهذا إلى اختيار ما يجب لها من القوافى ولبناء فصول القصائد على ما يجب بناؤه عليه .

٣ — القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعانى والأبيات والفصول من بعض بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح وبالنظر إلى مايجعل خاتمتها إن كانت محتاجه إلى شىء معين فى ذلك .

٤ — القوة على تخيل المعانى بالشعور بها واجتلابها من جميع جهاتها .

٥ — القوة على ملاحظة الوجوه التى بها يقع التناسب بين المعانى وإيقاع تلك النسب بينها .

٦ — القوة على التهدى إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعانى .

٧ — القوة على التحيل ( بالحاء ) فى تسيير تلك العبارات متزنة وبناء مباديها على نهاياتها ونهاياتها على مباديها .

٨ — القوة على الالتفات من حيز إلى حيز والخروج منه إليه والتوصل به إليه .

٩ — القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض والأبيات بعضها

ببعض ، وإلصاق بعض الـكلام ببعض على الوجوه التى لاتجد النفوس عنها نبوة .

١٠ — القوة المائزة حسن الـكلام من قبيحه بالنظر إلى نفس الـكلام وبالنسبة إلى الموضع الموقع فيه الـكلام ، فقد يتفق للشاعر أن ينظم بيتين قافيتهما واحد فيكون أحدهما أحسن فى نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلى المحل الذى يوقعه فيه من جهة لفظ أو معنى أو نظام أو أسلوب ، ففى هذا الموضع يصير المرجوح راجحاً والمفضول فاضلا ، وكثير ممن ليست له هذه القوة يسقط أحسن مما يثبت بالنسبة إلى المحل(٣٠).

. . .

هذا الـكلام لحازم قد حدد المقومات الأساسية للشخصية الأدبية بأفضل مما فعل النقاد قبله لأنه شرح دور كل منها فى عملية الإبداع الفنى وصنع الأدب مما لانجده لغيره من النقاد العرب ولا عجب ، فالخلق الأدبى عملية متشعبة بل معركة صعبة ، والتهدى إلى العبارات الحسنة يتحقق بأن تـكون للأديب بعامة وللشاعر بخاصة قوى يستولى فـكره بها على جميع الجهات التى يستـكمل حسن الـكلام بالترامى به فى كل جهة منها والتباعد عن الجهات التى تضادها(٣١) . وهذه القوى هى المعبر عنها بالطبع ، وبافتقاده أو فساده يضعف الأدب وهذا ما كان من أدباء المشرق على عهده وكانوا من أجله موضع مؤاخذته(٣٢).

— ٢ —

وإبداع الأدب لا يبعد عمامر ، وإنما هو نتيجة له ، وقد عالجه حازم فى

---

(٣٠) مناج البلغاء ص ١٩٩ .
(٣١) منهاج البلغاء ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .
(٣٢) منهاج البلغاء ص ١٠ .

أكثر من موضع وما كتابه إلا خطة سديدة ومحكمة للإنتاج الأدبى وإبداعه وتسميته بمنهاج البلغاء وسراج الأدباء تسمية مقصودة له وملحوظة منه فى كل أقسامه وسائر أبوابه . ولعل المعلم هن المبانى وهو القسم الثانى فى المطبوع أن يكون أقرب إلى موضوعنا وأدخل فيه من سواه ، وقد دل حازم به على طرق العلم بتحسين هيئات العبارات والتأنق فى اختيار موادها واجادة رصفها وهو عبارة عن ست فقرات أو رد كل فقرة منها تحت كلمة إضاءة أو تنوير على التعاقب . وقد عالج فى الإضاءة الأولى حسن التأليف وتلاؤمه ، وهو يقرر أن التلاؤم يقع فى الكلام على أنحاء : —

منها : أن تكون الكلمات مكونة من حروف مختارة ومتباعدة المخارج ومرتبة الترتيب الذى يقع فيه خفة وتشاكل .

ومنها : ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة فى مقدار الاستعمال فتكون الواحدة فى نهاية الابتذال والأخرى فى نهاية الحوشية وقلة الاستعمال .

ومنها : أن تتناسب بعض صفاتها مثل أن تكون إحداهما مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات أو تماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها .

ومنها : — أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلم ، أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع فى موضعها .

. . .

والتنوير الأول استدراك على الإضاءة الأولى ، فهو ينبه فيه إلى أنه قد تعدم هذه الأنحاء أو أكثرها من الكلم وتكون مع ذلك متلائمة التأليف لا يدرى من أين وقع فيها التلاؤم ولا كيف وقع وإنما هو مثل ما يقع بين

بعض الألحان وبعض وبعض الأصباغ وبعض من النسبة والتشاكل ولايدرى من أين وقع ذلك .

. . .

ويعرض فى الإضاءة الثانية للتسهل وترك التكلف . والتسهل يكون بأن تكون الكلم غير متوعرة الملافظ والنقل من بعضها إلى بعض ، وأن يكون اللفظ طبقا للمعنى تابعا له جارية العبارة من جميع أنحائها على أوضح مناهج البيان والفصاحة ، أما التكلف فيقع إما بتوعر الملافظ أو ضعف تطالب الكلم أو بزيادة مالايحتاج إليه ، أو نقص ما يحتاج إليه،وإما بتقديم وتأخير وإما بقلب وإما بعدل صيغة عن صيغة هى أحق بالموضع منها وإما بإبدال كلمة هى أحسن موقعاً فى الكلام منها .

. . .

ويدعو فى التنوير الثانى إلى حسن الوضع والمبنى وتجنب ما يقبح من ذلك، فمن حسن الوضع اللفظى أن يؤاخى فى الكلام بين كلم تماثل فى مواد لفظها أو فى صيغتها أو فى مقاطعها ومن ذلك وضع اللفظ إزاء اللفظ الذى بين معنيهما تقارب وتناظر من جهة ما لأحدهما إلى الآخر انتساب وله به علقة ، وحمله عليه فى الترتيب ، فإن هذا الوضع فى تأليف الألفاظ يزيد الكلام بيانا وحسن ديباجة ، واستدلالاً بأوله على آخره .

. . .

أما الإضاءة الثالثة فقد طلب فيها ألا يزاد على قدر الحاجة من كل ما يستحسن حتى لايكون التمادى فيه سببا إلى الملل منه .

. . .

وختم المعلم بالتنوير الثالث وقد جعله فى الفوائد المرتجاه من كل ما اقترحه،

فبقوة التهدى إلى العبارات الحسنة يجتمع فى العبارات أن تكون مستعذبة ذات طلاوة جزلة .

والاستعذاب يكون بحسن المواد والصيغ والائتلاف والاستعمال المتوسط .

والطلاوة تكون بائتلاف الكلمات من حروف صقيلة وتشا كل يقع فى التأليف ربما خفى سببه وقصرت العبارة عنه . والجزالة تكون بشدة التطالب بين كلمة وما يجاورها وبتقارب أنماط الكلمة فى الاستعمال.[٣٣].

. . .

وحازم بعد هذا كله يفضل أن يقول الأديب شيئا ويترك شيئاً لذكاء قارئه، أما أن يقول كل صغيرة وكبيرة وكل موجبة وسالبة فهذا خطأ ، والأمر كما قال البحترى :

والشعر لمح تكفى إشارته　　　　وليس بالهذر طولت خطبه

وهو يؤمن بأن البيان الموجز جمال مركز ، وبوحى من هذا الإيمان يقول : — وإذا حوكى الشىء جملة أو تفصيلا فالواجب أن تؤخذ أوصافه المتناهية فى الشهرة والحسن إن قصد التحسين وفى الشهرة والقبح إن قصد التقبيح ، ويبدأ فى المدح بما ظهور الحسن فيه أوضح وما النفس بتقديمه أعنى ، وفى الذم بما ظهور القبح فيه أوضح والنفس بالالتفات إليه أيضا أعنى وينتقل من الشىء إلى مايليه فى المزية من ذلك ويكون بمنزلة المصور الذى يصور أولا ماجل من رسوم تخطيط الشىء ثم ينتقل إلى الأدق فالأدق[٣٤].

ومن القصائد ما يكون اعتماد الشاعر فى فصولها على أن يضمنها معانى

(٣٣) منهاج البلغاء ٢٢٢ — ٢٢٥ .
(٣٤) منهاج البلغاء ص ١١٠ ، ٣٩٢ .

جزئية وتكون مفهوماتها شخصية ،ومنها مايقصدفى فصولها أن تضمن المعانى الكلية التى مفهوماتها جنسية أو نوعية ومنها ما يقصد فى فصولها أن تكون المعانى المتضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية وهذا هو المذهب الذى يجب اعتماده لحسن موقع الكلام به من النفس ، وأحسن ما تكون عليه هيئة الكلام فى ذلك أن تصدر الفصول بالمعانى الجزئية وتردف بالمعانى الكلية على جهة تمثل بأمر عام على أمر خاص ، أو استدلال على الشىء بما هو أعم منه أو نحو ذلك ، فكثيرا ما يقع بوضع معانى الفصول على هذه الصفة تعجيب للنفس ، وانقياد إلى مقتضى الكلام[٣٥].

— ٣ —

ولم يغفل حازم عن أثر البيئة فى الأدب ، فالأديب لايوجد فى فراغ ولا يعيش خارج نطاق الزمان والمكان، وإنما هو ابن بيئته وابن مجتمعه يتفاعل معهما وفيهما ويتحول بهما إلى قدرة خلاقة مبتكرة

وحازم يصر على أن يكون المجتمع مساعدا للأدب ، وعلى أن تكون البيئة إيجابية معه وإلا تعطلت أدواته وضاعت قدراته وخسره الفن والأدب .

وهو يتوسع فى معنى البيئة بحيث يشمل البيئة المادية أى المؤثرات الطبيعية ، والبيئة المعنوية أى المناخ الفكرى والحالة النفسية قال : — الشعر لايتأتى نظمه على أكمل ما يمكن فيه إلا بحصول الهيئات والأدوات والبواعث .

والهيئات تحصل من وجهين : النشء فى بقعة معتدلة الهواء حسنة الوضع ، طيبة المطاعم أنيقة المناظر ممتعة من كل ماللأغراض الإنسانية به علقة ،

(٣٥) منهاج البلغاء ٢٩٥ .

والترعرع بين الفصحاء المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان .

فالمهيىء الأول يوجه طبع الناشىء إلى الكمال فى صحة اعتبار الكلام وحسن الروية فى تفصيله وتقديره ومطابقة ما خارج الذهن به وإيقاع كل جزء منه فى كل نحو ينحى به أحسن مواقعه وأعد لها حتى يكون حسن نشء الكلام مشبها حسن نشء المتكلم به ، وقد تكون النشأة حسنة على غير هذا الوجه وذلك بأن تستجد الأهوية للناشىء وترتاد له مواقع المزن ومواضع الكلأ والنبات الغض فإن الطباع الناشئة أيضا على هذه الحال وإن لم تكن فى الأقاليم المعتدلة جارية مجرى تلك فى سداد الخاطر والتنبه لما يحسن فى هيئات الألفاظ المؤلفة وما لا يحسن ، وعلى هذه الحالة الثانية كان نشء شعراء العرب ، وبذلك تهدوا من تشقيق الكلام وتحسين هيئاته اللفظية والمعنوية الى ما تهدوا .

والمهيىء الثانى : موجه إياه لحفظ الكلام الفصيح وتحصيل المواد اللفظية والمعروفة بإقامة الأوزان .

* * *

والأدوات تنفسم إلى العلوم المتعلقة بالألفاظ ، والعلوم المتعلقة بالمعانى .

• • •

والبواعث تنقسم إلى إطراب وإلى آمال ، وكثير من الإطراب إنما يعترى الرحل بالحنين إلى ماعهدوه ومن فارقوه ، والآمال إنما تعلق بخدام الدول النافعة. وإذن فلا تتوفر البيئة الصالحة للإنتاج الأدبى ولا يتيسر الجو الملائم للخلق الفنى إلا بطيب البقعة وفصاحة الأمة وكرم الدول ومعاهدة التنقل والرحلة ، فقلما برع فى المعانى من لم تتح له بقعة فاضلة ، ولا فى الألفاظ من لم ينشأ بين أمة فصيحة ولا فى جودة النظم من لم يحمله على مصابرة الخواطر فى إعمال الروية الثقة بما يرجوه من تلقاء الدولة ولا فى أسلوب النسيب من لم تشط به

عن أحبابه رحلة ولا شاهد موقف فرقة[٣٦] .

وقد رتب حازم على ماذكره من المهيئات والأدوات والبواعث نتائج ذات أهمية فى الموازنات الأدبية ، ولو أنه يفرق فى ذلك بين الموازنات الفردية والموازنات الجماعية قال : وإنما الرأى الصحيح الذى عليه المعول هو أن للشعر اعتبارات فى الأزمنة والأمكنة والأحوال ، فلا يجب أن يقطع بفضل شاعر على آخر بأنه ساواه فى جميع ذلك ثم فضله بالطبع والقريحة ، فهذا أمر يتعذر تحرى اليقين فيه ، فإن أحدهما قد يساعده الزمان والمكان والحال والباعث على التغلغل إلى استثارة تخاييل ومحاكاة فى شىء لا يساعد الآخر شىء من ذلك عليه ، فأما المفاضلة بين جماهير شعراء توفرت لهم الأسباب المهيئة لقول الشعر ، والأسباب الباعثة على ذلك ، وبين جماهير شعراء لم تتوفر لهم الأسباب ولا البواعث ، فلا يجب أن نتوقف فيها بل نحكم حكما جزما أن الذين توفرت لهم الأسباب المهيئة والباعثة أشعر من الذين لم تتوفر لهم ، كما نفضل شعراء العراق على شعراء مصر ولا نتوقف فى ذلك إذ لا مناسبة بين الفريقين فى الإحسان فى ذلك كما لا تناسب بينهم فى توفر الأسباب وإن كان أكثر تلك الأسباب أيضاً فى الصقع العراقى قد تغير عما كان عليه فى الزمان المتقدم[٣٧] .

— ٤ —

وقد اتخذ حازم من التأثرية مقياسا نقديا يقيس به مدى الجودة فى الأعمال الأدبية وهو يلح على تأكيد هذا المقياس وتثبيت فاعليته فى أكثر من موضع بل فى كل موضع من كتابه « منهاج البلغاء وسراج الأباء » . يقيس جودة الأدب بحسن موقعه فى النفس . والمعول عليه منه ما تتأثر به النفس .

وليس للشعر غرض سوى تحريك النفس .

---

(٣٦) منهاج البلغاء ص ٤٠ — ٤٢ .

(٣٧) منهاج البلغاء ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

ومادام الأمر كذلك فينبغى للشاعر أن يتخذ من الوسائل مايتضح فيه حسن صنعته ومايكون له تأثير فى النفوس وتحريك لها وحسن موقع منها .

ومن شروط الفصاحة والبلاغة حسن الموقع من نفوس الجمهور . وبعد أن يقسم المعانى إلى أول وثوانى ينص على أن المقصود بهذه أو تلك إنما هو محاكاة الشيء بما النفوس له أشد انفعالا من حيث يقصد بسطها نحو شيء شيء أو قبضها عنه(٣٨) .

• • •

ويرى حازم أن الأدب لن يؤدى وظيفته وهى التأثير فى المتلقى إلا إذا كان جديدا مبتكرا ولهذا حارب التكرار فقال : — التكرار لايجب أن يقع فى المعانى إلا بمراعاة اختلاف مافى الحيزين اللذين وقع فيهما التكرار من الكلام ، وإذا كان معنى التماثل أو التشابه منتسبا إلى شيئين أو أشياء مشتركة فيه كان الوجه ألا يعاد ذلك المعنى مع كل واحد من الشيئين أو الأشياء وأن يكتفى بذكره مرة واحدة مع أحد تلك الأشياء على نحو من العبارة يغنى فيها عن التكرار إيثارا للاختصار ومنعا للملالة ، ولأن التكرار يعطل التأثير(٣٩) .

وحتى صور الجمال الفنى ممثلة فى البديع المطبوع لايحب أن تتكرر فإن جاءت بحيث تقع المراوحة بينها وبين غيرها من الصناعات لم تكن مكروهة إذ المذهب المستحسن فى الكلام أن يفتن فى ضروب من الإبداعات الموقعة ، وأن يتوخى فى جميع ذلك تناسب الانتقالات وحسن الاقترانات وكلما كان

---

(٣٨) منهاج البلغاء صفحات ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٦، ٦١ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٩٠ وذلك على سبيل التمثيل لا لحصر

(٣٩) منهاج البلغاء ص ٣٣ ، ص ٤٦

الـكلام مقتصرا بة على فن واحو من الإبداعات وإن كان حسنا فى نفسه لم يحسن ، لأن ذلك مؤد إلى سآمة النفس فإن شيمتها الضجر مما يتردد والولع بمـا يتجدد[٤٠] .

— ٥ —

وحين تـكلم حازم عن ملاءمة الأدب لموضوعه وللمخاطبين به ، رأى أن وضع مالا يليق موضع مايليق وضع غير مؤثر ، وإنما الوضع المؤثر وضع الشيء الموضع اللائق به وذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ والمعانى والأغراض من جهة مايكون بعضها فى موضعه من الـكلام متعلقا ومقترنا بما يجانسة ويناسبه ويلائمة من ذلك . والوضع الذى لايؤثر يكون بالتباين بين الألفاظ والمعانى والأغراض من جهة مايكون بعضها فى موضعه من الـكلام متعلقا ومقترنا بما يناقضه ويدافعه وينافره[٤١] .

وأصرح من هذا فى الدلالة على مانحن بصدده من كلام حازم توسيعه دائرة التناسب بين موسيقى الشعر وموضوعه حتى تشمل التناسب بين الفن كلية وبين موضوعه . وإنه ليعطى مقياسا نقديا بقوله : إن خير الشعر ماصدر عن فـكر ولع بالفن والغرض الذى القول فيه .

ويوضح ذلك بنصه على أن المنحنى الشعرى تشبيبا كان أومدحا أو غير ذلك ، فإن نسبة الـكلام المقول فيه اليه نسبة القلادة الى الجيد ، لأن الألفاظ والمعانى كاللالى ، والوزن كالسلك والمنحى الذى هو مناط الـكلام وبه اعتلاقة كالجيد فـكما أن الحلى يزداد حسنه فى الجيد الحسن فـذلك النظم إنما يظهر حسنه فى المنحنى الحسن[٤٢] .

---

(٤٠) منهاج البلغاء ص ٦١

(٤١) منهاج البلغاء ص ١٥٣

(٤٢) منهاج البلغاء ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ .

ومن ملاءمة الكلام لموضوعه وللمخاطبين به تردده بين الإيجاز والإطناب والمساواة .

ويرغب حازم فى الإيجاز وهو يحد من الاندفاع إلى الإسهاب بلا تبصر قال : لا يستحسن الاستقصاء إلا فى الجهات التى معانيها مع شرفها قليلة ، أما الجهات التى تكثر معانيها وليست كلها شريفة بالنسبة إلى المقصد فإنما يسوغ استقصاؤها فى القصائد الطوال كقصائد ابن الرومى أما القصائد القصار والمتوسطة فلا يحسن فيها إلا التخطى إلى الأشرف فالأشرف(٤٣) .

— ٦ —

ويربط حازم بين موسيقى الشعر وموضوعه ، وهو يوزع القول فى ذلك على الأوزان والقوافى .

أما الأوزان فهى مما يتقوم به الشعر ويعد من جملة جوهره(٤٤) ولما كانت متركبة من متحركات وسواكن اختلفت بحسب أعداد المتحركات والسواكن فى كل وزن منها ، وبحسب نسبة المتحركات إلى عدد السواكن وبحسب وضع بعضها من بعض وترتيبها ، وبحسب ماتكون عليه مظان الاعتمادات كلها من قوة أو ضعف ومن خفة أو ثقل ، وصار لكل وزن بحسب مخالفته لجميع الأوزان فى ذلك كله أو بعضه ميزة أو ميزات وصفة أو صفات تخصه من جهة مايوجد له رصانة فى السمع أو طيش ومن جهة مايوجد باهيا أو حقيرا أو غير ذلك مما يناسب فيه المسموع المرئى فلا بد أن يكون كل وزن مناسبا لغيره من إحدى هذه الجهات مناسبة قريبة أو بعيدة ، ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها مايقصد به الجد والرصانة ومايقصد به الهزل والرشاقة ومنها مايقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير ، وجب أن تحاكى تلك المقاصد

---

(٤٣) منهاج البلغاء ص ٢٩٤ .

(٤٤) منهاج البلغاء ص ٢٦٣ .

بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، وإذا قصد في موضع مقصداهزلياأو استخفافيا وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء وكذلك في كل مقصد .

ويدل حازم على مصادره بهذا التعقيب له : — وكانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزنا يليق به ولا تتعداه إلى غيره وهذا الذى ذكرته من تخييل الأغراض بالأوزان قد نبه عليه ابن سينا في غير موضع من كتبه ، ومن ذلك قوله في الشفا في تعديد الأمور التي تجعل القول مخيلا : — والأمور التي تجعل القول مخيلا منها أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه وهو الوزن ومنها أمور تتعلق بالمسموع من القول ، ومنها أمور تتعلق بالمفهوم من القول ومنها أمور تتردد بين المسموع والمفهوم [٤٥] .

وأما القوافي فيقع النظر فيها من أربع جهات : —

الأولى : — جهة التمكن بألا تكون قلقة أو زائدة .

والثانية : — جهة صحة الوضع أى التأليف ، ويستند النظر في ذلك إلى المعرفة بعلم القوافي وقد عالجها حازم من هذه الجهة معالجة قيمة [٤٦] .

والثالثة : — جهة كونها تامة أو غير تامة ، وسنعرض لما قاله فيها بالتفصيل ونحن نتحدث بموقفه من بناء القصيدة ووحدتها الفنية .

والرابعة : — جهة اعتناء النفس بما وقع في النهاية لكونه مظنة «اشتهار الإحسان أو الإساءة .

وما يجب في القافية من هذه الناحية هو ألا يوقع فيها إلا ماله موقع من

---

(٤٥) منهاج البلغاء ص ٢٦٦.

(٤٦) منهاج البلغاء ص ٢٧١ ـ ٢٧٥.

النفوس بحسب الغرض وأن يتباعد بها عن المعانى المشنوءة والألفاظ الكريهة ولاسيما مايقبح من جهة مايتفاءل به فإن مايكره من ذلك إذا وقع فى أثناء البيت جاء مايغطى عليه ويشغل النفس عن الالتفات إليه ، وإذا جاء فى القافية جاء فى أشهر موضع لأنه مقطع البيت وموضع تخلى السامع عنه وتفرغه لتفقد ما مر على سمعه منه ومن هذا قول الصاحب فى عضد الدولة .

ضممت على أبناء تغلب تاءها    فتغلب ما كر الجديدان تغلب

فقال له عضد الدولة ، يقى الله ، يقول حازم : — ومما يؤكد القبح فى هذه اللفظة التى هى « تغلب » وقوعها قافية ، ولو وردت فى أثناء البيت لكان الأمر فيها أسهل[٤٧] .

— ٧ —

التفت النقد العربى منذ وقت مبكر إلى القيمة الفنية للأدب وتحولت هذه القضية إلى بديهية فى النقد المشرقى ( ٤٨ ) لكن ما مدى الإحساس بفنية الأدب لدى نقاد المغرب ؟ ذلك ما نحاول أن نعالجه ، وها هو ذا حازم يشرع للهزل ويخطط حدوده ومعالمه .

فالمنهج الأول من القسم الرابع فى كتابه موضوعه الإبانة عن طرق الشعر من حيث تنقسم إلى جد وهزل وما تعتبر به أحوالها فى كل ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها .

ومما تختص به طريقة الهزل ويجب اعتماده فيها أن تكون النفس فى كلامها مسفة إلى ذكر مايقبح وألا تقف دون أقصى مايوقع الحشمة وألا تكبر

---

(٤٧) منهاج البلغاء ص ٢٧٦ .

(٤٨) انظر كتابنا «النقد الأدبى فى العصر المملوكى ص ٢٥٧ — ٢٦٢ »

عن صغير وألا ترتفع عن نازل وألا تطرح ماله باطن هزلى وإن كان له ظاهر جدى وأن ترد ما يفهم منه الجد إلى ما يفهم منه الهزل بتخليص ذلك إلى حيز الهزل ، ومن ذلك شيوع استعمال العبارات الساقطة والألفاظ الخسيسة ككثير من ألفاظ الشطار المتماجنين وأهل المهن والعوام والنساء والصبيان على الوجه الذى تقبل به الطريقة ذلك ، وهـــذا موجود فى مجون أبى نواس وغير منقود عليه .

وإذا كانت العبارات فى الطريقة الجدية يتحرى فيها المتانة والرصانة فإن العبارات فى الطريقة الهزلية يتحرى فيها الحلاوة والرشاقة. وقد تأخذ الطريقة الجدية بطرف من الرشاقة كما تأخذ الطريقة الهزلية بطرف من المتانة . ويختم حازم هذا المنهج بقوله « فهذه قوانين مقنعة فيما يتعلق بالطريقة الجدية وما يتعلق بالطريقة الهزلية وما يتعلق بهما معاً » .

ولم نجد هذا البحث إلا عند حازم ، وقد جاءه من سقراط بدليل قوله:— حكاية الهزل لذيذة سخيف أهلها ، وحكاية الجد مكروهة ، وحكاية الممزوج منهما معتدل »[49].

ويظهر أنه استشعر تفرده به وظن أن ثمة من يعيب عليه الخوض فيه فصرح بأن معرفة قوانينه أكيدة فى صناعة النقد والبصيرة بطرق الكلام وما يجب فيها فكثير من وجوه النقد والنظر فى هذه الصناعة يتعلق بها وأيضاً فإنه إذا أريد الحكم بين شاعرين متماجنين أيهما أشعر ؟ أو بين جاد وماجن أيهما أمضى فى طريقته وأبرع فيها لم يكن بد من معرفة هذه القوانين فى الطريقتين إذ بها يتبين نمط كلامه وإعراقه فى الطريقة التى هو مبنى عليها وسلامته بحسب ما يجب فيها ، فلهذا ألمعت إلى ما يجب فى الطريقتين ببعض

---

(٤٩) منهاج البلغاء ص ٣٢٨ — ٣٢٩.

القول، فمن تفهم ذلك وكان اعتباره بحسبه يصب إن شاء الله[٥٠].

— ٨ —

ومن صميم النقد الجملى — وهو أن ينظر الناقد فى النص المنقود كله ولا يكتفى بقراءة بعضه كى يكون الحكم عليه وعلى صاحبه عادلا ومنصفاً — نقول : من صميم هذا النقد ما ذهب اليه حازم وهو يرد إعجاز القرآن الى استمرار الفصاحة والبلاغة على أعلى مستوى لهما فى جميع آياته وسوره أما كلام العرب ومن تكلم بلغتهم فلا تستمر الفصاحة والبلاغة الا فى الشىء اليسير المعدود منه ثم تعوض الفترات الإنسانية فتقطع طيبه ورونقه ، وهو يعلل الفترات فى الأدب بأكثر من سبب فهى تقع : —

( أ ) إما بسهو يعرض للأديب من غير أن يكون جاهلا بما سها عنه .

(ب) أو من جهل به .

( ج ) أو من سآمة تعترى فكره .

( د ) أومن هوى للنفس يغلب عليها فيما يحوش عليها خاطره من اقتناص للمعانى ثميناً كان أو غثا .

ويرى أن هذه الآفات لا يخلو منها الإنسان ولو كان فاضلا كامل الطبع[٥١] .

* * *

ولقد كانت عدالة الناقد — وهى إحدى نتائج النقد الجملى — سبباً فى إنهاء الجدل حول ماعرف فى تاريخ النقد الأدبى بقضية القدماء والمحدثين ،

---

(٥٠) منهاج البلغاء ص ٣٢٥.

(٥١) منهاج البلغاء ص ٣٨٩ — ٣٩٠.

وهى قضية شغلت النحاة واللغويين ونقاد الأدب فى المشرق ، ولقد كان حازم موضوعياً وهو ينحاز الى الجودة ضد الرداءة تقدم الزمن يصاحبها أو تأخر ، ها هو ذا يقول كالمغضب : — فأما من يذهب إلى تفضيـــل المتقدمين على المتأخرين بمجرد تقدم الزمان فليس ممن تجب مخاطبته فى هذه الصناعة لأنه قد يتأخر أهل زمان عن أهل زمان ثم يكونون أشعر منهم لسكون زمانهم يحوش عليهم من أقناص المعانى بسفوره لهم عن أشياء لم تـكن فى الزمان الأول ، ولتوفر البواعث فيه على القول وتفرغ الناس له كالحال فى إجادة الشعراء الذين كانوا فى زمان ملوك آل جفنة وملوك لخم ومن كان فى زمانهم من ملوك العرب وأجوادها ، تلك الحلبة تقدمت بالإحسان من تقدمها بالزمان والسبب فى ذلك ما ذكرته ، وهذه الحلبة هى حلبة زهير والنابغة والأعشى ومن جرى مجراهم وانخرط فى سلـكهم(٥٢) .

ولم تثر قضية القدماء والمحدثين بعد حازم لأنه لم يعد ثمة داع لإثارتها فقد استوت الأحكام النقدية على نهجها وصارت فنية .

— ٩ —

الذوق الأدبى هو الحاسة السادسة الحاصلة للإنسان نتيجة تمرسه بالأعمال الأدبية والفنية ووقوعه تحت تأثير حضارة خاصة وثقافة معينة، وكثيراً ماعول النقاد عليه فى تقدير الأدب .

وفى الإضاءة الأولى من إضاءات معرف ب الدال على طرق المعرفة بالمآخذ اللطيفة فى المنازع التى ربما خفى الوجه الذى لأجله حسن الـكلام بهـا ، نجد حازما يحيل على الذوق أى على الإدراك الذوقى الذى تحيط به المعرفة ولا تحده

---

(٥٢) منهاج البلغاء ص ٣٧٨ .

الصفة قال : وقد يرد من حسن المأخذ ما لا يستطاع التعبير عن الوجه الذى من أجله حسن ولا يعرف كنهه غير أنه يعرف أنه مأخذ حسن فى العبارة من حيث أنك إذا حاولت تغيير العبارة عن وضعها والإثلاج إليها من غير المهيع الذى منه أثلج واضعها وجدت حسن الكلام زائلا بزوال ذلك الوضع والدخول إليه من غير ذلك المدخل ،واعتبر ذلك بقول أبى سعيد المخزومى :—

ذنبي إلى الخيل كرى فى جوانبها
إذا مشى الليث فيها مشى مختتل

فإنك لو غيرت صيغة هذا البيت وأزلتها عن موضعها فقلت مثلا : —

« كم أذنبت إلى الخيل بكرى فى جوانبها » أو غيرته غير هذا التغيير لم تجد له من حسن الموقع من النفس ما له فى صيغته ووضعه الذى وضعه عليه المخزومى، وقد جارانا الكلام فى هذا الباب الفقيه العلامة أبو الحسن سهل بن مالك وكان إماماً فى هذه الصناعة قال : — إن من المعانى المعبر عنها بالعبارات الحسنة ما تدرك له مع تلك العبارة حسناً لا تدركه له فى غيرها من العبارات ولا تقدر أن تعبر عن الوجه الذى من أجله حسن إيراد ذلك المعنى فى تلك العبارة دون غيرها ولا تعرب عن كنه حقيقته ، إنما هو شيء يدركه الطبع السليم والفكر المسدد ولا يستطيع اللسان فيه مجاراة الهاجس ، وهكذا يتفق فى المحسوسات فإنى رأيت ذات مرة مناداة على جارية وقد بلغت مائتى دينار فتواقف الناس فيها عن الزيادة وظهر من الحاضرين فيها بعض زهادة فدنا منها سيدها فأسر إليها كلاماً فمالت عنه متلفعة بردنها وازدادت بما فعلته حسناً على حسنها فأبدت من الحسن كل سر لطيف واتقت بأحسن من يد المتجردة عند إسقاط النصيف فعلت بمافعلت قيمتها وزادت حتى تضاعفت أو كادت ليس إلا لحسن ذلك الدل والإشارة ، وذلك شيء وإن أدركه الحسن

فغير معربة عن كنهه العبارة لأنه مما يدركه الطبع السليم والفكر المسدد ولا يستطيع اللسان فيه مجاراة الهاجس[٥٣] .

وحازم يقصد ذوق المتخصصين فى النقد ومتى كان الأمر كذلك فليس ينبغى أن يعترض عليهم فى أقاويلهم إلا من تزاحم رتبته فى حسن تأليف الكلام وإبداع النظام رتبتهم فإنما يكون مقدار فضل التأليف على قدر فضل الطبع والمعرفة بالكلام ، وليس كل من يدعى المعرفة باللسان عار فابه فى الحقيقة فإن العارف بالأغراض اللاحقة للكلام التى ليست مقصودة فيه من حيث يحتاج إلى تحسين مسموعه أو مفهومه ليس له معرفة بالكلام على الحقيقة ألبتة ، وإنما يعرفه العلماء بكل ما هو مقصود فيه من جهة لفظ أو معنى وهؤلاء هم البلغاء الذين لا معرج لأرباب البصائر فى إدراك حقائق الكلام إلا على ما أصلوه ، فمن جعل ذلك دليله هدى سبيله ، ومن اعتمده أحمده[٥٤]

— ١٠ —

والمفروض عند حازم أن يكون الأدب واضحاً ومفهوماً من سامعه أو قارئه ، وإذا غمض فإن غموضه يكون لأسباب طارئة يرجع بعضها إلى المعانى ويرجع بعضها إلى الألفاظ .

فما يرجع الى المعانى أن يكون المعنى في نفسه دقيقاً بعيد الغور ، أو يكون مبنياً على مقدمة فى الكلام قد صرف الفهم عن التقاطها بعد حيزها عن حيز ما بنى عليها ، أو يكون مضمناً معنى علمياً أو خبراً تاريخياً أو محالا به على ذلك ومشاراً به إليه فيكون فهم المعنى متوقفاً على العلم بذلك المضمن العلمى أو الخبرى ، أو يكون المعنى قد وضعت صور التركيب الذهنى فى أجزائه على غير ما يجب فلا يفهمه الناس على وجهه ولا يهتدون إلى فهمه بالجملة[٥٥] .

---

(٥٣) منهاج البلغاء ص ٣٧١ ـ ٣٧٣ .

(٥٤) منهاج البلغاء ص ١٣٩ ـ ١٥٤.

(٥٥) منهاج البلغاج ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

وأما ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات فمن ذلك أن تكون الألفاظ الدالة على المعنى أو اللفظة الواحدة منها حوشية أو غريبة فيتوقف فهم المعنى عليها والواجب على الشاعر أن يجتنب ذلك حتى تكون دلالته على المعانى واضحة وعبارته مستعذبة .

ومن ذلك أن تكون اللفظة أو الألفاظ مشتركة فتدل على معنيين أو أكثر ، والواجب على الشاعر أو الكاتب أن ينوط باللفظة أو الألفاظ التى بهذه الصفة من القرائن ما يخلص معناها إلى المفهوم الذى قصده حتى يكون المعنى مستبيناً وذلك حيث يقصد البيان .

ومما ورد من ذلك فاضطرب الناس فى فهمه وتأويله قول الحارث بن حلزه : —

زعموا أن كل من ضرب العير　　موال لنا ، وأنى الولاء ؟ ؟

فقد قيل : أراد بالعير الوتد ، وأراد بالضاربين العرب لأنهم كانوا أصحاب عمد .

وقيل : أراد عير العين وهو ما يطفو على الحوض من الأقذاء وأصله التشديد وهو العائر والعيِّر نخففت كما قيل هين. وقيل فيه وجوه أخر غير هذه.

ومن ذلك أن تكون كلمة قد وصلت بحرف أو حذف منها حرف فتتصل بكلمة يحتمل لفظها أن يكون الحرف الموصول بالأولى داخلا عليها أو من جملة حروفها ، أو يكون قد دخل على الثانية حرف يخيل لك أنه صلة للأولى أو تتمة لما نقص منها فيعرض من هذا فهم الكلام على غير وجهه .

ومن هذا قول امرىء القيس : —

نطعنهم سلكى ومخلوجة　　لفتك لأمين على نابل

لأن الكاف محتملة أن تكون ضميراً مضافاً إليها ما قبلها وأن تكون

حرفاً جاراً لما بعدها ، ومن هذا ما روى من أن الأصمعى أنشد يوماً : —

لم ينالوا مثل الذى نلت منهم    وسواء ما نلت منهم ونالوا

ثم قال لأصحابه : كيف أوجب فى آخر البيت ما نفى فى أوله ؟ فقالوا : لا ندرى قال : قد أجلتكم فيه شهراً ، فقالوا : لو أجلتنا فيه سنة ما علمناه . فقال : إنما هو (لمى) ترخيم لمياء ثم قال : نالوا مثل الذى نلت منهم ، فهذا إيجاب أنهم نالوا وليس بنفى على ما يتوهم .

ومن ذلك الاخلال بوضع الكلام وإزالة ألفاظه عن مراتبها حتى يصير المتأخر متقدما والمتقدم متأخراً فتتداخل الألفاظ وتشكل دلالتها ، ولقد كان الفرزدق يكثر من هذا النوع حتى لكأنه كان يقصده ، ومنه قوله . —

وما مثله فى الناس إلا مملكا    أبو أمــــه حى أبوه يقاربه

ويرى حازم أن ذلك ونحوه مستهلك للمعانى وحاجب للأفكار عن حقائق المقصود بالكلام وهو لهذا ينص على طلب التسهيل وترك التكلف[٥٦] .

— ١١ —

وحازم ضد تحميل الشعر — من حيث هو شعر — شيئاً ولو قليلا من المصطلحات العلمية والصناعية والعبارات المصطلح عليها ، لأن أكثر الجمهور لا يمكن تعريفهم إياها مع أن أحدهم إذا أمكن تعريفه إياها لم يجد لها فى نفسه ما يجد للمعانى العربقة فى طريقة الشعر لكون تلك المعانى المتعلقة بإدراك الذهن ليس الحسن والقبح والغرابة واضحاً فيهما وضوحه فيما يتعلق بالحس ، وأيضاً فإن المعانى التى تتعلق بإدراك الحس هى التى تدور عليها مقاصد الشعر وتكون مذكورة فيه لأنفسها ، والمعانى المتعلقة بإدراك الذهن

---

(٥٦) منهاج البلغاء ص ١٨٤ — ١٨٧ .

ليس لمقاصد الشعر حولها مدار وإنما تذكر بحسب التبعية المتعلقة بإدراك الحس، ثم إن المسائل العلمية يستبرد إيرادها فى الشعـــر أكثر الناس ولا يستطيب وقوعها فيه إلا من صار من شدة ولعه بعلم ما بحيث يتشوف إلى ذكر مسائل ذلك العلم، ويحب إجراءها ولو فى المواطن التى لا تليق بها ولا تقبلها ألبتة، وإنما يورد المعانى العلمية فى كلامه من يريد التمويه بأنه شاعر عالم وهذا نقيض ما يجب فى الشعر، فلن يثبت له أنه قال شعراً إلا عند من لا علم له، وأما العلم فلا يثبت أيضاً للشاعر بأن يودع شعره معانى منه وليس هذا من العبقرية فى شىء.

وحازم بهذا ينضم إلى النقاد العرب الذين يرون تنقية لغة الأدب من المصطلحات العلمية، يقرأ قول الخفاجى :— « ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعـــلوم » فيقول متتلمذا : « وبحسبنا أن البصراء بهذه الصناعة كأبى الفرج قدامة وأضرابه قد نص جميعهم على قبح إيراد المعانى العلمية والصناعية والعبارات المصطلح عليها فى جميع ذلك ونهوا عن إيراد جميع ذلك فى الشعر »(٥٧).

على أننا نجد عنده تفصيلا تفرد به، واقرأ هذه الإضاءة له : — الواجب ألا يستعمل فى الشعر من الأخبار إلا ما شهر وألا يستعمل فيه شىء من معانى العلوم والصنائع ولا شىء من عباراتها إذا كان الغرض مبنياً على ما هو خارج عن تلك العلوم والصنائع، أما إذا كان الغرض مبنياً على وصف أشياء علمية أو صناعية ومحـــاكاتها والتخييل فى شىء منها فإيراد تلك المعانى والعبارات غير معيب فى ذلك الغرض لأن للشاعر أن يحاكى

---

(٥٧) منهاج البلغاء ص ٢٩ - ٣١ .

شيئاً شيئاً من جميع الموجودات ويخيل فى واحد واحد منها ما تميل إليه النفوس أو تنفر عنه[٥٨].

## — ١٢ —

وحازم على مذهب الخليل بن أحمد فى التساهل مع الشعراء ولا سيما القدماء فهو يورد أبياتاً حملت على التناقض لعبد الرحمن بن عبد الله القس وزياد الأعجم وابن دراج وأبى نواس ويوجه النقد الموجه إليها من قدامة والخفاجى ثم يتبع ذلك برأيه الخاص مستأنساً فيه بكلام طويل للخليل قال : — وكلما أمكن حمل بعض كلام هذه الحلبة المحلية من الشعراء على وجه من الصحة كان ذلك أولى من حمله على الإحالة والاختلال . لأنهم من ثبت ثقوب أذهانهم وذكاء أفكارهم واستبحارهم فى علوم اللسان وبلوغهم من المعرفة الغاية القصوى وقد قال الخليل بن أحمد : « الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا وجائز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده ومد مقصوره وقصر ممدوده والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه ، فيقربون البعيد ويبعدون القريب ويحتج بهم ولا يحتج عليهم » فلأجل ما أشار إليه الخليل من بعد غايات الشعراء وامتداد آمالهم فى معرفة الكلام واتساع مجالهم فى جميع ذلك يحتاج إلى أن يحتال فى تخريج كلامهم على وجوه من الصحة[٥٩].

ولا يصح أن نفهم أن حازماً حابى القدماء فى مسألة الأخطاء ، كل ما فى الأمر أنه يجلهم ويعتقد مخلصاً أنه قل أن يخفى عليهم ما يظهر لغيرهم ولهذا

---

(٥٨) منهاج البلغاء ص ١٩٠ .

(٥٩) منهاج البلغاء ص ١٣٩ — ١٤٤ .

أوجب تأول كلامهم على الصحة والتوقف عن تخطئتهم فيما يلوح له وجـه ، أما ما لا وجه لصحته فهو يأخـذهم به ويلومهم عليه ، وخارج نطاق الأخطاء لا فرق عنده بين محدثين وقدماء(٦٠) .

• • •

وإذا كان بعض النقاد واللغويين يعتمدون فى سماحهم بالضرورة الشعرية عى فرائد أبيات وشطحات شعراء ، فإن حازماً لا يقبل منها إلا الوارد فيما اجتمعت عليـه الروايات الصحيحة من كلام الفحول كامرىء القيس والنابغة وزهير ومن جرى مجراهم(٦١)

— ١٣ —

ولا نجد عند حازم ظلا لمشكلة اللفظ والمعنى فقد خلطهما ببعضهما ومزجهما بموضوعهما وجعل تذوق الأدب والتأثر به رهنا بهذا المزج قال : — يكون النظر فى صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية فى نفسه ، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلىموقعه من النفوس من جهة هيئته ودلالته ، ومن جهة ما تـكون عليه تلك الصور الذهنية فى أنفسها ومن جهة هيئاتها ودلالاتها على ما خارج الذهن ومن جهة ما تـكون عليه فى أنفسها الأشياء التى تلك المعانى الذهنية صور لها وأمثلة دالة عليها ومن جهة مواقع تلك الأشياء فى النفوس(٦٢) .

وهو يعمق رأيه بما قرره ابن الزملـكانى من أن التصرف فىالألفاظ لا بد أن يكون بإزاء التصرف فى المعانى أى مترتباً عليه وناتجاً عنـه بحسبانه

(٦٠) منهاج البلغاء ص ٣٧٨.
(٦١) منهاج البلغاء ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٦٢) منهاج البلغاء ص ١٧ .

ضرورة فنية تستلزمها عملية التغيير والتبديل التي تصحب الإبداع الفني عادة.

وإذا شرع بعد ذلك للمعاني وجعلها أقساماً مختلفة ، فإنما يفعل ذلك بصفته ناقداً يحلل القول ويصنفه ويوزعه على عناصره الأولية ، ثم يذكر الخصائص الفنية لكل جزئية كالذي نجده له من كلام على الألفاظ مرة وعلى المعاني أكثر من مرة ، فهو يتكلم عن الألفاظ الشعرية ، أو ما يسميه بحسان العبارات ويرى أن اللفظ المستعذب وإن كان لا يعرفه جميع الجمهور مستحسن إيراده في الشعر لأنه مع استعذابه قديفسر معناه لمن لا يفهمه ما يتصل به من سائر العبارة ، وإن لم يكن في الكلام ما يفسره لم يعوزه أيضاً وجد ان مفسره لكونه مما يعرفه خاصة الجمهور أو كثير منهم ، والإتيان بما يعرف أحسن(٦٣).

والمعاني عند حازم قسمان : معان شعرية ومعان غير شعرية . والمعاني الشعرية أيضاً قسمان : أول وثوان ، والأول هي التي يكون مقصد الكلام وأسلوب الشعر يقتضيان ذكرها وبنية الكلام عليها ، والثواني هي التي لا يقتضي مقصد الكلام وأسلوب الشعر بنية الكلام عليها يقول : — والمعاني الشعرية منها ما يكون مقصوداً في نفسه بحسب غرض الشعر ومعتمداً إيراده ومنها ما ليس بمعتمد إيراده ولكن يورد على أن يحاكى به ما اعتمد من ذلك أو يحال به عليه أو غير ذلك ، ولنسم المعاني التي تكون من متن الكلام ونفس غرض الشعر المعاني الأول ، ولنسم المعاني التي ليست من متن الكلام ونفس الغرض ولكنها أمثلة لتلك واستدلالات عليها أو غير ذلك لا موجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الأول بها أو ملاحظة وجه يجمع بينهما ، لنسمها المعاني الثواني . وحق الثواني أن تكون أشهر في

(٦٣) منهاج البلغاء ص ٢٩.

فى معناها من الاول لتستوضح معانى الأول بمعانيها الممثلة بها أو تكون مساوية لها لتفيد تأكيداً للمعنى ، فإن كان المعنى فيها أخفى منه فى الأول قبح إيراد الثوانى لكونها زيادة فى الكلام من غير فائدة فهى بمنزلة الحشو غير المفيد فى اللفظ(٦٤) . هذا عن المعانى الشعرية .

أما غير الشعرية فهى المعانى العلمية التى يشير إليها حازم بقوله : — وليس الأمر فيما ذكرته كالأمر فى المسائل العلمية ، فإن أكثر الجمهور لا يمكن تعريفهم إياها مع أن أحدهم إذا أمكن تعريفه إياها لم يجد لها فى نفسه ما يجد للمعانى التى ذكرنا أنها العريقة فى طريقة الشعر(٦٥) .

والقول الفصل عنده أن كل ما انتسب إلى صناعة من الصنائع من حيث هو راجع اليها أو عبارة مستعملة فيها فليس يحسن استعماله فى الشعر إذ الواجب أن يقتصر بالأشياء على ما هى خاصة به وألا يخلط فن بفن بل يستعمل فى كل صناعة ما يخصها ويليق بها ولا يشاب بها ما ليس منها(٦٦) .

وهو لا يترك الموضوع دون أن يعطى لوقوع المعانى على ألفاظها وامتزاجها بها مقياساً نقدياً رائعاً بقوله : — واعلم أن النسب الفائقة إذا وقعت بين هذه المعانى المتطالبة بأنفسها على الصور المختارة من حيث أن المعانى متناظرة كان ذلك من أحسن ما يقع فى الشعر ، فإن للنفوس فى تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال الى مقتضى الكلام ، لأن تناصر الحسن فى المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها فى شىء واحد ، وكذلك حال القبح وما كان

(٦٤) منهاج البلغاء ص ٢٣ — ٢٤ .
(٦٥) منهاج البلغاء ص ٢٩ .
(٦٦) منهاج البلغاء ص ١٩٢ .

أملك للنفس وأمكن منها فهو أشد تحريكا لها(٦٧) .

وللمعانى وحدها معيار توزن به هو ماتكون عليه من صحة وكمال ومطابقة للغرض المقصود بها وحسن موقع من النفس ، يكون بالنظر إلى ما المعنى عليه فى نفسه ، وبالنظر إلى مايقترن به من الكلام وتكون له به علقة ، وبالنظر إلى الغرض الذى يكون الكلام مقولا فيه ، وبالنظر إلى حال الشىء الذى تعلق به القول(٦٨) .

ونلمح نظرية النظم من خلال قوله : — « إن الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفوس من حيث تختارمواد اللفظ وينتقى أفضلها وتركب التركيب الملائم المتشاكل وتستقصى بأجزاء العبارات التى هى الألفاظ الدالة على أجزاء المعانى المحتاج إليها(٦٩) » .

— ١٤ —

أسهم حازم فى قضية المبالغة وهو يتكلم عن الصدق فى الشعر ، فقد جره ذلك إلى الكلام عن الاختلاق فقسمه إلى الاختلاق الإمكانى وإلى الاختلاق الامتناعى . والمبالغة عنده نوع من الاختلاق الامتناعى لأنها غلو فى الصفة يخرج بها الكلام عن حد الإمكان إلى الامتناع والاستحالة ، والممتنع هو ما لا يقع فى الوجود وإن كان متصوراً فى الذهن والمستحيل هو ما لا يصح وقوعه فى وجود ولا تصوره فى ذهن.

وقد يبدو أكثر تحديداً وهو يقرر أن الشىء المقصود مدحه أوذمه لا يخلو من أن يوصف بما يكون فيه واجباً أو ممكناً أو ممتنعاً أومستحيلا ، والوصف

(٦٧) منهاج البلغاء ص٤٥ .
(٦٨) منهاج البلغاء ص ١٣٠ .
(٦٩) منهاج البلغاء ص١١٩ .

بالمستحيل أفحش ما يمكن أن يقع فيه جاهل أو غالط فى هذه الصناعة ،والممتنع قد يقع فى الكلام إلا أن ذلك لايستساغ إلا على جهة من المجاز[٧٠] .

وينتقل من الإجمال إلى التفصيل بقوله : فقد تبين مايصح ويحسن من المبالغة ومالا يصح منها ولايحسن ، فإن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، وقد خالف فى هذا جماعة ممن لاتحقيق عنده فى هذه الصناعة ولا بصيرة له بها .

فاستحسنوا من المبالغة ماخرج من الحقيقة إلى حيز الاستحالة محتجين بمطالبة النابغة حسان بن ثابت بالمبالغة فى أوصافه . والبصراء بصناعة الشعر العارفون مايجب فيها يقولون : — إنما طالب النابغة حسانا بمالغة حقيقية وهى تكثير الجفان والسيوف فاستدرك عليه التقصير عما يمكن فيما وصف ولم يطالبه بتجاوز غاية الممكن والخروج إلى ما يستحيل

وينتهى حازم إلى أن الوصف بما يؤدى إلى الإحالة لايستساغ إلا حيث يقصد التهكم بالشيء أو الزراية عليه والإضحاك به كقول الطرماح : —

ولو أن برغـــوثا على ظهر نملة

يكر على صفى تمـــيم لولت

وهو صورة طبق الأصل من أرسطو فى قوله : « وتبين بهذا أن قول من قال : إن مقدمات الشعر لاتكون إلا كاذبة كاذب ، وأنه بمنزلة من يقول : — إن الألفاظ الشعرية لاتكون إلا حوشية ولاتكون مستعملة لأن الألفاظ المستعملة والمقدمات الصادقة أولى مايستعمل فى الشعر حيث يمكن ذلك

---

(٧٠) منهاج البلغاء ص ١٣٣ .

ويكون الوضع والغرض منه لائقا به[٧١]» .

* * *

والخلاصة من وجهة نظره أن صناعة الشعر لها أن تستعمل الكذب إلا أنها لاتتعدى الممكن من ذلك أو الممتنع إلى المستحيل وإن كان الممتنع فيها أيضاً دون الممكن فى حسن الموقع من النفوس[٧٢] . ذلك كان إسهام حازم فى قضية المبالغة .

أما المناقضة : فهو يرى أنه إذا تقابل المعنيان من جهتين لم يكن ذلك تناقضا أى أن التقابل يصح فى الكلام إذا لم يتواف المتقابلان فيه من جهة واحدة ولكن يناط هذا بجهة وهذا بجهة مثل قول ابن الرومى : —

وليسوا بأجذال الطعان ذوى القنا

ولكنهم بالحزم والرأى أجذال

ولم يخلقوا أبطال بأس ونجدة

ولكنهم بالرفق واللين أبطال

فجعلهم أبطالا من جهة وغير أبطال من جهة ، وأجذالا من وجه وغير أجذال من وجه ، وقد يتسامح بعضهم فى أن يورد معنى فى بيت ثم يأتى فى بيت آخر بمعنى يقابله ويجمع بينهما من جهة واحدة وذلك إذا كان البيت منقطعا عن البيت فيجرى البيتين مجرى قصيدتين ، أى أنه كما يجوز للشاعر أن ينقض فى قصيدة ماقال فى قصيدة أخرى ، كذلك يجوز له فى البيتين المتميز أحدهما عن الآخر أما إذا كان معنى البيت الواحد متعلقا بمعنى البيت الآخر

---

(٧١) منهاج البلغاء ص ٨٣ وص ١٣٤ .

(٧٢) منهاج البلغاء ص ١٣٦ .

فإن الجمع بين المتقابلين فيهما من جهة واحدة غير سائغ ، وترك التناقض على كل حال أحسن[٧٣] .

## — ١٥ —

لم يعالج حازم السرقات الأدبية فى كتابه «منهاج البلغاء» تحت هذا الاسم وإنما عالجها تحت ماسماه بمعلم دال على طرق العلم بأنحاء النظر فى المعانى من حيث تكون قديمة متداولة أو جديدة مخترعة، وقد دخل فى الموضوع رأسا بقوله : إن من المعانى مايوجد مرتسماً فى كل فكر متصوراً فى كل خاطر ، ومنها ما يكون ارتسامه فى بعض الخواطر دون بعض ومنها مالا ارتسام له فى خاطر ، وإنما يتهدى اليه بعض الأفكار فى وقت ما فيكون من استنباطه ، فأما القسم الأول فهو مثل مايتداوله الناس من تشبيه الشجاع بالأسد ، والكريم بالغمام ، وهذا القسم لاسرقة فيه ولاحجر فى أخذ معانيه لأن الناس فى وجدانها ثابتة مرتسخة فى خواطرهم سواء ولافضل لأحد على أحد فيها إلا بحسن تأليف اللفظ ، فإذا تساوى تأليف الشاعرين فى ذلك فإنه يسمى الاشتراك وإن فضلت عبارة المتأخر عبارة المتقدم فذلك الاستحقاق لأنه استحق نسبة المعنى إليه بإجادة العبارة عنه ، وإن قصرت فذلك الانحطاط .

وأما القسم الثانى فلا تسامح فى التعرض إلى شىء منه إلا بشروط منها : —

— أن يركب الشاعر على المعنى معنى آخر ، ومنها أن يزيد عليه زيادة حسنة ، ومنها أن ينقله إلى موضع أحق به من الموضع الذى هو فيه ، ومن

(٧٣) منهاج البلغاء ص ١٢٧ — ١٢٨ .

ذلك أن يقلبه ويسلك به ضد ماسلك الأول . ومن ذلك أن يركب عليه عبارة أحسن من الأولى وذلك كتحسين الشماخ العبارة عن معنى قول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوما
وقصر مبتغوها عن مداها
وضاقت أذرع المثرين عنها
سما أوس إليها فاحتواها

فجاء الشماخ بهذا المعنى فى عبارة أحسن من هذه وأوجز حيث يقول :—

اذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

فما وجد فيه شرط من هذه الشروط أو ماجرى مجراها فسائغة مجاذبة الشاعر فيه من تقدمه ، وماليس داخلا تحت تلك الشروط وماجرى مجراها مما يزيد فى المعنى زيادة مقبولة فهو سرقة محضة.

وأما القسم الثالث وهو ماندر من المعانى فلم يوجد له نظير وتسمى المعانى العقم ، فمن نقلها من غير زيادة فهو مفتضح لأنه تعرض لسرقة مالا يخفى على أحد أنه سرقة ، ومن أبرزها فى عبارة أشرف من الأولى فقد قاسم الأول الفضل ، إذ الفضل فى اختراع المعنى للمتقدم والفضل فى تحسين اللفظ للمتأخر فقد استحق المعنى عليه كما استحق الطرماح معنى النابغة حين زاد عليه فى قوله : —

من وحش وجرة موشى أكارعه
طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

بقوله : —

يبـدو وتضمره البـلاد كأنه
سيف على شرف يسل ويغمد

فزاد الطرماح عليه أن جعله مسلولا فى حال ظهوره مغمدا فى حال إضمار البلاد له .

ومراتب الشعراء فيما يلمون به من المعانى إذن أربعة : —

اختراع ، واستحقاق ، وشركة ، وسرقة . فالاختراع هو الغاية فى الاستحسان ، والاستحقاق تال له ، والشركة منها مايساوى الآخر فيه الأول ، فهذا لاعيب فيه ومنها ماينحط فيه الآخر عن الأول فهذا معيب . والسرقة كلها معيبة وإن كان بعضها أشد قبحا من بعض(٧٤) .

—١٦—

وحين عالج بناء القصيدة ووحدتها الفنية تكلم أولا عن : —

حسن الابتداء: وهو يرى أن تحسين الاستهلال والمطالع من أحسن الأمور فى صناعة الشعر ، إذ هى الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الغرة من الوجه ، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقى ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك ، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها ، وعنده أن الإبداع فى المبادىء لايخلو من أن يكون راجعا إلى ما فى الألفاظ من حسن مادة ، واستواء نسج ولطف انتقال وتشاكل اقتران وإيجاز عبارة وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن فى الألفاظ ، أو إلى ما

(٧٤) منهاج البلغاء ص١٩٢ — ١٩٦ .

فى المعانى من حسن محاكاة ونفاسة مفهوم وتطبيق مفصل بالنسبة إلى الغرض وما جرى مجرى ذلك مما يستحسن فى المعانى، أو إلى ما فى النظم من إحكام بنية وإبداع صيغة ووضع وما ناسب ذلك مما يحسن فى النظم، أو إلى ما فى الأسلوب من حسن منزع ولطيف منحى ومذهب وماجرى مجرى ذلك مما يستحسن فى الأساليب.[(٧٥)]

وهو ينبه إلى أن من الكلام ما له صورة تجعله لائقا أن يكون مفتتح قول ومنه ما ليس كذلك ويجب أن يجتلب القول للمبادىء من النوع الأول.

ويعد هذا التعميم يدخل فى التخصيص، فيتكلم عن البيت الأول من القصيدة على اعتبار أنه المطلع ويميل إلى أن يصرع ذاهباً إلى أن للتصريع طلاوة وموقعاً من النفس لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها ويستدل على ذلك بقول حبيب: —

وتقفولى الجدوى بجدوى وإنما

يروقك بيت الشعر حين يصرع

وهو يهتم بمفتتح المصراع، وبالكلمة الواقعة فى مقطع المصراع، وبجملة المصراع. ويضع لكل من هذه الثلاثة شروطا وبعبارة أخرى مقاييس جودة.

فأما ما يرجع إلى مفتتح المصراع فأن يكون دالا على غرض القصيدة، وأن يكون مع ذلك عذب المسموع، ولا يكون مما تردد على ألسنة الشعراء فى المطالع حتى أخلق وذهبت طلاوته كلفظ ( خليلى ) أو مما اختص به شاعر ولم يتعرض أحد لأخذه منه كقول امرىء القيس « قفا نبك » وأن يكون لطيفا محركا

---

(٧٥) منهاج البلغاء ص ٣٠٩ .

بالنسبة إلى غرض للكلام كالمناجاة والتذكر فى النسيب وما جرى مجراهما

والشروط الواجب توافرها فى الكلمة الواقعة فى مقطع المصراع هى أن تكون مختارة متمكنة حسنة الدلالة على المعنى تابعة له ، ويحسن إلى ذلك أن يكون مقطعها مماثلا لمقطع الكلمة التى فى القافية ، وأن يكون ما بين أقرب ساكن منها إلى المقطع من الحركات عدد ما بين أقرب ساكن من كلمة القافية وبين نهايتها من الحركات .

وصفات الحسن التى ترجع إلى جملة المصراع هى أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة ، وأن يكون المعنى شريفاً تاماً ، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة ، وأن تكون الألفاظ الواقعة فيه ولاسيما الأولى . والواقعة فى مقطعه مستحسنة غير كريهة من جهة مسموعها ومفهومها ، فإن النفس تكون متطلعة لما يستفتح لها الكلام به ، فهى تنبسط لاستقبالها الحسن أولا ، وتنقبض لاستقبالها القبيح أولا أيضاً .(٧٦)

ولا يقتصر اهتمام حازم على المصراع الأول ، وإنما يهتم بالمصراع الثانى كذلك فهو يطلب أن يكون المصراع الثانى مناسباً للمصراع الأول فى حسن عبارته ، وتمامها وشرف معناه ويكون مقطعه على ما ذكره وأشار إليه فى مقطع المصراع الأول .(٧٧)

ويمتد اهتمام حازم بمطلع القصيدة فيشمل البيت التالى للبيت الأول ، وأكثرما يكون هذا إذا كان البيت الثانى تتمة للبيت الأول مثل قول أبى تمام : —

---

(٧٦) منهاج البلغاء ص ٢٨٢ — ٢٨٤ .

(٧٧) منهاج البلغاء ص ٢٩٤ .

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى
ومحت كما محت وشائع من برد

وأنجدتم من بعد إتهام داركم
فياد مع أنجدنى على ساكنى نجد

ويجمل ذلك كله فى قوله : — وأجمل المبادىء ماتناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثانى ، وينبه إلى أن أكثر ما وقع الإحسان فى المبادىء على هذا النحو إنما كان من المحدثين ، فأما العرب المتقدمون فلم يكن لهم بتشفيع البيت الأول بالثانى كبير عناية .(٧٨)

أما حسن التخلص : فيعقد حازم له معرفاً خاصاً به ثم يعقب عليه بمأم عنه ، وهو يقرر فى كل من المعرف والمأم أن التخلص قد يتأتى فى شطر بيت أو فى بيت بجملته أو فى بيتين وأنه كلما قرب السبيل فى ذلك كان أبلغ . والذى يجب أن يعتمد فى الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض ، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتى الكلام ويجمع بين طرفى القول حتى يلتقى طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين فى أجزاء النظام ، فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن يشبهه ومنتقلة من معنى إلى معنى يناسبه ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما وجدت الأنفس فى طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه وكانت بمنزلة المستمر على طريق سهل بينا هو يسير فيه عفوا إذ تعرض له فى طريقه ما ينقله من سهولة المسلك إلى حزونته ومن لينه إلى خسونته ، وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المديح بعد النسيب دفعة من غير توطئة لذلك فإنها تستصعبه ولا تستسهله

(٧٨) منهاج البلغاء ص ٣٠٧ — ٣١٠ .

وتجد نبوة ما فى انتقالها إليه من غير احتيال وتلطف فيما يجمع بين حاشيتى الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذى يوجد للكلام به استواء والتآم(٧٩).

ومما يجب اعتماده فى التخلص أن يجهد فى تحسين البيت التالى لبيت التخلص فإنه أول الأبيات الخالصة للحمد أو الذم ، وأول منقلة من مناقل الفكر فيما تخلصت إليه ، فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محركا للنفس لتستأنف هزة ونشاطاً لتلقى ما يرد ، فإن العناية بهذا البيت نحو من العناية بالبيت الثانى من مطلع القصيد ، بل ربما كانت الحاجة إلى استثارة الهزة عند الانعطاف آكد منها فى استثارة ذلك عند المبدأ ، لكون صدر القصيدة وسماعه يذهب بقسط من نشاط النفس ربما لم يكن يسيراً ، فكانت الحاجة إلى استثارة النشاط عند أخذه فى الضعف آكد من الحاجة إلى استثارته فى حال توفره وجموحه.(٨٠)

وكما اهتم حازم بالمطالع اهتم بالمقاطع وهى أواخر القصائد لأنها منقطع الكلام وخاتمته ، فالإساءة فيها معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليها فى النفس ، ولا شىء أقبح من كدر بعد صفو .

وهو يطلب أن يكون ما وقع فيها من الكلام أحسن مما اندرج وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس قال : —

فأما الاختتام فينبغى أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهانى والمديح ، وبمعان مؤسية فيما قصد به التعازى والرثاء ، وكذلك يكون الاختتام فى كل غرض بما يناسبه ، وينبغى أن يكون اللفظ فيه مستعذبا والتأليف جزلا متناسباً ، فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه غير

---

(٧٩) منهاج البلغاء ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٨٠) منهاج البلغاء ص ٣٢١ .

مشغولة باستئناف شيء آخر (٨١).

. . .

أما موقف حازم من الوحدة الفنية للقصيدة العربية فيمكن أن نعرفه أو أن نستشفه من نظرته إلى قافيتها، وهو ينظر إلى القافية من أربع جهات هي: — جهة التمكن، وجهة صحة الوضع، وجهة كونها تامة أو غير تامة، وجهة اعتناء النفس بما وقع فى النهاية.

وهو يشرح الجهة الثالثة قائلا : — وأما مايجب فى القافية من جهة كونها منفصلة عما بعدها أو متصلة به فلا يخلو الأمر فى هذا من أن تكون الكلمة الواقعة قافية غير مفتقرة إلى ما بعدها ولا مفتقر ما بعدها إليها، أو يكون كلاهما مفتقراً إلى الآخر، أو تكون هى مفتقرة إلى ما بعدها ولايكون ما بعدها مفتقراً إليها، أو يكون ما بعدها مفتقرا إليها ولاتكون هى مفتقرة إليه.

فالقسم الأول هو المستحسن على الإطلاق، والأقسام الثلاثة أشدها قبحا مناقض القسم المستحسن، ويسمى افتقار أول البيتين إلى الآخر تضمينا لأن تتمة معناه فى ضمن الآخر والتضمين يكثر فيه القبح أو يقل بحسب شدة الافتقار أو ضعفه، وأشد الافتقار افتقار بعض أجزاء الكلمة إلى بعض، وربما صنع شعر قوافيه على هذا الوضع، ليعمى موضع القافية، وهذا قبيح جدا، ويتلوه فى شدة الافتقار افتقار أحد جزئى الكلام المركب المفيد إلى الآخر، وأما افتقار العمدة إلى تتمة الفضلة، والفضلة إلى الاستناد إلى العمدة فأقل قبحا من ذلك (٨٢).

---

(٨١) منهاج البلغاء ص ٢٨٥ — ٣٠٦.

(٨٢) منهاج البلغاء ص ٢٧٧.

— ١٧ —

ولقد كان حازم أحد الذين ثاروا على الكثافة البديعية، قال عن التجنيس: وأما مقدار ما يستعمل فى القصيدة من أصناف التجنيس فيجب ألا يعتنى بكثرته كل العناية، فإن ذلك يشاغل عن النظر فى المعانى[٨٣] وقال عن السجع: إن السجع لما كان زينة للكلام فقد يدعو إلى التكلف فرئى ألا يستعمل فى جملة الكلام، وألا يخلى الكلام بالجملة منه أيضاً، ولكن يقبل من الخاطر فيه ما اجتلبه عفوا بخلاف التكلف، وكيف يعاب السجع على الإطلاق، وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع فى كلام العرب، وإنما لم يجىء على أسلوب واحد لأنه لا يحسن فى الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد لما فيه من التكلف ولما فى الطبع من الملل عليه، ولأن الافتنان فى ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، فلهذا وردت بعض آيات القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل[٨٤].

— ١٨ —

يدل للعرف ( ح ) من المنهج الرابع فى القسم الأول من المطبوع وهو المعانى على طرق المعرفة بما يكون من المعانى أصيلا فى بابى المدح والذم، وما ليس منه أصيلا فى ذلك، وقد صدره حازم بمقدمة فلسفية قيمة ومهمة من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده قال: — ولما كان الإنسان فى جميع ما يحاوله ويسعى نحوه إنما يلتمس حظوظا يكون فيها صلاح لنفسه، أو حظوظا فيها صلاح لبدنه وكان استقصاء الإنسان مصالح نفسه، وابتغاؤه لها من كل وجه لا يصل

(٨٣) الدر النفيس ورقه ١٧.

(٨٤) منهاج البلغاء ص ٣٨٨ — ٣٨٩.

منه إلى غيره مضرة ولا ظلم ، وكان استقصاؤه حظوظ بدنه وطلبه لها من كل وجه يؤدى إلى ضرر غيره وظلمه والظلم قبيح فما أدى إليه قبيح ، وجب لذلك أن يكون الفضل فى القناعة من حظوظ البدن بما لا يؤدى إلى مزاحمة ذى استحقاق ، وفى الرغبة فى جميع حظوظ النفس ، وحظوظ النفس هى التى تكون لها خيرات وكمالات بالنظر إلى نعيمها الباقى ، وحظوظ البدن هى التى تكون لها خيرات وكمالات بالنظر إلى نعيمها الفانى ، فالفاضل من آثر نعيم نفسه الباقى على نعيم بدنه الفانى ، ومن أنصف غيره من ذوى الاستحقاق فيما فيه نعيم الفانى ، أو آثره بذلك على نفسه والإيثار أفضل ليعتاض بذلك ما يكون له سببا إلى النعيم الباقى كالأجر أو ما يتنزل فى توهمه منزلة النعيم الباقى كالذكر الجميل .

ولما كان للإنسان كمالات فى بدنه تصدر عنها أفعال ، وكمالات فى نفسه تصدر عنها أو تنحو نحوها أفعال وانفعالات ، وكمالات فى عقله تصدر عنها تمييزات وإدراكات ، وكان الإنسان فيما يصدر عن تلك الكمالات وينحو نحوها لا يخلو من أن يروم حظا يؤثر به نفسه على بدنه ، أو بدنه على نفسه ، أو غيره على نفسه ، أو نفسه على غيره ، وكان المحمود من ذلك إيثار نفسه على بدنه وإيثار غيره على نفسه ، والطرفان الآخران مذمومان ، وكانت الأفعال المحمودة والمذمومة من جميع ذلك تختلف رتبها فى مقدار ما يجب عليها من الحمد والذم بحسب اختلاف الأحوال المطيفة بها .

والأحوال المطيفة بالأفعال هى : — الزمان ، والمكان : وما منه الفعل ، وما إليه الفعل ، وما عنده الفعل ، وما به الفعل ، وما من أجله الفعل ، وجب أن يكون الفعل معتبرا بتلك الأحوال المطيفة فيكون بالنسبة إلى حال منها محمودا ، وبالنسبة إلى حال أخرى مذموما ويكون بالنسبة إلى بعض تلك الأحوال فى أعلى درجات

الحمد ، وتارة فى أدنى الدرجات من ذلك ووسطا بين الحالين ، وكذلك تختلف أيضا حاله فى درجات الذم بحسب اختلاف تلك الأحوال المطيفة .

* * *

وأكثر ما تعتد العرب به فى المدح الأفعال التى تتجشم الأنفس فيها الضرر لنفع غيرها ممن له أدنى استحقاق أو حاجة إلى ذلك، ولهذا قال أبو الطيب: —

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

والأمور التى تتجشم فيها النفوس المشقة والضرر لتنفع بذلك غيرها وتريحها، إما أن تكون حقوقا ثابتة قبل المتجشم للمشقة فيها فيكون ذلك منه نصفة وعدلا ، وإما أن تكون غير واجبة قبله بل يسمح بها تبرعا ، ويتفضل بها إيثارا فيكون ذلك منه نافلة وفضلا ، وأحسن المدح ما كان بهذا الصنف .

* * *

وحازم يتفق مع قدامة فى أن المدح والذم بمعناهما الحقيقى لا يكونان إلا بإثبات أو نفى الفضائل النفسية وأقسامها وتركيب بعضها مع بعض وهى العقل والعدل والشجاعة والعفة[٨٥] . لكنه يشترط أن تتحول هذه الفضائل وأضدادها إلى ملكات فى نفوس أصحابها أى تصير عادة لهم لا تفارقهم ، فإن وقع الفعل المسمى فضيلة ولم يتبعه صاحبه بمثله ولا تمادى فيه لم يستحق أن يسمى فاضلا ولا أن يثنى عليه الثناء المطلق ، وعلى هذا يجب أيضاً أن يكون الاعتبار فى وقوع الفعل المسمى رذيلة .

أما المدح والذم بالصفات المادية فهو أيضاً مع قدامة فى أن المدح بالحسن والجمال والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة، ويخطىء من يمدح بهذا ويذم بذلك .

(٨٥) نقد النثر ص ٢٠ — ٢٢ ومنهاج البلغاء ص ١٦٥ .

وإذا كان الآمدى قد رد هذا الرأى على قدامة وتابعه الخفاجى بقوله : « إن كان قدامة يعتقد أن ذلك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خلق عليه ، فهذا حكم الفضائل النفسانية ، فإن الكريم قد خلق كريماً ، والشجاع شجاعاً ، فكما لا يقدر القبيح الوجه أن يستبدل صورة غير صورته فكذلك الجاهل لا يقدر أن يستفيد عقلا فوق عقله » ، فإن حازماً ينبه إلى أن هذا الكلام للخفاجى غير صحيح لأن الحكماء المتكلمين فى الفضائل قد اتفقوا على أن الإنسان قد يقدر على أن يكتسب بعض الفضائل بالتطبع وأن يستكمل كثيراً مما نقصه من ذلك بالاعتياد والرياضة ومجاهدة النفس ، فينتقل برياضة النفس فى ذلك حالا فحالا حتى يصير الصعب قبل التطبع والارتياض سهلا بعدها ، ومازال الناس يروضون أخلاقهم بالتأدب والتدرب فتترقى بذلك فى مراتب الفضل درجاتهم وتتهذب بعد الجفاء أخلاقهم ، قيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ قال من قيس بن عاصم ، ولابد فى حصول هذا التطبع من سابق استعداد لتحصيله بالطبع فيخرج إلى الفعل بعد كونه فى القوة ، فأما خلقة الإنسان وصورته فليس فى قدرته نقل شىء منها عما وجد عليه ، فحمد الإنسان بما يستحسن من هذا القبيل مخادعة له ، وذمه بما يستقبح من ذلك تحامل عليه ، ويشهد لذلك ما رواه الرواة من أن المغيرة بن جبناء وزيادا الأعجم لم يزالا يتهاجيان حتى عيره زياد بعلل كانت أصابت بعض أهل بيته فقال المغيرة : « ماذنبنا فيماذكره ؟ هذه أدواء ، وإنما يعير المرء بما اكتسبه »

على أن حازماً لا ينكر أن رأى من رأى أن المدح بما ليس للإنسان فيه تصرف ولا له قدرة على تغييره عما هو عليه مما هو خارج عن الفضائل الأربع ، موافق لما حكى عن العرب فى ذلك ، لكنه يحد من الاسترسال فيه بشرطه أن يكون مما شأنه أن توجد الفضائل أبداً بوجوده(٨٦) .

(٨٦) منهاج البلغاء ص ١٦٢ — ١٦٩ .

## — ١٩ —

وقد أومأ حازم إلى الفرق بين القاعدتين العلمية والفنية من حيث أن الأولى ملزمة والثانية غير ملزمة وأقصى جهدها هو « ينبغى » أو « يحسن » ونحوهما قال : فقد تبين أن أفضل المواد المعنوية فى الشعر ما صدق وكان مشتهراً ، وأحسن الألفاظ ما عذب ولم يبتذل فى الاستعمال .

وكلا منا ليس واجباً على الشاعر لزومه ، بل مؤثراً حيث يمكن ذلك[٨٧] .

---

(٨٧) منهاج البلغاء ص ٨٢ .

— ٧ —

## العبـــدرى*

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدرى الحيحى . وتدل نسبته ( العبدرى ) على أنه من أصل عربى قوشى ، إذ هى إلى عبد الدار ابن قصى بن كلاب . فهل كان كذلك حقيقة ؟

أم أنها نسبة بالولاء إلى أحد رجال الفتح العربى من قريش ؟.
كلا الأمرين محتمل ، وأجدنى إلى الاحتمال الثانى أميل .

( ا ) فقد كان أسلافه يقطنون بلاد حاحة القبيلة البربرية ، وبلاد حاحة هذه كانت تحيط بمدينة الصويرة على الشاطىء الأطلسى ، والنسبة إليها حيحى على غير قياس وإنما على ما يتلفظ به أهل المغرب .

وقد ولد العبدرى فى بلاد حاحة هذه فأحبها وأخلص لها بحسبانها موطنه الأصلى ومسقط رأسه ، ولطالما حن إليها وناجاها فى رحلته ، ولما أدركه العيد بفاس فى عودته لم يطب نفساً بها على الرغم من جمالها واتساع عمرانها واشتمالها على العلماء والأدباء وكونها عاصمة مملكته ، ذلك أن قلبه معلق ببقعة مخصوصة من هذه المملكة هى بلاد حاحة حيث أسرته وأهله وأبناء عشيرته ، واسمع نبض قلبه فى قوله :

قالوا : تعيد فى فاس فطب فرحاً

فقلت : مالى بها دار ولا عطن

---

(*) لانعلم شيئا عن حياة العبدرى سوى أنه قام برحلته من بلاد حاحه إلى الأراضى المقدسة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٨ هـ الموافق ١٠ من ديسمبر سنة ١٢٨٩م ورجع إليها بعد اثنين وعشرين شهرا تقريبا وانظر تاريخ الأدب الجغرافى العربى تأليف اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكى وترجمة صلاح الدين عثمان هاشم طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٣ القسم الأول ص ٣٦٧ — ٣٦٨

فاس ومكناسة وطنجة وسلا
عندى كزديك[1] لا أهل ولا وطن
بغداد قفر إذا لم تحولى سكنا
والقفر بغداد إن أهلى به قطنوا

وإذا كان هذا هو حنينه إلى بلاد حاحه بخاصة ، فإنه وهو فى مصر قد ندى عينيه بدموع الشوق واللهفة إلى أفق المغرب بعامة . قال :

ذكرت بيوم الفطر فى مصر إذ أتى
وقوس النوى ترمى الحشا أسهم الكرب
فراخاً نأى أنسى بنأى محلهم
وصحبا كراما ضمهم أفق الغرب
فأفطرت من بعد الغدو بعبرة
غنيت بها يومى عن الأكل والشرب

(ب) ولما كانت اللغة البربرية هى اللغة الأصلية لسكان هذه البيئات المغربية فقد بقيت فى لهواتهم وعلى ألسنتهم يتحدثون بها فيما بينهم ليلهم ونهارهم ، كانت كذلك أيام العبدرى بل هى كذلك الآن وبخاصة فى هذه الأطراف النائية من المغرب الأقصى ، ومن هنا جاء اكتساب العبدرى لها وعلمه بأصولها وقواعدها يبدو ذلك بوضوح وهو يصحح لأبى عبيد البكرى صاحب الممالك والمسالك بعض الأغلاط فى صفات البلدان وتحديدها قال : ومن ذلك أنه ذكر من بلاد الصحراء بلدة يقال لها ( تاد مكة ) وترجمها فقال : تاد : الهيئة أى أنها على هيئة مكة .

---

(١) زديك برية قفرة فى الجمهورية العربية الليبية بين طرابلس وبرقة وانظر وصفها فى الرحلة ص ٨٥ .

وليس معنى ( تاد ) الهيئة كما ذكر ولا للهيئة اسم فى لسانهم ألبتة وإنما معنى ( تاد ) هذه وهى من أسماء الإشارة عندهم . يقولون لهذا ( واذ ) . ولهذين ولهؤلاء ( ويد ) ولهذه ( تاد ) ولهاتين وهؤلاء ( تيد ) وليس للمثنى عندهم عبارة سوى عبارة الجمع إلا فى ألفاظ العدد . فمعنى ( تاد مكة ) هذه مكة أى مشبهتها[٢] .

( ج ) وأمر ثالث هو أن العبدرى لم يشر أية إشارة ولم يلمح أى تلميح إلى أصله العربى . أجل . إنه لم يفعل ذلك كذلك بالنسبة لأصله البربرى ، وإذا استويا فرضاً وجدلا فإن ولادته وإقامته هو وأسرته بين قبيلة حاحة البربرية فى بلادها النائية ونسبته إليها تكون عوامل مرجحة لأصله البربرى .

وواضح أن بوتقة الإسلام والعربية كانت قد صهرت ضمن ما صهرت هذه الفروق العنصرية وساوت بين العرب وغيرهم من الأمم الأعجمية ، ولم تكن الظروف فى المغرب العربى مواتية لظهور شعوبية بربرية على غرار الشعوبية ذات المنازع المختلفة فى المشرق .

ولعله من هنا كان سكوت العبدرى عن الخوض فى النعرة العربية أو البربرية له، وبحسبه تحويده لعلوم اللغة والدين والأدب ليكون فى السنام من أمة العرب .

* * *

ولا نعرف للعبدرى سوى كتابة المسمى بالرحلة المغربية ، وقد قرأتها[٣] فوجدتها حافلة بالنقد التطبيقى وبقليل من النقد النظرى ، وهى بأسلوبها وبما

---

(٢) الرحلة ص ٢٠٩ .

(٣) طبعة الرباط سنة ١٩٦٨ تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسى .

للها من أحكام نقدية جزئية تدل على الاتجاه الأدبى وعلى الذوق الفنى
صاحبها ، وقد رأيت لهذا أن أجعلها حلقة فى سلسلة النقد الأدبى بالمغرب العربى.
ونقف منها عند الأمور الآتية : —

— ١ —

## فى تلمسان

أنشد أبو عبد الله محمد بن محمد بن خميس التلمسانى ، العبدرى قصيدة له
مطلعها : —

أنبت ولكن بعد طول عتاب
وطول لجاج ضاع فيه شبابى

وبعد عشرين بيتاً قال : —

ولكنها الدنيا تكر على الفتى ... وإن كان منها فى أعز نصاب
وعادتها ألا توسط عندها ... فإما سماء أو تخوم تراب
فلا ترج من دنياك وداً وإن يكن ... فما هو إلا مثل ظل سحاب
وما الحزم كل الحزم إلا اجتنابها ... وأشقى الورى من تصطفى وتحابى

وبعد ثمانية أبيات قال : —

وما أسفى إلا شباب خلعته ... وشيب أبى إلا نصاب خضاب
وعمر مضى لم أخل منه بطائل ... سوى ما خلا من لوعة وتصاب
ليالى شيطانى على الغى قادر ... وأعذب شىء محنتى وعذابى
عكسنا قضايانا على حكم عادنا ... وما عكسها عند النهى بصواب

على أحمد المختار أزكى تحيتى فتلك التى أعتد يوم حسابى

كتب العبدرى : « قلت هذه القصيدة مهذبة الألفاظ والمعانى ألذ من نغمات المثالث والمثانى ، إلا أن مقطعها قلق ناب ، لا يلين ولو مضغ بضرس وناب ، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج ، ولا يزال السمع به يقلق وينزعج ، وقد زاولته ليلتحم فأبى وحاولته ليلتئم فنبا. وقوله : — « فإما سماء أو تخوم تراب » الوجه فيه « وإما تخوم تراب » بتكرير إما بعد حرف العطف ، وقلما يؤتى بها غير مكررة إلا نادراً كقول القائل : —

إما فتى نال العلا فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح

* * *

ومرة ثانية أنشد ابن خميس العبدرى قوله من قصيدة له : —

ويا برقا أضاء على أوال يمانيا متى جئت الشآما

أثغر أمامة أنت ابتساما أم الدر الأوالى انتظاما

خفقت ببطن واديها لواء ولحت على ثنيتها حساما

أمشبه قلبي المضنى احتداما على ما ذدت عن جفنى المناما

ولم أسهرتنى وصددت عنى خيالا كان يأتينى لماما

وقد علق العبدرى بقوله : — قلت : أنكر غير واحد أن يقال الشآم بالمد فى غير النسب ، وليس إنكاره بشىء ، وهو ممدود فى شعر حبيب ، وقد ردوه ولم يروه حجة ، ونسوا قول النابغة الذبيانى : —

على أثر الأدلة والبغايا

وخفق الناجيات من الشآم

ويروى « من السآم » بالمهملة جمع سآمة والحجة فى الرواية الأولى .

وكذلك أنكروا تشديد الياء من اليمانى لأن الألف كالعوض من التشديد ، كما رأوا المد بزعمهم فى شآم عوضاً من تشديد ياء النسب، وإذا جاز مده فى غير النسب جاز تشديد الياء مع المد، وقد أنشد المبرد على تشديد ياء اليمانى مع زيادة الألف : —

فأرعد من قبل اللقاء ابن معمر
وأبرق إبراق اليمانى خوان

وهذا البيت أيضاً شاهد لمن قال : أرعد وأبرق بالألف أى تهدد . وأصله من الرعد والبرق وقد أنكره بعضهم بالألف وقال : إنما هو رعد وبرق بغير ألف ، وكذلك رعدت السماء وبرقت ، والصواب أنهما لغتان وأشهرهما بغير ألف ، وعليها قول الشاعر : —

فإذا حللت ودون بيتى ساوة
فابرق بأرضك ما بدا لك وارعد

وقوله: « على ماذدت ». الوجه فيه حذف الألف لأن ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر حذف منها الألف لكثرة الاستعمال ، وفرقا بينها وبين الخبرية قال الله تعالى : — « فيم أنت من ذكراها » وقال جل شأنه : — « فيما هم فيه مختلفون » .

ولو حذف الألف منها لصح الوزن وكان الجزء معقولا ، ولكنه زحاف قبيح ، ولو قال صددت أو طردت أو تذود أو نحو ذلك لسلم من الوجهين معاً وتخلص من الصورتين جميعاً .

* * *

وقد نقل العبدرى عن ابن خميس عن أبى بكر محمد بن عبد الله بن دواد ابن خطاب المرسى عن العالم الفقيه المسن أبى بكر محمد بن محرز الزهرى .

أقول : نقل العبدرى قول ابن محرز لابنه الأصغر ابن عامر : —

يابنى وليس مثلى يسهو
عند وعظ يرويه مثلك عنه
أنت ضيف الدنا فأقلل عيوباً
من قراها واخش الردى من لدنه

ثم علق عليه بقوله : — قلت : لو قال ابن محرز : — « أنت ضيف الدنيا » لقام الوزن وسلم من غرابة هذا الجمع فإن جمع الدنيا غريب نادر ، وقد عابه صاحب اليتيمة على أبى الطيب فى قوله : —

أعز مكان فى الدنا سرج سابح
وخير جليس فى الزمان كتاب

ويستطرد العبدرى قائلا : — وأنشدنى بيتين للشيخ الأديب الفاضل أبى الطيب صالح بن شريف الرندى رحمه الله وقال : أنشدنيهما عنه أبو عباس اللبلى الكاتب ، وكان لابن خميس فيهما نقد لم أرضه فلم يعلق بخاطرى ، وذكره لى عن ابن خطاب وأنه لم يرضهما ، وذلك منهما تعسف بين وهما قوله : —

سلت ظبا الألحاظ مرهفة على   قلب أرق من الهوى المكتوم
نزعات رام وهى نزعة ريمة   شقت صميم حشاى قبل أديمى

وهذا أغرب ما يكون من الشعر وأرقه وأحسنه لفظاً ومعنى .

* * *

ولقد كان لابن خميس جار اسمه أبو زكريا يحيى بن عصام يصفه العبدرى بأنه رجل متقلل حيي متعفف له حظ من اللغة ، ويقرض من الشعر مالا بأس به ، وقد أنشده أحد عشر بيتاً رداً على هذين البيتين لمعتزلى وهما : —

لجماعة سمت هـــواها سنة وجماعة حمر لعمرى موكفة
قد شبهوا معبـــودهم وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة

وبعد أن سمع أبيات ابن عصام قال : —

وقد نظم القاضى رحمه الله أبو حفص بن عمر فى هذا أيضاً فقال : —

أجعلتم العلماء حمراً موكفة هذا لأنكم أولوا تلك الصفة
أجهلتم صفة الإله وفعـــله ونسبتموه لغيره بالزخرفة
وأردتم تنزيهه فوقعتم فى الشرك والإلحاد والأمر السفه
خالفتم سنن النبى وصحبه وتبعتم فى الزيغ أهل الفلسفة

ويتعقب العبدرى أبا حفص بنقد يمت بصلة وثقية إلى فقه اللغة قال : —

خفف القاضى رحمه الله الحمر . والتخفيف فى فُعُل مطرد إلا فيما يلتبس . وهو هنا يلتبس بجمع أحمر فينبغى ألا يخفف ، ولم يقرأ فى السبع : « كأنهم حمر مستنفرة » إلا بالتثقيل ، ومن هذه الجهة أنكر المحققون إسكان الباء فى قوله صلى الله عليه وسلم : اللهم أنى أعوذ بك من الخبث والخبائث لما كان إسكانه يلتبس بالمفرد[٤] .

(٤) الرحلة المغربية ص ١٤ — ٢٣ .

— ٢ —

## فى قسنطينة

لما كان العبدرى بقسنطينة التقى بالشيخ أبى على حسن بن بلقاسم بن باديس، ولقد سأله عن الأديب أبى على حسن بن على بن محمد القسنطينى المعروف بابن الفكون[٥] فذكر له أنه أدركه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولداً ولا وفاة، ثم رام أن يجد من يروى عنه قصيدته المشهورة فى رحلته من قسنطينة إلى مراكش، ولما لم يجد، قيدها هنالك غير مروية، وكان ابن الفكون قد كتب بها إلى أبى البدر بن مردنيش وهو بقسنطينة وهذه هى : —

ألا قل للسرى ابن السرى ... أبى البدر الجواد الأريحى
أيا معنى السيادة والمعالى ... ويا بحر الندى بدر الندى
أما وبحقك المبدى جلالا ... وما قد حزت من حسب على
وما بينى وبينك من ذمام[٦] ... وما أوتيت من خلق رضى
لقد رمت العيون سهام غنج[٧] ... وليس سوى فؤادى من رمى
فحسبك نار قلبى من سعير ... وحسبك دمع عينى من أتى[٨]
وكنت أظن أن الناس طرا ... سوى زيد وعمر غير شى
فلما جئت « ميلة » خير دار ... أمالتنى بكل رشا أبى
وكم أورت ظباء بنى ورار ... أوار الشوق بالريق الشهى[٩]

(٥) انظر ترجمته فى عنوان الدراية للغبرينى ص ٢٨٠ — ٢٨٦ .
(٦) الذمام : الحق والحرمة .
(٧) الغنج : الدلال .
(٨) الأتى : السيل يأتى من حيث لايدرى .
(٩) أورت : أشعلت . ظباء = غزلان . بنى ورار = قبيلة . أوار = حرقة الشوق .

وجئت « بجاية » لجلت بدورا يضيق بوصفها حرف الروى
وفى أرض « الجزائر » هام قلبي بمعسول المراشف كوثرى
وفى « مليانة » قد ذبت شوقا بلين العطف والقلب القسى
وفى « تنس » نسيت جميل صبرى وهمت بكل ذى وجه وضى
وفى « مازونة » مازلت صبا بوسنان المحاجر لوذعى
وفى « وهران » قد أمسيت رهنا لظامى[10] الخصرذى ردف روى
وأبدت « تلمسان » لى قدوداً جلبن الشوق للقلب الخلى
ولما جئت « وجدة » همت وجدا بمنخنث المعاطف معنوى
وحل رشا « الرباط » رشارباطي وتيمنى بطرف بابلى[11]
وأطلع قطر « فاس » لى شموساً مغاربهن فى قلب الشجى
وما « مكناسة » إلا كناس[12] لأحوى الطرف ذى حسن سنى
وإن تسلا عن ارض «سلا» ففيها ظباء صائدات للكمي[13]
وفى « مراكش » ياويح قلبي أتى الوادى فطم على القرى[14]
بدور بل شموس بل صباح بهى فى بهى فى بهى
أتحن مصارع العشاق لما سعين به فكم ميت وحى

(١٠) لظام : أصله لظامئ، أى عطشان وكنى به عن النحيل . الخصر : الوسط . الردف الروى : العجيزة المكتنزة الغليظة ويروى لضام وهو مرخم ضامر .
(١١) الرشا الأول : الظبى ، والرشا الثانى بكسر الراء الحبل . والرباط : مدينة تازة وتدعى رباط تازة ، وكثيرا ماتختلط على المتأخرين برباط سلا أى رباط الفتح التى أسست بعد تازه بقرون والتى لم يكن لها كبير ذكر حتى اتخذها الفرنسيون عاصمة للمغرب بعد فرضهم الحماية عليه
(١٢) الكناس : مأوى الظبى
(١٣) الكمى : الشجاع لابس السلاح .
(١٤) القرى : مسيل الماء من الربوة إلى الروضة .

بقامة كل أسمر سمهرى ومقلة كل أبيض مشرفى[١٥]
إذا أنسونى الولدان حسناً أنسيهم هوى غيلان مى[١٦]
فها أنا قد تخذت الغرب دارا وأدعى اليوم بالمراكشى
على أن اشتياق نحــو زيد كشوقى نحو عمرو بالسوى
تقسمنى الهوى شرقا وغربا فيا للمشرقى المغربى
فلى قلب بأرض الشرق عان وجسم حــل بالغرب القصى
فهذا بالغدو يهيم غرباً وذاك يهيم شرقاً بالعشى
ولولا الله مت هوى ووجدا وكم لله من لطف خفى

هذه القصيدة الرائعة لم تسلم من نقد العبدرى ، وإن نقده لها لنقد فنى موضوعى بكل معانى الفنية والموضوعية ، وهو يدل على ذوق وذكاء قال : قلت : قال أهل اللغة : الغَنج والغُنج : الدل وحسن الشكل . فقوله : لقد رمت العيون سهام غنج غير ملائم ، وقائله لا يسلم من لائم . ولا يحسن فى الأدب خطاب ذوى الرتب بمثل قوله : —

« فحسبك نار قلبى من سعير »

وإذا نعى على أبى الطيب قوله : —

فحسبك داء أن ترى الموت شافيا .

وقوله : —

إذا ما لبست الدهر مستمتعاً به تخرقت والملبوس لم يتخرق

وقد علم أن المخاطب بذلك غير الممدوح ، فما الظن بهذا ؟ ؟ وقوله : — أما وبحقك المدى جلالا (البيتين) .

---

(١٥) السمهرى : الرمح الصلب ، والمشرق : السيف .
(١٦) غيلان : هوذو الرمة عاشق مى الشهيرة فى الأدب العربى .

وقوله :ـ

. . . . . بوسنان المحاجر لو دعى

موضوع فى غير موضعه ، فإن الوسن إنما يوصف به الجفن والعين والطرف وما جرى مجراه كما قال عدى بن الرقاع : —

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

وأفرطوا حتى جعلوه مرضاً فقال النابغة : —

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وتبعه جرير فقال : —

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وأما المحاجر فما وصفها أحد بالوسن فيما أعلم . وترتيب اللودعى مع وصف المحاجر كترتيب الدل مع الشنب والتحاكم فى ذلك إلى كثير .

وقوله « معنوى » بعد مخنث المعاطف أبعد من هذا ولقد استربت به حتى ظننت أنه مصحف ولا أتبرأ فيه من تصحيف ، وذكر الانخناث فى المعاطف ليس بدون هذا فى القبح ، فإن اللفظ وإن كان له أصل فى اللغة فى اللين والتثنى فقد رفعه كثير الاستعمال فى وجه آخر ، وإنما جرت عادة الشعراء فى وصف المعاطف بذكر التثنى واللين والانعطاف بالانخناث ، وقوله « رشا رباطى » لفظ مختل جاف ماجلبه إلا التجنيس ، وإذا وجد الرشا والرباط فما بقى إلا الضرب ، وأى رقة فى هذه الألفاظ الجافية ؟ . . .ولو قال : « رشا ارتباطى » لكان أقرب مع بعده لأنه أراد التماسك والتثبت ، فالارتباط به أليق ، وقوله : — « مغاربهن فى قلب الشجى » خارج عن اعتدال الكلام فإنه أراد بما ذكر من غروبهن فى القلوب اشتمالها على حبهن ، ولس إذا غرب حبهن

فى القلوب فقد غربن فيها ، ولايحسن أن يقال : مطلعهن قطر فاس ومغرب حبهن قلب الشجى ، وإنما يحسن أن يذكر فى غروبهن فى القلوب مايغيبهن عن النواظر كالخدور ونحوها ، وبذلك جرت عادة الشعراء وهو مستعمل كثيراً نحو قوله : —

قمر إذا استخجلته بعتــابه    لبس الغروب ولم يعــد لطلوع

ونحو منه قول أبى الطيب : —

بأبى الشموس الجانحات غواربا .

فهذا الرجل لم يخالف مبدعا ولم يوالف متبعا :    وقوله : —

يــــدور بل شموس بل صباح    . . . . . . . . . . .

نزول مفرط وعكس للرتبة ، فإن الشمس أشهر من الصباح وأنور ، والانتقال من التشبيه بالأعلى إلى الأدنى أشبه بالذم منـــه بالمدح ولاسيما مع الإضراب .

وقوله : —

. . . . . . . . . . . بهى فى بهى فى بهى

غير منطبق على صدر البيت ولاملائم له . ولو قال .

بــــدور فى خــــدور فى قصـــور

لجاء عليه عجز البيت أليق من العقد بجيد الحسناء : وأوفق من الجود للروضة الغناء وقوله : —

إذا أنسونى الولدان حسنا . . . . . .

ضعيف ساقط لأن التشبيه والتمثيل يجب أن يكونا فى كل صنعة بماتعارفه أهلها واشتهر عندهم ، هذا على تقدير التقييد فى الولدان فكيف واللفظ مبهم مطلق يدخل تحته كل مايسمى ولدا .

وقوله : —

فهـــذا بالغدويهيم غـــربا . . . . . . . . . .

كلام غير محصل ، فإن الجسم العرى من القلب لايهيم ، وإنما يهيم القلب وليست الباء هنا ظرفية بمعنى « فى » لأن الهيمان لا يتخير الأوقات وما أضعف حباً لايهيم إلا مرة فى اليوم وإنما هى للإلصاق ، أى هذا يشتاق فى وقت الغروب إلى الغدو ، وذلك فى وقت الشروق إلى العشى شوقا من هذا إلى الشرق ومن ذلك إلى الغرب وهو معنى حسن لو ساعده اللفظ(١٧) .

## — ٣ —
## فى تونس

لم ينصف العبدرى من البلاد التى دخلها سوى (تونس) فهو يثنى عليها وعلى أهلها بقوله : ـ « وناهيك ببلد لا يستوحش به غريب ولا يعدم فيه كل فاضل أريب ، ولولا أنى دخلتها لحكمت بأن العلم فى أفق الغرب قد محى رسمه وضاع حظه وقسمه ولكن قضى الله بأن الأرض لاتخلو من قائم له بحجة يرى سبيل الحق ويوضح المحجة ، وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائما ولا مورد من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله ورادا وقائما(١٨) .

ولقد لقى العبدرى آحادا من علماء تونس وأعلامها كالفقية الأديب الفاضل المسند المسن أبى محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائى القرطبى ، والأديب النحوى المحدث الراوية أبى جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى ، والفقيه الأديب الفاضل أبى عبد الله محمد بن عبد المعطى بن محمد النفزى الشهير بأبى هريرة ، وعلى الأخير قرأ العبدرى القصيدة الشقراطسية لناظمها الشيخ

(١٧) الرحلة ص ٤٣ — ٤٧ .
(١٨) الرحلة ص ٤١ — ٤٢ .

الفقيه الصالح أبى زكرياء يحى بن على الشقراطسى المتوفى سنة ٤٦٦ هجرية وشقراطس قصر قديم من قصور قفصة :

وقد جاءت هذه القصيدة فى ثلاثة وثلاثين ومائة بيت مطلعها : —

الحمـــد لله منـا باعث الرسل      هـــدى بأحمد منا أحمد السبل

خـــير البريةمن يدوو من حضر      وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

ومقطعهـا : —

ياخالق الخلق لاتخلق بما اجترمت      يداى وجهى من حوب ومن زلل

واصحب و صل و واصل كل صالحة      على صفيك فى الإصباح والأصل

وقد نقدها العبدرى بقوله : —

قلت أبدع هذا الناظم رحمه الله فيما نظم وشرف هذه القصيدة بقصده الجميل فيها وعظم فراقت معنى ومنظراً وشاقت حساً ومخبراً فهى كما وصفهـا أبو عبد الله المصرى حين قال : يئست عن معارضتها الأطماع وانعقد على تفضيلها الإجماع فطبقت أرجاء الأرض وأشرقت منها فى الطول والعرض ، على أنه رحمه الله قد أكثر فيها لأجل الصناعة التصنع وتكلف منها ما هو بعيد المرام شديد التمنع ، واعترض فى كل معنى عرض ، وربما أغرق النزع فخلف الغرض كقوله : —

فويل مكة من آثار وطأته      وويل أم قريش من جوى الهبل

وقوله : —

أم اليمامة يوم منـــه مصطلم      وحل بالشام شؤم غير مرتحل

وما جرى هذا المجرى من كلامه رحمه الله ولكن قصيدته بالجملة قدحلت من البلاغة فى حصن ممنع وجلت وجهازهاه الحسن أن يتقنع فإن أنكرت من

وصفها قولا أو سمعت فى مدحها تخصيص « لولا » أخردت متأملة وأنشدت متمثلة : —

ما سلم البدر على حسنه　　　كلا ولا الظبى الذى يوصف
البدر فيـــه كلف ظاهر　　　والظبى فيـه خنس يعرف

وقد أولع الناس بها كل الولوع واستحسنوا من محاسنها كل مفرق ومجموع وعنوا بها شرحاً وتخميساً وعنوا بها معهداً أنيساً نخمسها وشرحها أبو عبد الله المصرى وقد قرأت تخميسه على صاحبنا الفقيه أبى عبد الله بن هريرة وحدثنى به عنه قراءة وأوله : —

ابدأ بحمد الذى أعطى ولم تسل　　　وذد به ريب رين الأين والكسل
فالحمد أحلى جنى من طيب العسل　　　الحمد لله منـا باعث الرسـل
هدى بأحمد منا أحمد السبل

وهو تخميس لا بأس به ووسمه بسمط الهدى فى الفخر المحمدى ، وخمسها أيضاً الفقيـــه الأديب الأفضل القاضى أبو عمرو عثمان ابن عتيق المعروف بابن عريبة وهو من المشاهير بأفريقية وشعره مجموع ووقفت عليه بخطه وأكثره قعقعة ما ترسل بغيث مزنا وكما قيل : جعجعة ولا أرى طحنا وقد قرأت تخميسه على شيخ من أصحابه يعرف بأبى إسحق التلمسانى وحدثنى به عنـــه قراءة وأوله : —

أربع من العلم الأسنى على طلل　　　فكم ضحيت ولم تفزع إلى طلل
فإن عشوت إلى نار الهدى فقل　　　الحمد لله منا باعث الرسل
هـدى بأحـمـد منـا أحمد السبل

وخمسها أيضاً الفقيه الأديب الفاضل أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف

ابن حبيش رحمه الله وهو من المتقنين المجودين وذوى الفضائل المبرزين واعتنى بها اعتناء تاماً وتصرف فيها على أوجه كثيرة من تخميس وغيره وكرر تخميسها ثلاث مرات وسماها القرب الثلاث ، حدثنى بها كلها عنه صاحبنا الفقيه أبو عبد الله بن هريرة إجازة ومناولة فى أصله بخطه الذى قرأه عليه ، وقد علق بحفظى مطلع أول تخميس منها وهو قوله : —

عزل الشباب قضى أن المشيب ولى　　فما التغزل من قولى ولا عملى

حمد الإله ومدح المصطفى أملى　　الحمد لله منا باعث الرسل

ومن تأمل هذه البدأة وتمكنها ومناسبة هذه الأقسام للبيت رأى قدر التفاوت فيما بين هذا النظم والذى قبله . أما تمكنها فلأنه لما جرت عادة الشعراء بالافتتاح بالتغزل ،وطأ بالافتتاح بغيره بما ذكر من أن الوقت اللائق به التغزل هو عصر الشباب وأن اللائق بعصر الشيب هو ذكر الله والإقبال على الحمد له، وأحسن الاستعارة فى ذكر الولاية والعزل ، ولما رأى أن البيت متضمن لمعنين : حمد الله تعالى ، ومدح رسوله صلى الله عليه وسلم ، وطأ لهما معاً فى القسم الذى قبله حتى جاءت الأقسام والبيت فى غاية التنلسب كأنها نظم رجل واحد . وما ذكر من الولاية والعزل فى الشباب والشيب استعارة حسنة واقعة موقعها . وقد كان هذا المعنى عرض لى قديماً فنظمته فى بيت من قصيدة وزدت فيه معنى آخر وهو أن الشيب لما ولى قام بأعلى الرأس خطيباً لما كان من شأن الوالى الخطبة والصعود لها على المنبر ، وحسن أن يستعار ذلك للشيب لما كان نذيراً زاجراً فقلت فى ذلك : —

شبابى وال جاء شيبى بعزله　　فقام بأعلى الرأس منه خطيب[١٩]

* * *

ويفتح الله بتونس على العبدرى فى مجال النقد الأدبى بأكثر من هذا

---

(١٩) الرحلة ص ٤٥ — ٥١ .

الذى رأيناه له فى قصيدة الشمراطسى . اجل . إن النص المعروض نص قرآنى لـكنه يبدع فى فهمه وتذوقه فهماً وتذوقاً يليقان بكلام الله تعالى وإعجازه ،سأله أحدهم عن قوله تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » وقال : لم كرر لفظ إحداهما والأليق بالإيجاز أن يضمر فيكون اللفظ « فتذكرها الأخرى » ؟

يقول العبدرى : — وأجبت إذ ذاك بجواب غير مخلص حسبما حضرنى ثم من الله جل جلاله وعلا بفهم المعنى فى ذلك وهو بديع فيما أرى والله أعلم وهو أن إعادة لفظ إحداهما لِتَعَادُلِ الكلم وتَوَازُنِ الألفاظ فى التركيب وتَمَاثُلِ أقسام الكلام فيما اشتملت عليه من المفردات وهو المعنى فى الترصيع[٢٠] ولكن هذا أبلغ وأبدع لأن الترصيع توازن الألفاظ من حيث صيغتها وهذا من حيث تركيبها وكأنه ترصيع معنوى وقلما يوجد إلا فى نادر من الكلام ، استغرب أبو الفتح ابن جنى ما حكى عن المتنبىء فى قوله : —

وقد عادت الأجفان قرحاً من البكا      وعادت بهارا فى الخدود الشقائق

وقال : — سألته : هل هو قرحى ممال أو قرحاً منون ؟ فقال لى : — قرحا منون . ألا ترى أن بعده : وعادت بهارا .قال: يعنى أن بهارا جمع بهارة،

---

(٢٠) مأخوذ من ترصيع العقد بأن يكون فى أحد جانبيه من اللالىء والجواهر مثل ما فى الجانب الآخر . وهو قسمان : ـ قسم تكون فيه كل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى مساوية لكل لفظه من ألفاظ الفصل الأول فى الوزن والقافية كقول الحريرى : « فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه . وقسم يكون أحد الفاظ الفصل الثانى مخالفا لما يوازيه من الفاظ الفصل الأول كقول تأبط شرا : ـ

حمال ألوية شهاد أندية    .·.    قوال محكمة جواب آفاق .

فاندية مثل ألوية فى الوزن والقافية ولكن « شهاد » لا يماثل « حمال » قافية وإن ماثله وزنا ، وانظر الجامع الكبير لابن الاثير ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥ طبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٦ م ـ ١٣٧٥ هـ .

وقرحا جمع قرحة ، ثم أطنب فى الثنـــاء على المتنبي واستغراب فطنته لأجل هذا .

وبيان ما ذكرت فى الآية أنهامتضمنة لقسمين :قسم الضلال وقسم التذكير فأسند الفعل الثانى إلى ظاهر حسب إسناد الأول ولم يوصل بضمير مفعول لـكون الأول لازما فأتى بالثانى على صورته من التجرد عن المفعول ، ثم أتى به أخيراً بعد اعتدال الـكلام وحصول التماثل فى تركيبه ، ولو قيل إن المفعول حذف حذفاً لـكان أبلغ فى المعنى المذكور وتـكون الأخرى بدلا أو نعتاً على جهة البيان كأنه قال : إن كان ضلال من إحداهما كان تذكير من الأخرى وقدم على الأخرى لفظ إحداهما ليسند الفعل الثانى إلى ما أسند إليه الأول لفظا ومعنى والله أعلم .

* * *

ومن تداعى المعانى ما يستطرد إليه العبدرى بعد ذلك بقوله : — ولما وقع السؤال فى هذا عرض لى سؤال فى قوله تعالى فى هذه الآية « فإن لم يـــكونا رجلين » وهو أن الضمير فى يكونا للرجلين ، لأن الشهيدين قيـــدا بأنهما من الرجال ووكأن الـكلام : فإن لم يكن الرجلان رجلين وهذا محال .

ولمـا سألت عن هذا لم يجب عنه أحد ثم أجابوا بعد ذلك بأجوبة غير مرضية .

والذى يظهر لى من الجواب فى هذا هو أن « الشهيدين » لما صح أن يطلق على المرأتين بمعنى شخص شهيدين قيده تعالى بقوله من رجالـكم ثم أعاد الضمير فى قوله فإن لم يـكونا على الشهيدين المطلقين وكان عوده عليهما أبلغ ليـكون نفى الصفة عنهما كما كان إثباتها لهما ، فيـــكون الشرط موجباً ومنفياً عن الشهيدين المطلقين لأن قوله « من رجالـكم » كالشرط كأنه قال : إن كانا رجلين .

وفى النظم على هذا الأسلوب من الارتباط وتعانق الـكلام وجريه على نمط واحد ما لا خفاء به ، كما أن فى ضده من الاختـــلاف والتزايل والتدابر والتخاذل ما يذهب رونق الـكلام ويبلى جدة الفصاحة وبالله التوفيق .

والذى يظهر لى أيضاً من الجواب فى قوله تعالى : — «فإن كانتا اثنتين» هو أن المضمر هنا وضع موضع الظاهر اختصاراً لبيان المعنى بدليل أنه لم يتقدمه ما يعود عليه لفظاً فـكأنه قال : — فإن كان الوارث اثنتين ثم وضع ضمير الاثنتين موضع الوارث الذى هو جنس لما كان المراد به الاثنتين، وأيضاً فإن الإخبار عن الوارث وإن كان جنساً باثنتين فيه تفاوت ما ، لـكونه مفرد اللفظ، فـكان الأليق بحسن النظم والأجرى على منهج الإيجاز أن يوضع المضمر موضع الظاهر ثم يجرى الخبر على من حدث عنه وهو الوارث فيجرى الـكلام فى طريقه مع الإيجاز فى وضع المضمر موضع الظاهر والسلامة من تفاوت اللفظ فى الإخبار عن لفظ مفرد بمثنى ، وهذا لعمر الله ممـــا لاينال إلا بالتأييد الإلهى والعصمة الربانية .

• • •

ونظير هذا مما وضع فيه اسم موضع غيره إيجازاً ثم جرى الـكلام مجراه فى الحديث عمن هو له وإن لم يذكر قوله تعالى : — «وكم من قرية أهلـكناها فجاءنا بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

فعاد هذا الضمير والخبر على أهل القرية الذين أقيمت القرية فى الذكر مقامهم فجرى الـكلام مجراه مع حصول الإيجاز فى وضع القرية موضع أهلها وفهم المعنى من غير كلفة .

وهذه الغاية فى البيان يقصر عن مداها شـــأو الإنسان وبالله التوفيق .[٢١]

---

(٢١) الرحلة ص ٦١ — ٦٣ .

— ٤ —

## فى طرابلس

وفى طرابلس يتجلى هذا الفتوح الربانى فى فهم النص القرآنى بشكل أوضح فهو يعالج التفسير معالجة دقيقة ذكية لاينهض بها إلا كل ذى حس لغوى وذوق أدبى .

حضر بها مجلس الشيخ المسن القاضى الخطيب أبى محمد عبد الله بن عبد السيد ولما مر عليهم قوله تعالى : — « وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » .

سأله العبدرى : ما الكتاب المنير الذى أراد الله هنا ؟

فأجاب ابن عبد السيد بأنه جنس وهو بمعنى « الزبر » قبله بإجماع من المفسرين . فقال العبدرى : لم كرر ؟ فأجاب ابن عبد السيد : للتأكيد وجمد على ذلك .

يقول العبدرى : ولا يفهم هنا للتأكيد معنى ، ولو قال: كرر لما تضمنه من المدح كما تعطف النعوت بعضها على بعض لكان أشبه ولكن تكرار الباء يشعر بالفصل لأن فائدة تكرار العامل بعد حرف العطف إشعار بقوة الفصل بين الأول والثانى وعدم التجوز فى عطف الشيء على نفسه والله أعلم .

ثم مر لهم بعدها قوله تعالى : — « وغرابيب سود » يقول العبدرى وهى من الآيات التى صديت فيها الأذهان الصقيلة وعادت بها أسنة الألسنة مفلولة الشبا كليلة ، وذلك أن المنهج فى كلامهم تقديم المتبوع على التابع فيقولون : أبيض ناصع وأصفر فاقع وأحمر قانى وأسود حالك وغربيب .

ولا يقولون : ناصع أبيض ولا فاقع أصفر ولا قانى أحمر لأن التابع فيه

معنى زيادة الوصف ، فلو قدم كان ذكر المتبوع بعده عيا ، إلا أن يكون لمعنى أوجب تقديمه ، فلما قرعت أسماعهم بهذا سكتوا ولم يحر أحد منهم جوابا ، وكان الشيخ قد ذكر ما قال بعضهم — وأظنه القاضى أبا محمد بن عطيه — إنه من فصيح الكلام ، فلم أقنع بذلك وقررته على ما تقدم فسكت .

ومن جملة العجائب أن شيخاً ممن حضر إقراءه أراد أن يحتج عنه لما كلمته فقال لى : إنما ذكر السود لأنه قد يكون فى الغربان ما فيه بياض وقد رأيته فى بلاد المشرق ، فلم يفهم من الآية وقد حضر تفسيرها شيئاً إلا أن الغربيب هو الغراب .

ويمضى العبدرى قائلا : —

وقد ظهر لى فى الآية الأولى وجهان أردت أن أثبتهما مستخيراً الله عز وجل : —

أحدهما : — أن قوله تعالى « جاءتهم » يعود فيه الضمير على المكذبين للنبى صلى الله عليه وسلم وعلى الذين من قبلهم فيكون النبى صلى الله عليه وسلم داخلا فى الرسل المذكورين ، والكتاب المنير القرآن ، وقوله « ثم أخذت الذين كفروا » معطوف على قوله : « فقد كذب الذين من قبلهم » أى كذبوا ثم أخذتهم لقيام الحجة عليهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير وجاء تقديم قيام الحجة قبل العطف اعتراضاً للتهمم به ، وهو من أرق وجوه البلاغة كما قال :

فإنك إن أفتك يفتك منى .·. — فلا تسبق به — علق نفيس

وكما قال حسان رضى الله عنه : —

فإن فى حربهم — فاترك عداوتهم .·. شرا يخاض عليه الصاب والسلع

وأرى مثل هذا فى آية آل عمران وهى قوله تعالى : —

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » .

وقوله جاءت انصراف من المخاطبة إلى الغيبة كأنه قال : جاء هؤلاء المذكورين فيكون النبى صلى الله عليه وسلم داخلا فى الضمير وهو فى موضع جاءتهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، فأقام الإخبار عن الغائب مقام المخاطب كما قال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة،وفيهوجه من التفخيم والتعجيب كأن المخاطب إذ استعظم الأمر رجع إلى الغيبة ليعم الإخبار به جميع الناس ، وهذا موجود فى الآيتين ، ومن ذلك قول النابغة الذبيانى : —

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

والوجه الآخر : — أن يكون المعنى على حذف المضاف كأنه قال وبخبر الكتاب المنير يعنى القرآن الكريم فيكون مثل قوله : ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، وهذا وجه حسن قريب وكان شيخنا أبو الحسن المالكى الإسكندرى قد استحسنه حين عرضته عليه والحمد لله .

* * *

وأما الآية الأخرى وهى قوله تعالى : — « وغرابيب سود »فحسبك منها إشكالا أن فحول المفسرين أحجموا عن القول فيه وقصروا عما يتم الغرض و يوفيه .

والذى ظهر لى فى ذلك بعد طول تأمل وفرط قلق فيه وتملل أن الموجب لتقديم الغرابيب هو تناسب الكلم وتماثل نسق الألفاظ وجريانها على نمط

متساوى التركيب وهو معنى قلما يوجد فى غير الكتاب العزيز حسبما تقدم فى قوله تعالى : — « فتذكر إحداهما الأخرى » وذلك أنه لما تقدم ذكر البيض والحمر دون إتباع ، كان الأليق بحسن النسق وترتيب النظام أن يكون السود كذلك ، ولكنه لما كان فى السود هنا زيادة الوصف كان الأليق بالمعنى أن تتبع بما يقتضى ذلك وهو الغرابيب فتقابل حظ اللفظ وحظ المعنى ، فوفى الحظان معا وكمل الغرضان جميعاً ولم يطرح أحدهما للآخر فيقع النقص من جهة المطرح وذلك بتقديم الغرابيب على السود ، فوفى لفظ الغرابيب حظ المعنى فى زيادة الوصف ، ووفى ذكر السود مفرداً من الإتباع حظ اللفظ ، إذ جاء مجرداً على صورة البيض والحمر فاتسقت الألفاظ كما ينبغى وتم المعنى كما يجب ولم يخل بواحد من الوجهين ولم يقتصر على الغرابيب وإن كانت متضمنة لمعنى السود لئلا تتنافر الألفاظ ، فإن ضم الغرابيب إلى البيض والحمر ولزهما فى قرن واحد كابن اللبون إذا مالز فى قرن وذلك غير متناسب لتلاؤم الألفاظ وتشاكلها وجريها فى سنن الاتفاق ، وبذكر السود وقع الالتئام واتسق نسق النظام وجاء اللفظ والمعنى فى درجة التمام ، وهذا لعمر الله من العجائب التى تكل دونها العقول ويعيا بها اللسن فلا يدرى ما يقول . والحمد لله على حسن عونه.[٢٢]

* * *

هذا التوجيه الفنى لمناحى التعبير القرآنى يقوم على ما سماه العبدرى : تناسب الكلم وتماثل نسق الالفاظ وجريانها على نمط متساوى التركيب ، وهو معنى قلما يوجد فى غير الكتاب العزيز كما قال لكنه مطلوب من الأديب الذى يحترم نفسه وأدبه ، وقربه منه أو بعده عنه هو مقياس جودته أو رداءته .

---

(٢٢) الرحلة ص ٧٧ — ٨٠.

— ٥ —

## فى برقة

عقد العبدرى فصلا ضمنه أمثلة من فصاحة عرب برقة ، وهو يعلل هذه الفصاحة بعزلتهم ، ويوازن بينهم وبين عرب الحجاز فى ذلك ويدل هذا الفصل على أن العبدرى كان يغربل كل ما يسمع ويسلط عليه من ملكاته النقدية أضواء كاشفة قال :

وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم وعرب الحجاز أيضاً فصحاء ، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيره وهم إلى الآن على عروبتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لاقدر له بالإضافة إلى ما يعربون ، وقد سألت بدويا وجدته يسقى إبله عما يقال له أبو شمال هل نمر عليه ؟ وذكرته بالواو فى موضع الخفض على عادة أهل الغرب . فقال لى : نعم . تطئون أبا شمال وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول وليس فى الغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك ، ومررنا بأطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد منهم ياحجاج معكم شىء تبيعونه ؟ فأثبت النون وسكن الهاء للوقف . ورأيت أعرابياً منهم قد ألحت عليه امرأة تسأله من طعام معه فقال لها : والله ماتذوقينه فأتى بضمير المخاطبة على وجهها وأثبت النون وسكن الهاء ، ورأيت شخصاً فى الركب ينشد مكترى راحلة يقول : — من يكرى زاملة ؟ فسمعه بدوى فقال : أعندك الزاملة ؟ فقال نعم قال: فلا تقل من يكرى وقل من يستكرى ، وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل الغريب بتفسيره فهم حتى الآن يتحاورون به على سجيتهم ، فمن ذلك أن شخصاً منهم وقف على بموضع نزولى من محلة الركب وكانت الترعة منه بعيدة فقال لى :يا سيدى

تدعني أظهر . يعني أخرج ، وسألت شخصاً منهم عن الطريق فقال لى : إذا ظهرتم من الغابة فخذ صوب كذا . يعنى إذا خرجتم منها ، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب فى تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه : ولقد حدثتنى عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر وأتوا عليه بشواهد وأمثال وسمعت صبيا منهم ينادى فى الركب : أحجاج من يشترى الصفيف ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس فقلت له أاللحم معك ؟ فقال نعم وأبرز لحم ظبى مقدد ، وهذا اللفظ قد ذكره مالك رضى الله عنه فى الموطأ وتهمم بتفسيره فقال بإثر الحديث قال مالك . والصفيف القديد ، وسألت شيخاً عن ماء هل هو معين ؟ فقال لى: هو ماء غر[٢٣] وهذا اللفظ فسره أبو عبيد فى غريبه .

وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصر وبالله التوفيق .[٢٤]

— ٦ —

## فى القاهرة

وفى القاهرة أبدى العبدرى صفحة من سجله فرأيناه على مذهب البحترى وابن الأثير فى الاقتصار على علوم العربية والتنكر للفلسفة اليونانية ومنطقها المعقد .

ومعلوم أن القاهرة لم تعجبه وأن أهلها لم يروقوا فى نظره ، وقد ذمها وذمهم ذماً مقذعاً لاذعاً نسأل الله مسامحته فيه وعدم مؤاخذته به[٢٥] .

ولا نقف مما قاله فى ذلك إلا عند قوله : — ومن الأمر المنكر عليهم

(٢٣) المعين : السائل وماء غر أى غير سائل من غر الماء اى نضب وقل .
(٢٤) الرحلة ص ٨٨ — ٨٩ .
(٢٥) الرحلة ص ١٢٥ — ١٥٣ .

والنكر المألوف لديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول فى إكبابهم على علم المنطق واعتقادهم أن من لا يحسنه لا يحسن أن ينطق ، فليت شعرى هل قرأه الشافعى ومالك أو هل أضاء لأبى حنيفة المسالك ، وهل عاركه أحمد بن حنبل ، أو كان الثورى على تعلمه قد أقبل ، وهل استعان به إياس فى ذكائه ؟ أو بلغ به عمرو ما بلغ من دهائه ؟ أو تمرس به قس وسحبان ، ولولاه ما أفصح أحدهما ولا أبان . أترى عقول القوم كليلة إذ لم تشحذ على مسنه ؟ أترى فطنهم عليلة إذ لم تكرع فى أجنه ؟ عجباً كيف رويت قرائحهم ولم تمطر بعارض دجنة ؟ . . . كلا هى أشرف من أن تقيد فى سجنه وأشف من أن يستحوذ عليها طارق جنه . تالله لقد أغرق القوم فيما لا يعنيهم ، وأظهروا الافتقار إلى ما لا يغنيهم بل يعنتهم على الساعات ويعنيهم ، والشيطان يعدهم ويمنيهم ، أما إنه قد كان الآحاد من أهل العلم ينظرون فيه غير مجاهرين ويطالعونه لا متظاهرين لأن أقل آفاته أن يكون شغلا بما لا يعنى الإنسان ، وإظهار حوج إلى ما أغنى عنه الرب المنان ، والذى دعا بعض الفضلاء إلى مطالعته هو اتقاء شره والحذار من غوائله ومكره وقد قال عمر رضى الله عنه :

من لم يعرف الشر أجدر أن يقع فيه .

ونظم هذا بعضهم فقال :

عرفت الشر لا للشـ ـر لكن لتوقيـه

ومن لم يعرف الشـ ـر من النـاس يقع فيـه

وأما هؤلاء فقد جعلوه من أكبر المهمات واتخذوه عدة للنوائب والملمات فهم يكثرون فيه الأوضاع وينفق كل منهم فى تحصيله العمر المضاع . ويحهم أما سمعوا قول داعى الهدى لمن أمه حين رأى عمر كتب التوراة فى لوح من فضة فغضب وقال مفهماً للحافظ الواعى :

« لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعها إلا اتباعى » وإذا لم يوسعه عذرا فى الكتاب الذى جاء به موسى نوراً فما ظنك بما وضعه المتخبطون فى ظلام الشرك وافتروا فيه كذبا وزورا ، فيا لله للعقول المنحرفة غرقت فى بحور ضلال الفلسفة ، ولله در شيخنا شرف الدين الدمياطى ، فإنه مباين لهم فى ذلك منزه لنفسه عن تلك المسالك وقد أنشدنى فى هذا المعنى لنفسه : —

وما العلم إلا فى كتاب وسنة ‏ ‏ ‏ وما الجهل إلا فى كلام ومنطق
وما الخير إلا فى سكوت بحسبة ‏ ‏ ‏ وما الشر إلا من كلام ومنطق[٢٦]

والعبدرى يحب البديع ويحبذه ويفضل أن يكون الأدب موصعا به ، فهو فى وصفه لمنبر المسجد النبوى يتقوى بقول الشقراطسى عنه « حيي فمات سكونا ، ثم مات فحيي حنينا فأضحى غاية المثل » يقول العبدرى شارحا وموضحا . يعنى أنه حين حيي بقرب النبى صلى الله عليه وسلم منه كان ذا سكون ، والسكون للميت ، وحين مات بتحوله عنه كان ذا حنين والحنين للحى وهو بديع مليح جداً ، ولو روى : فمات سكوتا بالتاء المثناة كان أبدع للمطابقة بين السكوت والحنين ولكن الرواية فيه بالنون »[٢٧] .

وقد كشف العبدرى بهذا التعليق له عن مذهبه الفنى ، وأنه مذهب البديع الذى ساد عصره ولم تكن لديه القدرة على الانفلات منه كمواطنه ابن خلدون صاحب أسلوب الترسل .

* * *

وقريب من إعجابه بالبديع وتشجيعه عليه إقراره للمصطلح العلمى فى لغة

---

(٢٦) الرحلة ص ١٣٠ — ١٣١ .
(٢٧) الرحلة ص ٢١٨ .

الأدب مخالفا فى ذلك بعض النقاد العرب أنشده الفقيه أبو حفص عمر بن إبراهيم التجانى لنفسه : —

سرك إن أعلمتـــه ثانيا فاعلم بأن قد آن أن تفشيه
لأن ما أضمـــر فى حالة الإ فراد تستخرجـــه التثنية

وقد علق العبدرى على هذين البيتين بقوله : —

وهذا استدلال بالتمثيل نحوى مليح مناسب جداً يدل على طبع فاضل ومقول فاصل(٢٨) وهو لايعجب بالبديع ولا بترصيع النثر الأدبى بالمصطلحات العلمية إعجابا نظريا فقط وإنما يمارسهما ويكاد أن يلتزمهما وهو ينتج ، والشواهد على ذلك كثيرة فى رحلته . ونكتفى بهذا المثال قال : —

« ثم وصلنا إلى بونة فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة ، مبسوطة البسيط ولكنها نزحف النوائب مطوية مخبونة ، تلاحظ من كتب لحوصا ممتدة وتراعى من البحر جزره ومده ، تغارلها العيون من جور النوائب ، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب ، وقد أزعج السفر عن حلولها فلم أقض وطراً من دخولها »(٢٩) .

وهو نثر فيه سجع واصطلاحات علمية : عروضية وجغرافية .

---

(٢٨) الرحلة ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .
(٢٩) الرحلة ص ٢٧ وبونة هى مدينة عنابة بالشرق الجزائرى .

— ٨ —

# ابن خلدون*

لعبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته المشهورة آراء فى اللغة والأدب والبلاغة والنقد كان بها وبسلوكه طريقة الترسل فى الكتابة بأنواعها من نقاد المغرب .

ونلاحظ من أول وهلة أن ابن خلدون يصدر فى القضايا الكلية أحكاما جزئية ، وإن أعطى حكما عاما فى قضية فإنه يكون موجزاً مركزاً يعطيه وكله ثقة فيه على اعتبار أنه القول الفصل فى الموضوع ، والكلمة النهائية فى القضية ، على أن ذلك لم يمنع أن نجد عنده بحوثا مفصلة ودراسات كاملة لبعض القضايا الأدبية مثلما فعل وهو يتكلم عن الذوق أو عن ثقافة الأديب والناقد أو عن قضية اللفظ والمعنى ، ومثلما فعل وهو يشرح طبيعة الشعر ويعرفه ويوضح خصائصه الفنية .

. . .

وحين نقرأ الفصل الذى مهد به لعلوم اللسان العربى نلاحظ أمرين هامين أحدهما أن وسائل الأدب بل والأدب قد تحولت برمتها إلى وسيلة لغاية نبيلة هى إقدار المجتهدين فى الدين على استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة

---

(*) ترجمته فى «المقدمة» و «التعريف» له، والضوء اللامع للسخاوى وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور وافى ، «ومذكرات» أحمد السكندرى ؛ وحياة ابن خلدون ومثل من فلسفته للشيخ محمد الخضر حسين ، وابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى لمحمد عبد الله عنان .
ومؤلفات ابن خلدون للدكتور عبد الرحمن بدوى . وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ج ٣ ص ٢٢٤ . والوسيط فى الأدب العربى وتاريخه . والمفصل ، وعصر سلاطين المماليك ج ٣ ص ٢٩٠ — ٣١٦ . . . . . .

والآخر أن ابن خلدون يجعل علم النحو فى المقام الأول من الأهمية على خلاف العلوى الذى أنزل علمى اللغة والاشتقاق هذه المنزلة وجعل النحو تالياً

وفى رأيى أن الاختلاف فى الرأيين يرجع إلى البيئة اللغوية لكل من الرجلين فهى بالنسبة للعلوى يمنية أى عربية صحيحة خالصة وبالنسبة لابن خلدون مغربية أى عربية ممتزجة بالبربرية الأعجمية بل إن العجمة فيها أغلب كما قال هو (١) .

وإذا كان الضبط الإعرابى ملكة لسانية فى الأولى فإنه مهدر أو مكسر فى الثانية ، ولنسمع ابن خلدون وهو يقرر أن علوم اللسان العربى أربعة هى اللغة والنحو والبيان والأدب ، وأن معرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهما بلغة العرب ، ونقلتهما من الصحابة والتابعين عرب ، وتفسيرهما وتوضيح المراد منهما بلغة العرب ، أما ترتيبها فيما بينها من ناحية الأهمية فالذى يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو ، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الإفادة .

ويلتمس ابن خلدون العذر لنفسه فيما ذهب إليه قائلا : وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر ، فلذلك كان علم النحو أهم من علم اللغة إذ فى جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة (٢)

ونحن لا نكاد نفرغ من هذا الكلام له حتى نصدم بقوله عن علم اللغة : وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب فى نظمه ونثره حذرا من أن يكثر لحنه

---

(١) المقدمة ص ١٢٧٥ طبعة وافى .

(٢) المقدمة ص ١٢٥٤ وافى .

فى الموضوعات اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن فى الإعراب وأفحش .(٣)

ويظهر أن الأمر مختلف ، فهو هنا يتكلم عن مبدع الأدب ومرسله أما هناك فيتكلم عن مستقبله الذى يمارس فهمه ، ومهما يكن رأيه فالعلمان لا زمان للطرفين والفرق بينهما فرق فى درجة الأهمية . على أن ابن خلدون لا يدعنا نخلص من هذه المشكلة ، فهو بحيويته الفائقة يثيرها ثانية وذلك إذ يقرر أن الإعراب لا مدخل له فى البلاغة ، لأن البلاغة إنما هى مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة ، فإذا عرف اصطلاح واشتهر صحت الدلالة ،وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك (٤) .

وليس لنا من تعليق سوى قولنا : إن اللغة اصطلاح وتوقيف ، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة كما قال هو ، والأدب فن لغوى أى أنه منبثق عن اللغة وجار على نهجها ، على أنه إنما يعالج بهذا الكلام له فناً أدبياً شاع على عهده فى بعض البيئات البدوية التى استحال فيها لسان مضر إلى لغات إقليمية (٥).

أما حين يتكلم عن اللغة الأدبية النموذجية ، فإنه يقرر أن تأليف الكلام، ولو أنه منفرد عن نظر النحوى واللغوى والبيانى والعروضى إلا أن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها (٦) .

---

(٣) المقدمة ص ١٢٦١ .

(٤) المقدمة ص ١٣١٦ .

(٥) المقدمة ص ١٣١٦ - ١٣٢٧ .

(٦) المقدمة ص ١٢٩٤ .

وأن ماقصر من التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل فى قواعد الإعراب أو قوانين المعانى كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال ولحق بالمهمل [٧] وإذن فابن خلدون معذور وهو يحلل ويسجل ظاهرة أدبية محلية ، وإنه لأفضل بكثير من ابن الاثير الذى قال نفس ما قاله ابن خلدون لكن فى ملابسات صعبة وظروف مشددة ، فحواها أنه قاله مشرعا للغة الأدبية الرسمية [٨] .

وابن خلدون بعد هذا وقبله يؤمن بأن ملكة اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها ، والسبب فى هذا أن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بقوانينها إذا سئل فى كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أخطأ عن الصواب وأكثر من اللحن ، كما نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لايحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية [٩]

وإذن فعلوم اللسان كلها لا تخلق ملكة وإنما هى عوامل مساعدة والمعول عليه قبل كل شىء هو الموهبة .

ونحن نلاحظ أن ابن خلدون وإن كان قد أعطى لعلم النحو قدراً كبيراً من الأهمية وهو يتكلم عن علوم اللسان العربى ولزومها لرجال الدين الذين يستنبطون الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، ونادى بضرورة الالتزام به مع غيره فى الأعمال الأدبية ، إلا أنه يتحامل على النحويين ، فهو يحتقرهم ويتهم عقولهم وتأمل قوله : —

---

(٧) المقدمة ص ١٣٠٧ .

(٨) المثل السائر ص ٨ .

(٩) الفصل ٥١ ص ١٢٧٩ وافى .

ومازالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد .
ولا تلتفتن فى ذلك إلى خرفشة النحاة [١٠] أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربى فسد اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذى يتدارسون قوانينه وهى مقالة دسها التشيع فى طباعهم وألقاها القصور فى أفئدتهم ، وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل فى موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد ، والتفاوت فيه بتفاوت الإبانة موجود فى كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم ، ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب فى أواخر الكلم فقط الذى لزم فى لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الإعراب وهو بعض من أحكام اللسان .

ومن تحامل ابن خلدون على النحاة ما يروى من أن الكندى الفيلسوف سأل أبا العباس المبرد عما توهمه تكراراً فى قول العرب « زيد قائم » و « إن زيداً قائم » و « إن زيداً القائم » .

والقصة هكذا محتملة وجائزة ، فمن المعقول إلى حد ما أن يخفى أمر هذه التعابير على الكندى الفيلسوف ، لكن من غير المعقول أن يكون السائل بعض النحاة كما قال ابن خلدون مشنعاً [١١] .

* * *

وابن خلدون يثير قضايا فنية على جانب كبير من الأهمية مثل التمرس

---

(١٠) الخرفش بالفتح المخلط ، فالخرفشة التخليط والاضطراب .

(١١) ص ١٢٧١ وافى ، وانظر حكاية الكندى مع ابى العباس المبرد فى صبح الاعشى ج١ ص ١٨٤

بالآثار الأدبية ، وهو ما يسمى فى النقد بالإطار الثقافى أو بالبيئة الفكرية ، وذلك فى قوله : — اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا أولها : الحفظ من جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ فى النفس ملكة ينسج على منوالها[١٢] ، وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما ، فبارتقاء المحفوظ فى طبقته من الكلام ، ترتقى الملكة الحاصلة ، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها ، وذلك أن النفس وإن كانت فى جبلتها واحدة بالنوع فهى تختلف فى البشر قوة وضعفاً ، واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التى تكيفها من خارج ، فبهذه يتم وجـــودها وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها ، والملكات التى تحصل لها إنما تحصل على التدريج ، فالملكة الشعرية إنما تنشأ بحفظ الشعر ، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل ، والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار ، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول ، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس وكذا سائرها ، وللنفس فى كل واحدة منها لون تتكيف به[١٣] .

وهكذا تجره هذه البحوث العميقة بل هذا الاستبطان للنفس الإنسانية إلى التفرقة بين شتى المؤثرات من ناحية ما تحدثه أو تعكسه ، فهو يفصل القول فى الملكات الناشئة ويتنبأ بخصائصها الفنية متى اكتشف روافدها وعرف نوع ثقافتها أو كما قال : — وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة فى نفسها ، فملكة البلاغة العالية الطبقة فى جنسها إنما تحصل

---

(١٢) المقدمة ص ١٢٩٦ وافى .

(١٣) ١٣٠٣ — ١٣٠٤ .

بحفظ العالى فى طبقته من الكلام ، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين فى البلاغة ، وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لأن العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها فى البلاغة ، فإذ سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب فى كلامهم ، وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقى الحر من كلام العرب ، أخبرنى صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان قال :— ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبى الحسن وكان المقدم فى البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوى ولم أنسبها له وهو هذا :

لم أدر حين وقفت بالأطلال
ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لى على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : — ومن أين لك ذلك؟ قال : من قوله : ما الفرق ، إذ هى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب ، فقلت له : لله أبوك إنه ابن النحوى . ويسترسل ابن خلدون قائلا : وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم فى محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم فى الترسل وانتقائهم له الجيد من الكلام، وعلى سبيل التأكيد يذكر القصة التالية : — ذاكرت يوماً صاحبنا أباعبدالله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحمر وكان الصدر المقدم فى الشعر والكتابة فقلت له : أجد استصعابا على فى نظم الشعر متى رمته مع بصرى به وحفظى للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظى قليلا ، وإنما أتت والله أعلم من قبل ماحصل فى حفظى من الأشعار العلمية والقوانين

التأليفية فإنى حفظت قصيدتى الشاطبى الكبرى والصغرى فى القراءات، وتدارست كتابى ابن الحاجب فى الفقه والأصول، وجمل الخونجى فى المنطق وبعض كتاب التسهيل، وكثيراً من قوانين التعليم فى المجالس فامتلأ محفوظى من ذلك وخدش وجه الملكة التى استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها، فنظر إلى ساعة معجباً ثم قال: لله أنت. وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ ؟[١٤]

وكلام ابن خلدون هنا لا يخرج عما هو مستقر فى أذهاننا من أنه لا بد لكل فعل من رد فعل يناسبه، وهو صادق فيه لأنه واقع تجريبى له، ومن فضله أنه التفت إلى ضرورة تمثل الأديب لما يتمرس به من الأعمال الفنية وتحويله فى نفسه إلى خلايا جديدة حية تدخل فى تكوينه الأدبى، ولا يكون ذلك إلا بتناسى ما يحفظ. نعم إنه فى ذلك مسبوق بابن طباطبا وغيره[١٥] لكنه قرره وبرره، وكان أمينا فصدره بما يفيد أنه تابع فيه لغيره قال: وربما يقال: إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هى صادرة عن استعمالها بعينها فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة[١٦].

ومن أهم فصول المقدمة فصل خاص بالشعر هو الفصل السادس والخمسون فى صناعة الشعر ووجه تعلمه[١٧].

وصناعة الشعر عند ابن خلدون لا يرجع فيها إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص

---

(١٤) ص ١٣٠٤ — ١٣٠٥.

(١٥) عيار الشعر ص ١٠ — ١٢.

(١٦) المقدمة ص ١٢٩٦ — ١٢٩٧.

(١٧) ص ١٢٨٩ — ١٣٠٢.

التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن الذى هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعل البناء فى القالب أو النساج فى المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ، فأن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل ، إنشائية وخبرية ، اسمية وفعلية ، متفقة وغير متفقه ، مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب فى الكلام العربى فى مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك به ما تستفيده بالارتياض فى أشعار العرب من القالب الكلى المجرد فى الذهن من التراكيب المعينة التى ينطبق ذلك القالب على جميعها ، فإن مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج ، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذى يبنى فيه أو المنوال الذى ينسج عليه ، فإن خرج عن القالب فى بنائه أو على المنوال فى نسجه كان فاسداً .

ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية فى ذلك لأنا نقول : قوانين البلاغة إنما هى قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الحاصلة بالقياس ، وهو قياس علمى صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية ، وهذه الأساليب التى نحن نقررها ، ليست من القياس فى شىء ، إنما هى هيئة ترسخ فى النفس من تتبع التراكيب فى شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها فى كل تركيب من الشعر ، وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه ،

وليس كل ما يصح فى قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه ، وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية ، فإذا نظر فى شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التى تصير كالقوالب كان نظراً فى المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ، ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب فى الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم (١٨) .

تلك هى طبيعة الشعر من وجهة نظر ابن خلدون وهى وجهة نظر أكاديمية فلسفية عميقة لم نجدها حتى عند حازم القرطاجنى ابن الفلسفة اليونانية والثقافة الإغريقية ، لكنها ليست مستغربة من ابن خلدون أستاذ الدراسات الخاصة بالملكات الإنسانية .

ومن آرائه النقدية : —

— ١ —

إصراره على ضرورة الثقافة والدربة والطبع والذكاء كى تحصل ملكة الأدب . قال : — وجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضاً فى سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ، ويتخير المحفوظ من الحر النقى ، وأقل ما يكفى فيه ، شعر شاعر من فحول الشعراء الإسلاميين مثل ابن أبى ربيعة وكثير وذى الرمة وجرير وأبى نواس

(١٨) ص ١٢٨٩ — ١٢٩٤ .

وحبيب والبحترى والرضى ، وأكثره شعر كتاب الأغانى لأنه جمع شعر الطبقة الإسلامية الجاهلية ، ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ردىء ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ ، فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر ، وإنما هو نظم ساقط ، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ[١٩].

وبعد ذلك يأتى دون التطبيق ، وهو ما عناه القدماء بالمران أو الدربة وسماه ابن خلدون الاستعمال قال : ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة ، ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم فى التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال[٢٠] والعبارة الأخيرة تفسر بالذكاء .

وإذن فابن خلدون يقول بكل مقومات الشخصية الأدبية ، لكنها ليست سواء فى الأهمية ، فعلوم اللسان لا تخلق ملكة وإنما هى عوامل مساعدة ، وبعبارة قريبة من عبارته : — العلم بكيفية العمل غير العمل ، والمعول عليه فى ذلك هو الموهبة[٢١] .

## — ٢ —

ويشارك ابن خلدون فى عملية إبداع الأدب ونقده بفصل هام من فصول مقدمته وهو الفصل السادس والخمسون فى صناعة الشعر ووجه تعلمه ، ونجد فيه حشداً هائلا لكل ما يدخل فى تكوين الشعر ويساعد على قوله من خصائص

---

(١٩) المقدمة ص ١٤١٦ .

(٢٠) المقدمة ص ١٣٩٦ .

(٢١) انظر الفصل الأول من المقدمة ص ١٣٩٦ — ١٣٩٩ .

فنية ومناظر طبيعية وحالات نفسية ، وقد استعان فى هذا كله بما قاله النقاد قبله ، وكان اتكاؤه الأكثر على ابن رشيق فى العمدة قال : —

وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ، ويبنى الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها فى محلها فربما تجىء نافرة قلقة ، وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به ، فإن كل بيت مستقل بنفسه ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء .

وينص ابن خلدون بعد ذلك بل فى خلاله على ضرورة تجويد الأدب ونقده بقوله : — وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ، ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة فإن الإنسان مفتون بشعره ، إذ هو بنات فكره واختراع قريحته[٢٢] .

— ٣ —

ومن ملاءمة الكلام لموضوعه وللمخاطبين به تردده بين الإيجاز والأطناب والمساواة ، وابن خلدون يجافى الإيجاز وينحاز إلى المساواة والإطناب قال : — وليجتنب كثرة المعانى فى البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم ، وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى ، فإن كانت المعانى كثيرة كان حشوا واشتغل الذهن بالغوص عليها فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ، ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى إسحق بن خفاجه شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد[٢٣] .

ونحن نأخذ على ابن خلدون اضطرابه بل خطأه وهو يحذر من كثرة

(٢٢) المقدمة ص ١٤١٧ .

(٢٣) المقدمةس ١٤١٨ .

المعانى فى البيت الواحد ، فالمختار عنده ما كانت ألفاظه طبقاً لمعانيه أو أوفى ، فإن كانت المعانى كثيرة كان حشوا . ونفهم من هذا الكلام أنه يفضل المساواة والإطناب على الإيجاز وهو حر فيما يفضل لكنه ليس حراً فى أن يعد زيادة المعنى حشوا لأن الحشو هو زيادة اللفظ على المعنى بأن تكون فى النص ألفاظ لا فائدة فيها ولا معنى لها كقول زهير : —

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

بإن قوله ( قبله ) حشو لا فائدة فيه[٢٤] وهو معيب قطعاً لأنه طوفان من الألفاظ على صحراء من الفكر .

— ٤ —

والشعر فى نظر ابن خلدون غريب النزعة غزير المنحى إذ هو كلام مفصل قطعا قطعاً متساوية فى الوزن متحدة فى الحرف الأخير من كل قطعة ، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات بيتاً ، ويسمى الحرف الأخير الذى تتفق فيه رويا وقافية ، ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة ، ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها فى الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع فى الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثيرين ، وليس كل وزن يتفق فى الطبع استعمله العرب وإنما هى أوزان مخصوصة يسميها أهل تلك الصناعة البحور ، وقد حصروها فى خمسة عشر بحراً بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب فى غيرها من الموازين الطبيعية نظما ، والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام فى مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك

---

(٢٤) شروح التلخيص ١٨٧ .

إلى نوع تلطف فى تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعرى فى قوالبه التى عرفت له فى ذلك المنحى من شعر العرب ، ويبرزه مستقلا بنفسه ، ثم يأتى ببيت آخر كذلك ثم ببيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت فى موالاة بعضها ببعض بحسب اختلاف الفنون التى فى القصيدة .

هذا قليل من كثير ضمنه ابن خلدون الفصل السادس والخمسين من مقدمته ، ومن الطبيعى وهذا رأيه فى طبيعة الشعر ألا يقبل تعريف العروضيين له بأنه الكلام الموزون المقفى فالعروضيون إنما ينظرون إلى الشعر باعتبار مافيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة وهى نظرة قاصرة .

ولما كانت عادة ابن خلدون ألا يرفع من البناء الأدبى لبنة ويترك مكانها شاغرا ، فقد نهض بوضع تعريف للشعر يعطى حقيقته المستمدة من طبيعته ، وقد فعل ذلك على الرغم من أنه لم يقف عليه لأحد قبله قال : الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقه فى الوزن والروى مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجارى على أساليب العرب المخصوصة به ، فقولنا « الكلام البليغ » جنس وقولنا : « المبنى على الاستعارة والأوصاف » فصل عما يخلو من هذه فإنه فى الغالب ليس بشعر . وقولنا » المفصل بأجزاء متفقه فى الوزن والروى » فصل عن الكلام المنثور الذى ليس بشعر عند الكل ، وقولنا : « مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده » بيان للحقيقة لأن الشعر لاتكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شىء ، وقولنا : « الجارى على الأساليب المخصوصة » فصل عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة ، فإنه حينئذ لايكون شعرا وإنما هو كلام منظوم لأن الشعر له أساليب تخصه لاتكون للمنثور ، وكذلك أساليب المنثور لاتكون للشعر ، فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك

الأساليب ، فلا يكون شعراً ، وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبى والمعرى ليس هو من الشعر فى شىء لأنهما لم يجريا على تلك الأساليب ، وقولنا : « أساليب العرب » فصل له عن شعر غير العرب من الأمم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب لغيرهم ، ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك ويقول مكانه : « الجارى على الأساليب المخصوصة »[٢٥] .

. . .

وفى رأيى أن تعريف ابن خلدون للشعر لم يزد على أن ضمنه صراحة مالابد أن يكون ملحوظاً فيه من الاستعارات والأوصاف .

أما جناحاه وهما الوزن والقافية فداخلان فى تعريفه وتعريف العروضيين .

وابن خلدون لهذا لم يزد على أن أخذ لبنة من بناء الشعر ثم ردها إلى مكانها بعد أن غير وضعها من ظهر لبطن أو من بطن لظهر ، فهو يرفض أن تشتمل القصيدة على أكثر من وزن ، وهو لم يقبل التضمين بل رفضه ،وهو يطلب أن يمضى الشعر على سننه القديم وعلى حد قوله : الجارى على أساليب العرب المخصوصة به ».

ويمكن القول بأننا لم نجد تجديدا فى موسيقى الشعر عند نقاد المغرب بما فيهم ابن خلدون مع أن كلامه عن طبيعة الشعر كان يبشر بالخير وهو فيه أول .

وقد استطرد فأدلى بدلوه فى الفرق بين الشعر والنثر من ناحية الموسيقى، وهو يقسم الأدب إليهما ثم يقرر أنه لافرق بينهما إلا فى الوزن ، أماالتقفيه فمشتركة بينهما وهى فى الشعر قافية وفى النثر سجع .

---

(٢٥) المقدمة ص ١٤٠٩ ـ ١٤٢٢ .

وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب ، ولكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وغير ذلك(٢٦) .

— ٥ —

وقد عالج ابن خلدون الذوق الأدبى نوعين من المعالجة : —

أحدهما : — الاحتكام إليه والتعويل عليه فى الأحكام التى يصدرها النقاد على الأعمال الأدبية .

والآخر : — تفسيره فى مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل غالبا للمستعمريين من العجم قال : —

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان ، والبلاغة عبارة عن مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى إفادة ذلك، فالمتكلم بلسان العرب ، والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب ، وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة فإن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ،ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات

(٢٦) ص ١٤٠٥ — ١٤٠٨ .

أن الصواب للعرب فى لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعى ، ويقول : — كانت العرب تنطق بالطبع ، وليس كذلك وإنما هى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى بادىء الرأى أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة — كما تقدم — إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفةالقوانين العلمية فى ذلك التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها ،وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة فى اللسان تهدى البليغ إلى وجه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العربفى لغتهم ونظم كلامهم ، ولو رام صاحبهذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولاوافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديهإليه ملكته الراسخة عنده ، وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم أعرض عنه ومجهوعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ،فإن ذلك الاستدلال إنما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ،وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ، ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربى فى جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها ، وليس ذلك من العلم القانونى فى شىء ، وإنما هو بحصول هذه الملكة فى لسانه ونطقه ، وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ فى جيلهم وتربى بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا ، واستعير لهذه الملكة عند ما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ،وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ولكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو

محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجدانى اللسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له الذوق .(٢٧)

هذا كلام ابن خلدون عن الذوق فى الفصل الذى عقده له وقد تفرد فيه بأمرين :

أحدهما : — بيان علة إطلاق الذوق على تلك الحاسة وهو موضوع فى الأصل لإدراك الطعوم باللسان .

وهذه العلة هى أن اللسان مشترك ، فالملكة محلها اللسان من حيث أنه أداة النطق بالكلام مثلما هو أداة لذوق الطعام .

والآخر : — بيان وظيفة الذوق وأنها مزدوجة ، فهو يهدى البليغ إلى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم، كما أن من وظائفه أنه إذا عرض على صاحبه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم أعرض عنه ومجه .

— ٦ —

وابن خلدون يحب السهولة ، فهو يناشد الأديب أن يجتنب المعقد من التراكيب ، وأن يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم(٢٨) .

وهو يشدد النكير على كتاب المشرق لخروجهم فى الكتابة عن أسلوب الترسل(٢٩) .

---

(٢٧) المقدمة ص ١٣٩٩ — ١٤٠٠ .
(٢٨) المقدمة ص ١٤٠٩ — ١٤٢٢
(٢٩) المقدمة ١٤٠٧ — ١٤٠٨ .

- ٧ -

واهتمام ابن خلدون بلغة الأدب قد بلغ الذروة ، فهو قد تكلم عنها من حيث الصواب والخطأ ومن حيث الفصحى والعامية ،ومن حيث الجودة والرداءة

وعن لغة الأدب من حيث الصواب والخطأ نجده لا يسمح للشاعر بأن يستعمل فى شعره إلا الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية لأنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة .

وكأنه كان يعنى أحمد بن فارس بقوله : — وقد حظر أئمة اللسان عن المولد وارتكاب الضرورة،أى حرموا استخدام الألفاظ المولدة وهى التى استحدثها المولدون، وحرموا ارتكاب الضرورة أى تغيير إعراب الكلمة أو بنيتها مثلا لضرورة الشعر إذ هو فى سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة(٣٠)

. . .

هذا عن لغة الأدب من حيث الصواب والخطأ . أما عن لغة الأدب من حيث الفصحى والعامية،فتبدأ هذه القضية عند ابن خلدون بتقريره أن الأعراب لا مدخل له فى البلاغة لأن البلاغة إنما هى مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال سواء كان الرفع دالا على الفاعل، والنصب دالا على المفعول أو بالعكس فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح واشتهر صحت الدلالة وإذا طابقت الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك .

وقد أوضحنا فى دراستنا له أنه كان يعالج بكلامه هذا فناً أدبياً شاع على

---

(٣٠) المقدمة ص ١٤١٧ .

عهده فى بعض البيئات البدوية التى استحال فيها لسان مضر إلى لغات إقليمية[٣١] .

لكنه لم يلبث أن اتخذ من ذلك منطلقاً إلى رأى عام له ، وكلام خطير بقوله : — واسمع قوله : — وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت أولا فانقلب لغة أخرى ، واعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها ، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مصر[٣٢]

والعبارة الأخيرة هى المعنية، فهو يقصد باللسان العربى فيها لهجات التخاطب المحلية ولغات الآداب الشعبية ، تلك التى كانت ولا زالت موجودة فى مختلف بيئات الوطن العربى

ونفهم أن ابن خلدون يوافق على استخدام هذه اللهجات وهى عامية فى الكتابة الأدبية والاستعاضة عن علامات الإعراب الحالية بما تشتمل عليه تلك اللهجات من قرائن تدل على وظيفة . الكلمة فى الجملة ، وفى هذا ما فيه من اضطراب الأداء الأدبى وانبهام التراث العربى بما فى ذلك الكتاب والسنة ، وليس هــذا فقط بل يتحقق محظور خطير وضحه هو بقوله : — فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره ، وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره ، فلا الأندلسى يشعر بالبلاغة التى فى شعر أهل المغرب ، ولا المغربى بالبلاغـــة التى فى شعر أهل الأندلس والمشرق ، ولا المشرق

---

(٣١) المقدمة ص ١٤٣٦ .

(٣٢) ص ١٢٩٢ — ١٢٩٣ .

بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والمغرب لأن اللسان الحضرى وتراكيبه مختلفة ، فيهم ، وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته ، وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته(٣٣) .

فلم يكن ابن خلدون موفقاً وهو يمتاح العامية وينقب فيها عن ضوابط إعرابية تخلف علامات الأعراب الحالية على عرشها وتحل محلها . ولنذكر أن العلوى — وهو ناقد مشرقى — قد رفض الاتجـــاه نحو العامية واستبعده(٣٤) .

* * *

وابن خلدون يميل إلى الحد الوسط فى لغة الأدب ويرى أن يجتنب الشاعر الحوشى من الألفاظ والمقعر ؛ وكذلك السوقى المبتذل بالتداول والاستعمال ؛ فإنه ينزل بالـكلام عن طبقة البلاغة ويقرب من عدم الإفادة كقولهم : النار حارقة والسماء فوقنا ؛ وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبـة البلاغة إذ هما طرفان ؛ ولهذا كان الشعر فى الربانيات والنبويات قليل الإجادة فى الغالب ولا يحذق فيه الا الفحول ؛ وفى القليل على العسر لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك(٣٥) .

والرأى عندى أن ابن خلدون التفت الى شىء ولم يلتفت الى آخر ، لأنه إذا كانت المعانى فى الربانيات والنبويات مبتذلة لتداولها بين الجمهور ، فإن التعبير عنها غالباً يكون جياشاً بفعل الانفعال المشبوب والعاطفة الصادقة .

---

(٣٣) المقدمة ص ١٤٧٤ _ ١٤٧٥

(٣٤) انظر الطراز جـ ٢ ص ٨٨ _ ٩٢

(٣٥) المقدمة ص ١٤١٨

— ٨ —

وإذا كان الناقد المشرقى عز الدين الموصلى بتفضيله اللفظ على المعنى قد انتسب إلى مدرسة الجاحظ على أنه تلميذ بها فإن ابن خلدون قد احتواها وصار شيخاً لها بالفصل السابع والخمسين من فصول مقدمته . وقد جعل عنوانه هكذا : « فصل فى أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى» ومما جاء فيه قوله : ـ « اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها وهى أصل ، فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريانه على لسانه حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم ، وذلك أنا قدمنا [٣٦] أن اللسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل ، والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ وأما المعانى فهى فى الضمائر ، وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القوالب للمعانى ، فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعانى واحدة فى نفسها ، وإنما الجاهل

---

(٣٦) فى الفصل السابع والأربعين وعنوانه ( فصل فى أن اللغة ملكة صناعية) ص١٣٨٨ ــ ١٢٩٠

بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذى يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه[٣٧].

وابن خلدون بهذا الذى قاله يمثل الطرف الآخر فى قضية اللفظ والمعنى وهو الطرف الذى يجعل اللفظ متبوعاً والمعنى تابعاً، ولم نجد فى النقاد العرب ناقداً غيره — قبله أو بعده — يقول قوله إلا الموصلى.

ولا يعنى كلام ابن خلدون أن يكون الأدب تراكيب لا روح فيها ولا معنى لها، وإنما معناه أن العناية كلها يجب أن توجه إلى الألفاظ أو إلى الأسلوب جملة، أما المعانى فموجودة عند كل أحـــد وفى طوع كل فكر منها مايشاء ويرضى — كما قال — فلا تحتاج إلى صناعة، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج إلى صناعة.

ويثوب ابن خلدون إلى الحق من أمر اللفظ والمعنى بقوله : —

فالكلام الذى هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه فى إفادة المعنى، وذلك أن اللفظ والمعنى توأمان ومتلازمان متضايفان، والمطبوع من الكلام هو الذى كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصـــود منه لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط بل المتكلم يقصد منه أن يفيد سامعه ما فى ضميره إفادة تامة[٣٨].

— ٩ —

ولم تغب الوحدة الفنية فى القصيدة العربية عن بال ابن خلدون بل عالجها بقوله : — والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب

---

(٣٧) ص ١٤٢٢ — ١٤٢٣

(٣٨) ص ١٤٢٨ .

ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام فى مقصوده ويصلح أن ينفرد دون ماسواه فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف فى تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعرى فى قوالبه التى عرفت له فى ذلك المعنى من شعر العرب ، ويبرزه مستقلا بنفسه ، ثم يأتى ببيت آخر كذلك ثم ببيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت فى موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التى فى القصيدة ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطىء المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثانى ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ، ومن التفجع والعزاء فى الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك [٣٩] .

ويحرص ابن خلدون على شدة الارتباط بين الأبيات فى الفن الواحد ، وعلى وحدة الفنون فى القصيدة الواحدة ، ومن حقه إذا ما تحقق له ذلك أن يسمى جملة الكلام كلمة [٤٠] هكذا بالإفراد الدال على منتهى الالتحام والتماسك .

— ١٠ —

وهو على العكس من التيار السائد فى عصره ، ضد الكثافة البديعية ، فالمحمود فى المخاطبات السلطانية عنده هو الترسل أى إطلاق الكلام ، وإرساله من غير سجع إلا فى النادر وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له ، أما إجراؤها على سبيل الشعر فمذموم ، وما حمل عليه أهل عصره إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة وانفساح

(٣٩) ص ١٤٠٩ ـ ١٤١٠ .

(٤٠) ص ٨٤٠٩ .

خطوته ، وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القـــدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك حتى أنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات ، والتصريف إذا دخلت بهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس أو المطابقة ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادفه (٤١) .

هذه الحملة النقدية اللاذعة إنما كانت لأمرين هما : —

( ا ) إدخال أساليب الشعر فى النثر حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك أى بدون فهم ، ويزداد النكر إذا كان هذا النثر سلطانياً رسمياً ، فمن مظاهر الاحتشام فيه ، ومن دواعى الاحترام له أن ينزه عما عساه يكون فى الشعر من لوذعية وهزل .

(ب) الحرص على البديع والإسراف فيه ولو اقتضى ذلك فساد المعنى والإخلال بالقواعد المقررة فى التعبير عنه . وقد وضع ابن خلدون لاستعمال الألوان البديعية شرطين هما : —

١ — أن تقع من غير تكلف لأن تكلفها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخل بالإفادة من أصلها وتذهب بالبلاغة رأسا ، وأصحاب الذوق يستهجنون هذا التكلف بل إن أحدهم وهو الأستاذ أبو البركات البلفيقى اشتهى أن يشاهد من ينتحل فنون البديع فى نظمه أو نثره وقد عوقب بأشد العقاب ونودى عليه .

---

(٤١) ص ١٤٠٧ — ١٤٠٨ .

٢ — الإقلال منها : ولقد كان الشيخ أبو القاسم الشريف السبتى منفق اللسان العربى بالأندلس لوقته يقول« هذه الفنون البديعية إذا وقعت للكاتب أو للشاعر فيقبح أن يستكثر منها لأنها من محسنات الكلام ومريناته ، فهى بمثابة الخيلان فى الوجه يحسن بالواحد والاثنين ويقبح بتعددها [٤٢] » .

(٤٢) المقدمة ص ١٤٣٠ — ١٤٣١ .

# الفصل الثانى

## قضايا نقدية

تمهيد :

كنا فى الفصل السابق مع نقاد المغرب العربى ونقدهم فى دراسة رأسية بالعمق ، وقد رصدنا منهم ثمانية نقاد هم: النهشلى والقزاز والحصرى وابن رشيق وابن شرف وحازم والعبدرى وابن خلدون .

ونحن فى هذا الفصل مع القضايا النقدية بالعرض وهى دراسة تتسع وتمتد حتى تشمل معظم نواحى النقد ، أى أننا هنا مع لحمة الثوب الذى نسجناه وكنا فى الفصل السابق مع سداه ، وبانتهائنا من هذا الفصل تتم لنا رقعة النقد الأدبى فى المغرب العربى بخيوطها الطولية والعرضية .

وسنعالج القضايا النقدية لدى نقاد المغرب قضية قضية ، نصحب كل قضية فى متاحى نموها ومراحل تطورها ، نكون معها عند أولهم كما نكون معها عند آخرهم ، نرصد آراءهم فيها وأحكامهم عليها .

ومنهجنا فى ذلك هو ما التزمناه إلى الآن من مراعاة التسلسل الزمنى ليكون الانتقال من ناقد إلى ناقد طبيعياً والتطور فى كل قضية من جزئية إلى جزئية منطقياً ، وقد نربط الآراء النقدية فى المغرب بالآراء النقدية فى المشرق ، ولربما ساعدنا هذا على رؤية الحقيقة النقــدية مقرونة بماضيها وموصولة بأصولها .

— ١ —

## مقومات الشخصية الأدبية

مقومات الشخصية الأدبية هى الطبع والذوق والذكاء والثقافة والدربة ، وقد شرحناها وأوضحنا عملها ووقفنا عند من قال بها من النقاد المشارقة فى كتابينا « القاضى الجرجانى والنقد الأدبى » من ص ٢٧٤ إلى ص ٢٨٥ ، و « النقد الأدبى فى العصر المملوكى » من صفحة ٢١٧ إلى صفحة ٢٣١ .

وسنرى الآن مدى اهتمام النقاد المغاربة بها وإلى أى حد عولوا عليها فى تكوين أديب ناجح .

١ — نص ابن رشيق على المقومات الأساسية للشخصية الأدبية وحدد الأبعاد التى ينبغى أن يصل إليها المد العلمى والثقافى لهذه الشخصية ، ومن رأيه أن الشاعر مأخوذ بكل علم ومطلوب بكل مكرمة ، لكن إذا تعارض العلم والطبع فى الشعر فالطبع هو المقدم لأن تكلف العمل بالعلم فى كل أمر من أمور الدين أوفق إلا فى الشعر خاصة فإن عمله بالطبع دون العروض أجود لما فى العروض من المسامحة بالزحاف وهو ما يهجن الشعر ويذهب برونقه .

٢ — ولقد أطال حازم القول فى مقومات الشخصية الأدبية وضمن كثيراً من الإضاءات والتناوير واحداً منها أو أكثر . وهو يبسط وجهة نظره أولا ثم يجملها ثانياً فى أنه لا يكمل لشاعر قول على الوجه المختار ما لم تكن له قوة حافظة وقوة مائزة وقوة صانعة ، ويعود فيشرح كل واحدة من هذه القوى بتفصيل مسهب كما فعل فى القوة الصانعة فإنه قد صنفها إلى عشر قوى مختلفة لكنها متفاهمة ومتعاونة ، وهى تشارك فى ضفر جديلة متينة من القدرة الفنية على الإبداع والخلق ، ويتخلل ذلك أو يعقبه دليله العملى الحاصل له من اطلاعه

الواسع على النشاط العلمى والثقافى عند العرب وعلى تاريخ وتطور الأدب ، وهو يقرر فى هذا الصدد أن العرب لم تكن تستغنى بصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معانى الكلام بالقوانين المصححة لها وجعلها ذلك علماً تتدارسه فى أنديتها ويستدرك به بعضهم على بعض .

٣ — وابن خلدون يعلق على استكمال المقومات الأساسية للشخصية الأدبية نتائج مهمة .

وهو يقول بالبيئة الفكرية أو بالإطار الثقافى حين يلزم ذا الموهبة استظهار الكثير من الشعر ، لكنه يحتم أن يكون المحفوظ جيداً لتنشأ منه ملكة جيدة .

* * *

هذا ما أدلى به الثلاثة الكبار من نقاد المغرب فى قضية المقومات الأساسية للشخصية الأدبية ، وإنهم ليلتقون فى تفكيرهم بما قاله النقد الحديث فى هذه القضية ، ولو أنصفناهم لقلنا العكس وهو أن النقد الحديث هو الذى التقى بهم ، وسواء كان ذلك قصداً أم توارد خواطر فإن بن جونسون يقرر أن الدراسة والدربة ومحاكاة خير الأدباء أمور ضرورية قبل أن يستطيع العبقرى العظيم الأصيل أن يدرك ما لديه من موهبة إدراكا صحيحاً .

وهو صورة طبق الأصل من ابن خلدون فى قوله « من عود نفسه قراءة خير الأدباء وألف ذلك وجد فى نفسه على التو شيئاً منهم ، فإذا شاء أن يعبر عما فى نفسه وجد أنه ينطق كما ينطقون وإن لم يدرك ذلك واعياً » .

وعنده أنه لا جدوى من القواعد إذا انعدم الطبع أى الموهبة ، وحتى المواهب تختلف ، منها الضخم السامق ، ومنها الهزيل الدانى ، بعضها حاد

متضرم وبعضها فاتر بليد ، ولهذا احتاجت قرائح لجاماً ، واحتاجت أخرى مهمازاً[١] .

— ٢ —

## إبداع الأدب ونقده

والدور بعد استكمال مقومات الشخصية الأدبية على عملية إبداع الأدب ونقده وهى عملية صعبة معقدة .

ولا غرابة فى أن نجمع بين ابداع الأدب ونقده فى قضية واحدة لأنهما فى الحقيقة عملية واحدة ، فالخلق والنقد وجهان لشىء واحد ، وإن صاحبهما لواحد أولا ، ذلك أنه فى داخل كل أديب منشىء فنان ناقد يقوّم أدبه ويعد له بالتقديم والتأخير وبالحذف والزيادة ، يتجاوز الخطأ إلى الصواب ويتخطى الفاضل إلى الأفضل وهكذا .

هو يصدره ثم يكون هو نفسه مستقبله الأول ، على صفحة قلبه وعقله ينعكس صداه قبل أن يخرج إلى الحياة ، يغنيه شعراً على أوتار روحه ويوقعه لحناً على دقات قلبه ، فإن ارتاح له ورضى به عفا عنه وأذاعه فى الناس ، وإلا أمسكه ، ووكله إلى الناقد الكامن فيه ، فلم يكن الشاعر فى زهير هو صاحب الحوليات إذن وإنما صاحب الحوليات هو الناقد المقيم فيه ، ولو وقعت لنا المسودات التحريرية أو الشفهيـــة لكل عملية أدبية لوجدنا أنها

---

(١) مناهج النقد الادبى بين النظرية والتطبيق تأليف ديفد ديتشس وترجمة د. محمد يوسف نجم طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ ص ٢٦٨ ـ ٢٧١ ، وبن جونسون ناقد انجليزى معاصر لشكبير وله فى النقد الأدبى كتاب Timber أو كشوف .

أطول منها بكثير فلم تكن عملية الخلق الأدبى للقصيدة تستغرق من الفنان المنشىء غير وقت قصير . ربما دفقة أو دفقتين من دفقات الإلهام ، أما عملية التدبيج والترميج أى عملية النقد فكانت تقتضيه أو تقتضى الناقد المستكن فيه الوقت الطويل والجهد الكثير . يقول الجاحظ : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات[٢] .

ويقول ابن رشيق وهو بصدد الحديث عن زهير وطريقته فى نظم شعره إنه كان يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة[٣] .

وبهذا النقل لابن رشيق ننتقل بالقضية إلى الديار المغربية والنقاد المغاربة الذين تكلموا فيها هم :

١ — الحصرى : وهو قد مسها برفق فى الحوار الذى دار بين بشار وأحد المعجبين به .

٢ — ابن رشيق : والإبداع الفنى عنده يستلزم جواً خاصاً يولد به ويشب فى كنفه وهو جو مادى ومعنوى .

وإذا كان الجو المادى يتمثل فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة ، فإن الجو المعنوى يتمثل فى الخلوة بذكر الأحباب لأنه متى انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله فى الركاب .

---

(٢) البيان والتبين جـ ٢ ص ٦ — ٧ .
(٣) العمدة جـ ١ ص ١٠٨ .

ولكل شاعر طريقته الخاصة به وهو ينتج : لعبد الله بن رواحه طريقته ، ولأبي تمام طريقته ، وللمتنبي طريقته ، ولابن رشيق نفسه طريقته . الطرق كثيرة ومختلفة والقانون الأمثل هو أن يكون الشعر تحت حكمك لا أن تكون أنت تحت حكمه .

***

والشاعر مطالب بالنظر فى شعره ونقده قبل إذاعته وعليه أن يكون سمحا بالركيك منه ، فإن بيتاً واحداً جيداً خير من ألفى ردىء .

وابن رشيق من الذكاء والدهاء بحيث يعلم أن ما يطلبه من الشعراء مطلب صعب يقتضيهم مجاهدة النفس ومغالبة الرغبة فى الشهرة الخاطفة . تدبر قوله « الشعر مزلة العقول ، وذلك أن أحداً ما صنعه قط فكتمه ولو كان رديئاً » .

٣ — أما حازم فقد عالج الإبداع الفنى فى أكثر من موضع من كتابه « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » وكما قلنا فى الفصل الأول : إن تسميته بهذا الاسم تسمية مرادة ومقصودة من حازم ، وقد أوفى بما عاهد عليه نفسه وقارئه ، فهو فى كل إضاءة وفى كل تنوير يهمس همسة للأديب الخالق أو يضع لمسة على النموذج الذى يقدمه له موضحاً به ما يريده منه وهو ينتج ، وإذا كنا قد وقفنا عند المعلم ه من القسم الثانى وهو المبانى فلكى نسد خانة هذا المبحث ونملأ فراغ هذا الموضوع ، وإلا فالكتاب كله صالح لذلك .

٤ — وقد شارك ابن خلدون فى عملية إبداع الأدب ونقده بفصل هام من فصول مقدمته هو الفصل السادس والخمسون فى صناعة الشعر ووجه تعلمه ، وقد طلب فيه للشاعر بيئة جميلة مساعدة وطلب منه أن يبنى البيت على القافية من أول صوغه وأن يضعه فى مكانه المناسب له من قصيدته كما طلب منه إيقاظ

الناقد الراقد فى أعماقه ليراجع له شعره وينقده عليه أولا بأول ، وهو يحثه على الامتثال له وإسقاط مالا يبلغ حد الجودة .

## — ٣ —

## التأثرية

قياس الأدب بمبلغ تأثيره فينا قياس قديم ، وهو شىء طبيعى مادام الغرض منه إنما هو إحداث حالة شعورية شبيهة بالحالة التى عاناها الأديب .

وللوصول إلى التأثير المطلوب طرائق تقصر أو تطول بمقـــدار ما لدى صاحب التجربة الأصلية من قدرة على التعبير . والتعبير المقتدر هو الذى يلهم ويحرك وهو لن يلهم ويحرك إلا إذا كان مزيجا من التحديد الذى لا يسمح بالخطأ ومن الإبهام الذى لا نقمع الخيال .

على شىء من هذا أو نحوه اتفق نقاد الأدب فى الشرق والغرب وممن قال به من النقاد المغاربة : —

١ — الحصرى فهو يعنى التأثرية بقوله : إن ما يقرع الآذان أدعى إلى الاستحسان مما مجته النفوس لطول تكراره ولفظته العقول لكثرة استمراره .

٢ — والتأثرية من المقاييس النقدية المطردة فى منهاج البلغاء . هى الوتر الذى وقع حازم عليه كل ألحان الأدب . والمستقبلون هم الحكام : إن هشوا لما سمعوه وتأثروا به فهو أدب جيد وإن لم يهشوا ولم يتأثروا فهو أدب ردىء ، ولما كان حازم حريصاً على جودة الأدب فهو ينصح الأديب بألا يكرر ما يقول ولو كان حسناً فى نفسه ، وقد طبق ذلك حين تكلم عن ملاءمة الأدب لموضوعه وللمخاطبين به ، وهو يقرر أن وضع مالا يليق موضع ما يليق وضع

غير مؤثر ، والوضع المؤثر إنما هو وضع الشيء الموضع اللائق به .

— ٤ —

## النقد الجملى

تنبه نقاد المشرق إلى النقد الجملى منذ ارتفع صوت المبرد به فى قوله « قد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع فى كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره ، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه ، وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ومجاورته له أشهر كان ذلك له ولكن يغتفر السيء للحسن والبعيد للقريب »[٤] .

وقد وجدناه فى المغرب العربى عند : —

١ — الحصرى بتقريره أن اللفظة قد تدخل فى شفاعة اللفظات ، وأن البيت قد يمر من خلال الأبيات ، وأن الحكاية قد تعرض فى عرض الحكايات يتم بها المعنى المراد وليست مما يستجاد .

٢ — حازم برده إعجاز القرآن إلى استمرار فصاحته وبلاغته على أعلى مستوى لهما فى جميع سوره وسائر آياته .

وبمقتضى النقد الجملى لا يسقط البيت من أجل كلمة ولا القصيدة من أجل بيت ، ولا الديوان من أجل قصيدة ولا الطبقة من أجل شاعر ، ولا الأدب فى أمة من أجل بيئة من بيئاتها أو عصرها من عصورها ، ولا أدب الإنسانية كلها من أجل جيل من أجيالها أو شعب من شعوبها وهكذا .

---

(٤) الكامل حـ١ ص ١٧

— ٥ —

## الذوق الأدبى

الذوق الأدبى شىء ثابت ومقرر لا خلاف فى وجوده بل فى عمله . بعض الناس يحكمون ذوقهم وهو فى نقدهم العمدة ، وبعضهم يمنعونه من أن يحكم وإذا حكم اشترطوا أن تكون أحكامه معلله .

١ — وقد جمع النهشلى بين الحسنيين حين جعل للنقد دعامتين هما الذوق وقواعدالأدب فالنقد عنده تفسير وشرح مثلما بل قبلما هو قضاء وحكم . وعبد الكريم قادر على رد الظواهر الأدبية إلى أسبابها الحقيقية وتبرير ماجاء منها على غير المتوقع .

٢ — والنقد عند ابن شرف موهبة واكتساب أى ذوق وثقافة .

٣ — أما حازم فيقيم نقده على الذوق المثقف ، وهو لا يبعد عما قرره ابن‌شرف ، كل ماهنالك أن حازما أمضى حكم الذوق فى المعنويات والماديات أما ابن شرف فإنه جعله فى المعنويات فقط .

٤ — ولم يحتفل أحد بالذوق كابن خلدون ، فقد أفرده بفصل خاص فى مقدمته وهو يرى لزومه للأديب والناقد ، فهو يرشد الأديب إلى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب‌فى لغتهم ونظم كلامهم .وهو دليل الناقد فى نقده حتى إذا مربه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم عا به ورفضه .

## — ٦ —

## التخصص فى النقد

وقد وجدناه عند :

١ — النهشلى ، وهو يرد الأمر إلى نصابه بتحديده الذين يناط بهم توضيح الخصائص الفنية للأدب وهم المتخصصون ، وعلى حد قوله « هم علماء الناس بالشعر » .

٢ — ولقد كان ابن رشيق سعيداً بهذا النص .

ولعله من هنا جاء تسخينه نفسه راجياً ضمه إلى علماء الناس بالشعر وإدخاله فى جملة المميزين له .

٣ — وحازم كذلك يقول بالتخصص فى النقد ، فلا قيمة لحكم يصدره غير المتخصص .

وهو يعجب ممن يظن أن صناعة البلاغة صناعة سهلة يمكن تحصيلها فى مدة وجيزة علماً بأنها البحر الذى لم يصل أحـــد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها .

## — ٧ —

## لغة الأدب

لغة الأدب موضوع شغل النقاد العرب فى المشرق والمغرب ، وهذا طبيعى فالأداء الأدبى أداء نموذجى وصاحبه لا يزجيه إلى قارئه المعاصر له فقط ، وإنما يطمح إلى أن تتوارثه الأجيال اللاحقه وأن تتدارسه بحسبانه تراثاً لغوياً ، وحلقة فى سلسلة النصوص الممثلة لعصور الأدب .

ونكتفى من النقاد المشارقة بأحمد بن فارس وهو يقدم كتابه « متخير الألفاظ » قال : —

وهو كتاب كاتب عرف جوهر الكلام ، وآثر الاختصاص بجيده ، أو شاعر سلك المسلك الأوسط مرتقياً عن الدون المسترذل، ونازلا عن الوحشى المستغرب ، وذلك أن الكلام ثلاثة أضرب .

ضرب يشترك فيه العلية والدون ، وذلك أدنى منازل القول .

وضرب هو الوحشى. كان طباع قوم فذهب استعماله بذهابهم وبين هذين ضرب لم ينزل نزول الأول ولا ارتفع ارتفاع الثانى ، وهو أحسن الثلاثة فى السماع وألذها على الأفواه ، وأزينها فى الخطابة وأعذبها فى القريض ، وأدلها على معرفة من يختارها،وإنما ألفت كتابى هذا على الطريقة المثلى والرتبة الوسطى وجعلت مفاتح أبوابه الألفاظ المفردة السهلة ، وختمته بالألفاظ المركبة الجارية مجرى الأمثال والتشبيهات والمجازات ، والاستعارات ، وعولت فى أكثره على ألفاظ الشعراء بعد التنقير عن أشعارهم والتأمل لدواوينهم ، فليعلم قارئه أنه يصلح لمن يرغب فى جزل الكلام وحسنه ، ولمن يجود تمييزه واختياره ، فأما من سواه فسواء هذا عنده وغيره ،ونعوذ بالله من كلال الحد وبلادة الطبع وسوء النظر ، وليعلم أن أول ما يجب على الكاتب والشاعر اجتباء السهل من الخطاب واجتناب الوعر منه ، والأنس بأنيسه والتوحش من وحيشه ، فهذا زمان ذلك ، ولن يتسنم أحد ذروة البلاغة مع التكلف للفظ الغلق ، والتطلب للخطاب المستغرب (٥) .

• • •

---

(٥) متخير الألفاظ تحقيق هلال ناجى طبعة المملكة المغربية د . ت ص ٥٩ .

هذا النص لابن فارس ، بل هذا الكتاب له يدل على مدى الاهتمام بلغة الادب وهو اهتمام عام تندرج تحته اهتمامات خاصة بمباحث معينة .

وندخل بالموضوع إلى المغرب فنجد أن الاهتمام به فيه أكثر من الاهتمام به فى المشرق ، وقد عالجه سبعة من نقاده هم : -

١ — النهشلى ، وهو يقول بما سماه أحمد بن فارس بالضرب الوسط ، ثم وهو يسمح بتطعيم اللغة العربية بالكلمات الأجنبية كما كان الحال على عهده فى البصرة . وأخيراً باختياره التجويد والتحسين الذى يتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة

٢ — القزاز . والقزاز يتسامح مع الشعراء فيما يجوزلهم من ضروب الشعر ولا يعده عيباً عليهم لأنه رخصة لهم ومن حقهم مزاولته والتروح به ، بل إنه ليدعوهم إلى معرفته ومدارسته ليكون حجة لما يقع فى شعرهم منه .

٣ — الحصرى ، وهو يعطى مقياس جردة الأدب ، والأدب الجيد عنده هو ما حسن معناه ولفظه،وإذا كان حسن المعنى يتحقق بدلالة فحواه على مغزاه فإن حسن اللفظ لا يتحقق إلا ببارع عبارة وناصع استعارة وعذوبة مورد وسهولة مقصد وجودة تفصيل ، وإصابة تمثيل ، وتطابق أنحاء وتجانس أجزاء وتمكن ترتيب ولطافة تهذيب .

٤ — ولغة الأدب عند ابن رشيق تجمع أو يجب أن تجمع بين السلامة والجودة، وعلى الأديب أن يرغب فى الحلاوة والطلاوة رغبته فى الجزالة والفخامة. وإذا كان ذلك من باب التحلية ، فإن من قبيل التخلية أن يجتنب السوقى القريب والحوشى الغريب ليكون بين بين أو كما قال هو حالا بين حالين .

• • •

ويخالف ابن رشيق أستاذه القزاز فى مسألة الضرورات الشعرية، فهو يرى أنه لا خير فيها ، وإذا كان بعضها أسهل من بعض ، فإن منها ما يسمع عن العرب ولا يعمل به لأنهم أتوا به على جبلتهم ؛ أما المولد المحدث فقد عرف أنه عيب ودخوله فى العيب يلزمه إياه .

٥ — أما حازم فيتخطى ابن رشيق إلى القزاز ، ونراه صنوه متسامحا مثله مع الشعراء ولا سيما القدماء .

إنه يجلهم ويرى أنه كلما أمكن حمل كلامهم على وجه من الصحة كان ذلك أولى من حمله على الخطأ لأنهم من ثبت ثقوب أذهانهم وذكاء أفكارهم واستبحارهم فى علوم اللسان وبلوغهم من المعرفة الغاية القصوى .

٦ — وإذا كان حازم يرفض المصطلحات العلمية فى اللغة الأدبية — كما سنرى — فإن العبدرى قد خالف ذلك عملياً فى نثره الفنى .

٧ — ولما كان ابن خلدون يعول فى الأدب على لغته أكثر مما يعول على معناه ، وجدناه يهتم بهذه اللغة ويعالجها من أكثر من ناحية ، مرة من ناحية الصواب والخطأ ، ومرة من ناحية الفصحى والعامية ، وثالثة من ناحية الجودة والرداءة .

وقد شرحنا ذلك فى الفصل الأول بالفقرتين ٧ ، ٨ من دراستنا له ، وإنك لتحس من أول وهلة أن لغة الأدب تحتل عند ابن خلدون بؤرة الشعور فى الوقت الذى يتأرجح المعنى على حافته يكاد يسقط .

. . .

— ٨ —

## وضوح الأدب

الوضوح مطلوب فى جميع الأساليب لكن بدرجات مختلفة : وضوح الأسلوب العلمى وضوح مطلق ، ووضوح الأسلوب الأدبى وضوح نسبى ، والسبب أن شمس الفكر تسقط على طريق العلم عمودية ، ومائلة على طريق الأدب .

١ — وفى سبيل وضوح الأدب يعدد حازم ضروب الالتواء فيه أو به عن المعنى المقصود منه ليتفاداها الأدباء ، وبهذا يؤدى الأدب وظيفته فى نقل المشاعر والانطباعات والخواطر من أصحابها إلى مستقبليها المنتظرين لها والمنقبين فيها عن محتواها ومضمونها ، وإذا كان قد رفض تحميل الشعر من حيث هو شعر شيئاً ولو قليلا من المصطلحات العلمية والصناعية ، فما ذلك إلا لأن أكثر الجمهور لا يمكن تعريفهم إياها .

٢ — وابن خلدون من أنصار الوضوح ، ووضوح الأدب يتحقق إذا كانت معانيه تحصل فى الذهن بمجرد قراءته أو سماعه .

ويتطرف ابن خلدون أو يبالغ حين يقول : إن المعانى تسابق الألفاظ إلى فهم القارىء أو السامع .

— ٩ —

## اللفظ والمعنى

قضية اللفظ والمعنى قضية قديمة جداً ، ونحن نلاحظ أن الأدب العربى منذ نشأته قد قام بوظيفة مزدوجة وربما أكثر من مزدوجة لأنه قد استقطب

الفنون كلها وجعلها تدور فى فلكه ، هو أولا كلام ، وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً لون وصوت ونحت وحركة ، وإذا كان قد أعطى كل الألوان الفنية فى مده،فإنه فى جزره لا ينحسر إلا عن أمرين اثنين هما اللفظ والمعنى ، واللفظ يشمل الكلمة والجملة والأسلوب .

والمعنى يشمل الخاطرة والفكرة والعاطفة .

أريد أن أقول : — إن الأدب ينحل فى النهاية إلى شىء مادى محسوس هو قالبه وشكله ، وإلى شىء معنوى خفى هو مضمونه ومحتواه .

لكن أيهما أهم : اللفظ أم المعنى ؟

ذلك ما اختلف النقاد فيه فى مشرق ومغرب .

ونحن الآن مع النقاد المغاربة نرصد آراءهم وهم : —

١ — النهشلى . وهو كالجاحظ يعول على الأسلوب أكثر مما يعول على الفكرة ، وهو كالجاحظ مرة ثانية فى أن كلا منهما يعبر عن وجهة نظره بكلام لغيره .

٢ — أما ابن رشيق فاللفظ والمعنى عنده توأمان متلازمان ولازمان للعمل الأدبى مهما كانت درجة جودته أو رداءته ، وإذا كانت أكثرية النقاد ترى تفضيل اللفظ على المعنى ، فإن ابن رشيق يرى العكس وإن كفة المعنى عنده لترجح كفة اللفظ بمقدار ما ترجح الروح الجسم ، لكن تشبيهه اللفظ والمعنى بالجسم والروح يحمل فى طياته ما نسبناه إليه من قبل وهو قوله بالتآخى والتلازم فى العمل الأدبى بين المعنى واللفظ من حيث أن الروح لازم للجسم ، وأن الجسم لازم للروح ، وأن العلاقة بينهما إنما هى علاقة المظروف الذى لا يمكن تجريده بالظرف الذى إذا فرغناه من محتواه تحلل وفسد .

٣ — وقد قلد ابن شرف صاحبه ابن رشيق فى تشبيه اللفظ بالجسم، والمعنى بالروح، واشترط لجودة الأدب سلامة الاثنين من العطب، ثم ذهب إلى أنه إذا كان التقصير فى اللفظ محتملا . فإن التقصير فى المعنى غير محتمل .

٤ — ولا توجد حواجز من أى نوع بين اللفظ والمعنى عند حازم ، ولا عجب فهو قد مزجهما ببعضهما أولا وبموضوعهما ثانياً وجعل قدرة الأدب على التأثير رهنا بهذا المزج، وانه ليستأنس فى ذلك بما قرره النقاد قبله من أن أى تغيير فى المعنى يستلزم تغييراً فى اللفظ وبالعكس ، أى أنهمـــا ملتحمان ومتكاملان ويكونان كلا واحداً .

ولا يحول ذلك بين حازم وبين الكلام على المعنى مرة وعلى اللفظ مرة مشرعاً تارة ومقيما أخرى ، فهو يتكلم عن الألفاظ الشعرية أو ما يسميه بحسان العبارات ويتكلم عن المعانى مقسما إياها إلى معان شعرية ومعان غير شعرية ، ومقسما المعانى الشعرية إلى معان أول ومعان ثوان .

وقد عثرنا عنده على شيء شبيه بنظرية النظم التى قررها عبـــد القاهر الجرجانى (٦) قال حازم : — إن الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفوس من حيث تختار مواد اللفظ وينتقى أفضلها وتركب التركيب المتلائم المتشاكل ، وتستقصى بأجزاء العبارات التى هى الألفاظ الدالة على أجزاء المعانى المحتاج إليها .

٥ — أما ابن خلدون فيرى أن الألفاظ أصل والمعانى تبع ، وقد أدار الفصل السابع والخمسين من فصول مقدمته على أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وهو يشبه المعنى بالماء واللفظ بالإناء ، وإذا كان الماء

(٦) ـ دلائل الأعجاز ص ٨٧ ـ ٩٦ .

واحداً فإن الإناء مختلف منه الذهب والصدف ، ومنه الزجاج والخزف .

— ١٠ —

## الإفراط فى الصفة

الاعتدال فى كل شىء حتى فى الاعتدال مذهب الحكماء ، أما الأدباء ولاسيما الشعراء فيقولون مالا يفعلون لأنهم وهم يقولون يترددون بين التخيل والخيال

وإذا كان فى الخيال بعض الصدق ، فإن التخيل تفعل أى تكلف الخيال ، والشعر لا يستغنى عن واحد من الاثنين ، بل لا يستغنى عن الاثنين مجتمعين ولا عجب فهما دعامتاه ، ثم إنهما يبعثان فى النفس راحة من عناء الحياه ، ويخرجان باطرادها عن مجراه فينشط الإنسان ويتحرر من قيود الزمان والمكان ولو لفترة محدودة هى فترة الخلق أو المعايشة للإنتاج ، والتجاوب مع الشعور المنساب فى مسارب النفس أو فى دروب الخيال . وقد قال النقد الحديث كلمته وهو يقرر أن الشعر الحق يجب أن يخيل للقارىء كأنما هو تذكر [٧] .

إن التخيل والخيال توأمان ، وهما ابنان للعاطفة ، وإنهما لقادران على تفجير الطاقة الشعورية بصور شعرية بعيدة المنال .

اتفق النقاد على هذا لكنهم اختلفوا فيه : —

منهم من يسميه مبالغة ، ومنهم من يسميه غلواً ، ومنهم من يسميه إغراقاً ، ومهما يكن من أمر التسمية والاختلاف فيها وتحديد مدلولها ، فإن النقاد المغاربة قد وقفوا منها مواقف متباينة : —

---

(٧) مناهج النقد الأدبى ص ٢٩٩ وانظر الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى للدكتور محمود قاسم وبخاصة صفحات ٧ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٦٨ .

منهم من يقبلها ، ومنهم من يرفضها ، ومنهم من يتوسط فيقبلها فى حال ويرفضها فى حال .

وسنتعرف الآن على وجهات النظر الثلاثة بالترتيب الذى ذكرناه : —

١ — النهشلى : وهو من أنصار المبالغة ، فالحقيقة — أية حقيقة — نسبية ، والصدق الفنى لهذا له وجهان متساويان ، أووجهان يرجح أحدهما الآخر ، فإذا وصف الأديب الوجه المقابل له أو قرر النسبة المدركة منه ، فهو صادق مع نفسه ، وصادق مع الواقع ، وصادق للمرة الثالثة فى أدائه الفنى لا لوم عليه ولا تثريب.

٢ — أما ابن رشيق فقد انتهى بعد دراسة مسهبة للمبالغة والإيغال والغلو فى ثلاثة أبواب ، إلى أن خير الكلام الحقائق أو ما قاربها وناسبها ، وإذا لم يجد الشاعر بدا من الإغراق لحبه ذلك ونزوع طبعه إليه فليكن فى الندرة وبيتاً فى القصيدة إن أفرط ، وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بكاد أو ما شاكلها .

٣ — وقد قال حازم رأيه فى هذه القضية بتقسيمه الاختلاق إلى اختلاق إمكانى ، واختلاق امتناعى . والمبالغة عنده نوع من الاختلاق الامتناعى ، لأنها غلو فى الصفة يخرج بها الكلام عن حد الإمكان إلى الامتناع والاستحالة ، والممتنع هو ما لا يقع فى الوجود وإن كان متصوراً فى الذهن ، والمستحيل هو ما لا يصح وقوعه فى وجود ولا تصوره فى ذهن ويسمح حازم بالممكن والممتنع ، أما المستحيل فلا يسمح به إلا على جهة التهكم بالشىء والزراية عليه والإضحاك منه .

## — ١١ —

## الوحدة الفنية

الوحدة الفنية فى القصيدة العربية قضية نقدية ، وقد كانت هذه القضية — وما زالت — مطروحة للمناقشة والخلاف فيها على أشده .

فأصحاب عمود الشعر أو الشعر التقليدى يقولون أو يقول أكثرهم بوجودها فى الشعر العربى القديم وفى شعرهم ، ولا بأس عندهم من تعدد فنون القول فى القصيدة الواحدة من غزل إلى وصف إلى مديح أو هجاء ، وإلى دعاء ، أو حكمة ، فهذه الأمور كلها حلقات فى سلسلة القصيدة ، وإذا كان كل بيت له معناه أو فيه معناه الجزئى ، فإن مجموعة الأبيات تعطى المعنى الكلى وهو الغرض العام للقصيدة ، وبمقتضاه تصنف فتوضع فى قسم المدح أو الوصف أو الهجاء أو الرثاء من ديوان الشاعر .

وإذا كان أصحاب هذا الرأى قد قسموا القصيدة إلى ثلاثة أقسام هى الاستهلال والتخلص والخاتمة ،فقدفعلوا ذلك تحديداً لما يريدونه من الشاعر فى كل قسم على حدة ، وما يريدونه كله يخدم الوحدة الفنية والالتحام التام بين الأقسام الثلاثة ، فالاستهلال تمهيد يدنى من الغرض ويفتح مسام النفس لما يراد إرواؤها به وتمثلها له .

والتخلص توفيق من الشاعر فى الخروج من التمهيد بلطف والدخول إلى الموضوع بلطف أكثر .

والختام فطام للنفس عن الاسترسال مع الموجة الهادرة فى القصيدة ذات الصدق الشعورى ، وهدهدة لمستقبل الأدب كى لا يصدم لو بترنا القول بتراً وتركناه بلا وداع مناسب .

• • •

أما أصحاب الشعر الحديث ، وهو الشعر النثر كما يقولون فى النحو ( اسم فعل ) لما يقف من الكلمات على الأعراف بين وادى الأسماء ووادى الأفعال ، فهؤلاء ينفون نفياً قاطعاً تمتع القصيدة العربية إلى عهدهم بالوحدة الفنية وإنهم لمعذورون ، فهم لا يتعمقون ما يقرءون بل يعومون على السطح ، وإن منهم لمن يؤمن بينه وبين نفسه بتحقق الوحدة الموضوعية فى القصيدة العربية ولكنه يطوى ذلك طياً ولا يقوله لتثبت له ولشعره الفضيلة والمزية . لا قافية ، وربما لا وزن . لماذا ؟ لأن الكلام ممتد والمعنى ماض لم يصل بعد إلى حد ،أما النغم فخادم وليس بلازم فى عصر الحرية والديموقراطية ، وعليك أن تستشعر اللذة مع هذا الشعر الخنثى ، وإلا فأنت جامد هامد مصمت لا تتجاوب ولست عصريا ، وقد تكون — ومعذرة — لست سوياً .

* * *

وبديهى أن المناقشة لم تكن بهذا العنف فى النقد العربى السابق .

وسنرى الآن ما كان من نقاد المغرب فى هذا الشأن .

١ — النهشلى ، والبيت ليس وحدة القصيدة عنده ، فهو يوافق على ربط البيت اللاحق بالبيت السابق إذا كان مكملا لمعناه ، وقد عددناه لهذا من أنصار الوحدة .

٢ — أما ابن رشيق فأجزاء القصيدة عنده وهى المبدأ والخروج والانتهاء أجزاء بكل ما تتضمنه كلمة جزء من معنى، ولكل جزء منها خصائصه المميزة له، ومبررات هذه الخصائص ، وهى مبررات ترجع أكثر ما ترجع إلى مواقعها فى القصيدة أولا ووسطاً وآخراً . نفهم هذا من كلامه[8] وهو قد نص عليه صراحة بقوله عن غيره وعن نفسه : —

(٨) العمدة جـ ١ ص ٢١٧ ـ ٢١٤ .

ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض ،وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده[٩] .

وابن رشيق بهذا الرأى له ضد وحدة القصيدة العربية .

٣ — ونسأل عن موقف حازم من هذه الوحدة فنجده قد أهدرها بما ذهب إليه من أن تناصر البيتين مستقبح ، أما عدم تناصرهما فمستحسن ، ولم ننس بعد قوله : وأما ما يجب فى القافية من جهة كونها منفصلة عما بعدها أو متصلة به فلا يخلو الأمر فى هذا من أن تكون الكلمة الواقعة قافية غير مفتقرة إلى ما بعدها،ولا مفتقر ما بعدها إليها ، أو يكون كلاهما مفتقراً إلى الآخر أو تكون هى مفتعرا إلى ما بعدها ولا يكون ما بعدها مفتقراً إليها أو يكون ما بعدها مفتقراً إليها ولا تكون هى مفتقرة إليه،فالقسم الأول هو المستحسن على الإطلاق، والأقسام الثلاثة أشدها قبحاً مناقض القسم المستحسن ، ويسمى افتقار أول البيتين إلى الآخر تضميناً لأن تتمة معناه فى ضمن الآخر ، والتضمين يكثر فيه القبح أو يقل بحسب شدة الافتقار أو ضعفه[١٠] .

٤ — ومع أن ابن خلدون يفضل أن يكون كل بيت فى القصيدة قائما بنفسه وغير محتاج فى بيان معناه إلى غيره ، إلا أنه يحرص على وجود ارتباط بين الأبيات فى الفن الواحد وعلى تناسق الفنون فى القصيدة الواحدة ، وتأكيداً لذلك يسمى جملة الكلام كلمة ، هكذا بالإفراد الدال على منتهى الالتحام والتماسك .

وإذن فهو يقول بالوحدة الفنية .

• • •

---

(٩) العمدة حـ١ ص ٢٦٢

(١٠) منهاج البلغاء ص ٢٧٧

هؤلاء أربعة النقاد المغاربة منهم اثنان يقولان بالوحدة الفنية للقصيدة العربية ، واثنان لا يقولان بها ولكل وجهة .

وللنقد الحديث رأى فى هذه القضية خلاصته أن القصيدة كل مركزه روح الشاعر الذى هو مصدر التماسك الداخلى لأى عمل شعرى ، وهذه الروح تشبه أن تكون نظاماً شمسياً تنجذب نحوه جميع الأشياء ، وما الجزئيات وغيرها إلا كواكب تسير فى فلكها ، إنها تكون الكل وتمثله ، وهى تساعد أو ينبغى أن تساعد على التوغل فى التجربة الشعرية لدرجة التلبس بها ، وقد تعطى جزئية صغيرة مفتاح القصيدة كلها ، بل قد تعطى مفتاح الشاعر فى سائر شعره[١١] .

## — ١٢ —

# أثر البيئة فى الأدب

البيئة من العوامل المؤثرة فى الأدب ، وإنها لكذلك مرتين : مرة بتأثيرها فى الأدب رأساً ، ومرة بتأثيرها فى الأدب من خلال تأثيرها فى الأديب ، يصف الأديب بيئته ويتأثر بها ، هذا تأثير مباشر ، وتطبع البيئة الأديب بطابعها فيجفو وييبس أو يرق ويلين ثم ينتج فنرى فى إنتاجه لونه وشكله وطبعه ، هذا تأثير غير مباشر ، اهتـــدى النقاد العرب فى المشرق والمغرب إلى ذلك كله ، وممن قال به من النقاد المغاربة : - -

١ — عبد الكريم بقصده الأماكن الطبيعية الجميلة وهو ينتج،وبسماحه بتطعيم العربية بكلمات فارسية فى البصرة .

---

(١١) انظر التركيب اللغوى للأدب تأليف دكتور لطفى عبد البديع الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ ص ١٠٦ .

٢ — وقد رأينا أن عملية الخلق الفنى تستلزم من وجهة نظر ابن رشيق جواً مادياً موحياً .

٣ — أما حازم فإن نظرته إلى أثر البيئة قد اتسعت حتى شملت كل أنواع البيئة وكل ألوان التأثير ، فالبيئة — فى رأيه — تشمل المهيئات والأدوات والبواعث .

والمهيئات تحصل من وجهين هما النشء فى بقعة طيبة الهواء والترعرع بين الفصحاء .

والأدوات تنقسم إلى العلوم المتعلقة بالألفاظ والعلوم المتعلقة بالمعانى . أى المناخ الفكرى .

والبواعث إطراب وآمال .

— ١٣ —

## البديع

غزا البديع الإنتاج الأدبى فى العالم العربى ، وقد انعكس ذلك على النقاد المغاربة ، وهم فيه مختلفون : —

منهم من توسط وهم الأكثرية ، ومنهم من تكالب عليه ودعا إليه ، ومنهم من نفر منه ونهى عنه ، ولنضع النقط فوق الحروف : —

١ — الحصرى ، وهو بديعى المذهب بدليل إعجابه ببدائع البديع ولآلى الميكالى وشهى الخوارزمى وغرائب الصاحب ونفيس قابوس ، وشذور أبى منصور ، لكنه إذا خير بين الصنعة والطبع ، فإنه يختار الأمر الوسط .

٢ — ولما كانت الصنعة من البديع ، والبديع من الصنعة ، فإن ابن رشيق

يكون من رجال البديع بتفضيله الصنعة القريبة من الطبع على الطبع العارى عن الصنعة .

وليس معنى هذا أن يجعل الأديب كلامه كله بديعاً وصنعة لا . فهذه الأشياء فى الشعر إنما هى لمع ورقع أرجوانية تستظرف مع القلة وفى الندرة ، فإن كثرت قبحت ودلت على الكلفة .

وليس معنى هذا أيضاً أن يجعل الشاعر شعره خلواً من هذه الحلى ، فارغا كالكثير من شعر أشجع وأشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة .

لا هذا ولا ذاك بل ما بينهما .

٣ — والاعتدال فى استعمال البديع مطلب مؤكد من حازم بل إن الاعتدال ولزوم الأمر الوسط هو مذهبه الذى يمكن أن نضيفه إليه ونحن مطمئنون إلى أنه لن يخرج عليه فى أى موقف .

٤ — العبدرى . وهو رجل صنعة وبديع عملياً ونظرياً ، أما عملياً فكتابه كله مسجوع ومرصع بالبديع .

وأما نظرياً فبتعليقه على وصف الشقراطسى لمنبر المسجد النبوى (١٢) .

إنه بهذا التعليق له قد أفصح عن مذهبه وهو مذهب البديع وواضح أنه لم يرزق الألمعية التى تتيح له التحرر منه كما فعل مواطنه ابن خلدون .

٥ — وربما كان ابن خلدون هو الوحيد الذى كسر بيضة البديع فى عصره عمليا بترسله ، ونظرياً بدعوته الملحة إلى هذا الترسل ، وهو لا يجيز البديع إلا إذا كان قليلا وغير مقصود .

---

(١٢) الرحلة ص ١٢٨ وانظره فى الفصل السابق .

## — ١٤ —

# فنية الأدب

فنية الأدب هى الانحياز به ناحية الفن وقياسه بمقاييسه أى بصرف النظر عن غرضه .

وفى مقابلة الفنية توجد المثل العليا والمبادىء الدينية .

والنقاد المغاربة فريقان : فريق مع الفنية وفريق مع المثل والمبادىء . وإليك البيان :

١ — النهشلى . وهو أديب وناقد ، فالنهشلى الأديب يؤمن بالأدب الملتزم ، والنهشلى الناقد يؤمن بالقيمة الفنية للأدب .

٢ — أما ابن شرف فلا يؤمن بالقيمة الفنية للأدب بل بالأدب الملتزم ، ها هو ذا يسجل على ابن هانىء رقة دينه وضعف يقينه ،ولو عقل لم تضق معانى الشعر حتى يستعين عليها بالكفر .

٣ — وعلى العكس من ابن شرف يقول حازم بالقيمة الفنية للأدب ، بل إنه ليشرع للهزل ويرسم خططه ،وهو يبرر ذلك بأنه إذا أريد الحكم بين شاعرين متماجنين أيهما أشعر ؟ أو بين جاد وماجن أيهما أمضى فى طريقته وأبرع فيها لم يكن بد من معرفة ذلك [١٣] .

• • •

(١٣) انظر النقد الأدبى فى العصر المملوكى للمؤلف ص ٢٥٧ .

## — ١٥ —

# موسيقى الأدب

موسيقى الأدب قاسم مشترك بين الشعر والنثر .

وقد تعرض لها من النقاد المغاربة .

١ — حازم . فمن ملاءمة الأدب لموضوعه وللمخاطبين به من وجهة نظره تناسب موسيقى الشعر وهى الوزن والقافية مع موضوعه .

وحازم يوسع هذه الدائرة حتى تشمل التناسب بين الفن كلية وبين موضوعه

٢ — ومن موسيقى الأدب عند العبدرى تناسب الكلام وتماثل نسق الألفاظ وجريانها على نمط متساوى التركيب ،وهذه الأمور ونحوها يمكن ردها إلى الشعر ويمكن ردها إلى النثر .

٣ — والشعر كما جاء فى تعريف ابن خلدون له كلام مفصل قطعاً متساوية فى الوزن متحدة فى القافية ، ولم يقل العرب فى كل وزن ممكن ،إن هى إلا أوزان قليلة استعملوها وسموها بحورا ،والشعر مجال الشعور ، وللتعبير عن الشعور طرق تخالف التعبير عن الإدراك وبهذه التفرقة خرج المتنبى وأبو العلاء من زمرة الشعراء ، ولا عجب فهما لم يسلكا الأساليب المخصوصة للشعر ، وبعبارة أخرى لم يعبرا عن الشعور .

. . .

مما تقدم نعلم أن الفرق بين الشعر والنثر من ناحية الموسيقى فرق فى الدرجة لأنه إذا استأثر الشعر بالموسيقى الخارجية ، فإنه لا يستأثر بالموسيقى الداخلية وهي الأدخل فى الفنية ، والأديب — شاعرا وناثراً — يرتب ألفاظه وجمله

ترتيباً خاصاً لتحدث رنيناً معيناً ، وهـذا الرنين نوع من التعبير لأن صوت اللفظ بعض معناه ، ومن المستحيل — كما يقول جورج ديهاميل — أن نتحدث دون أن نغنى ، لافى الشعر فحسب ، بل وفى النثر أيضاً [١٤] .

. . .

ومهما يكن من أمر هذا التقارب بين الشعر والنثر ، فإن لـكل منهما منطقة نفوذه الخاصة به ، وإذا كان الشعر بعد القلب هو الموطن الثانى للعاطفة فإن النثر بعد العقل هو الموطن الثانى للفـكر ، وربما كان هذا الفرق قد اتخذ أساساً للمفاضلة قديماً بين الشعر والنثر .

١ — فابن رشيق يفضل مطلق الشعر على مطلق النثر بجعله كلام العرب منظوما ومنثوراً ثلاث طبقات . جيدة ومتوسطة ورديئة ، واعتقاده أنه إذا اتفقت الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ، ولم يكن لإحـــداهما فضل على الأخرى كان الحـكم للشعر ، وهو يعلل هذا الحـكم بأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه ، وإذا اعترض عليه معترض بالقرآن دافع عن رأيه دفاعا فيه عناء وجهد ، لـكن فيه إلى ذلك ذكاء وفن .

٢ — أما حازم فإنه يصنف الأنواع الأدبية مراعيا خصائصها الفنيـة ، وينبه إلى أن هذه الخصائص ليست حتمية بل قد تتخلف ، ويحدث أن تتبادل هذه الأنواع بعض خصائصها فيما بينها ، فيأخذ النثر بعض خصـائص الشعر ويأخذ الشعر بعض خصائص النثر ، وقد جعل حازم ذلك بمثـابة التحجيل وشرحه بقوله . — إنه إذا كان التخييل هو قوام المعانى الشعرية ، فإن الإقناع

(١٤) دفاع عن الأدب ص ٢٠٦ .

هو قوام المعانى الخطابية ، واستعمال الإقناعات فى الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها فى الأقاويل الخطابية فى الموضع بعد الموضع ، وإنما ساغ ذلك لأن النفوس تحب الافتنان فى مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة من بعض ذلك ، والفن المراوح بين معانيه أفضل من الفن الذى لا مراوحة فيه .

٣ — وبعد أن يقسم ابن خلدون الأدب إلى فنى النظم والنثر يقرر أنه لا فرق بينهما إلا فى الوزن ؛ أما التقفية فمشتركة بينهما وهى فى الشعر قافية وفى النثر سجع .

. . .

والخلاصة أن الجهة ليست منفكة بين الشعر والنثر ، وإذا سلمنا بوجهة نظر ابن خلدون — وإنها لمسلمة — فإن الشعر لا يستأثر من موسيقى الأدب إلا بالوزن ، أما القافية فموجودة فيهما ، وهى فى النثر سجع وفى الشعر قافية ، لا فرق إلا فى التسمية .

## — ١٦ —

## السرقات الأدبية

السرقة داء قديم وهى قاسم مشترك بين الشرق والغرب رمى بها جرير والفرزدق والأخطل وبشار وأبو نواس والبحترى وأبو تمام والمتنبى ،وألصقت بهيرودتس وأرستوفان وسوفوكليس ومنندر وتيرنس ، بل إن أدبا كاملا هو الأدب اللاتينى قد اتهم بأنه سرقة واسعة من الأدب اليونانى ؛ وقد أنصف الشاعر والناقد المعاصر ت.س. اليوت فى قوله : إن أى شاعر أو فنان لا يمكن

أن يدعى معنى لنفسه، إذ لا بد من وجود صلة قوية بين معانيه ومعانى الشعراء الأقدمين [ ١٥ ] .

. . .

ولم يكن النقاد المغاربة لينكصوا عن الخوض فيها، وإضاءة جوانبها بما لهم من ثاقب الفكر وصائب الرأى ، ونقف منهم عند :

١ — عبد الكريم النهشلى . وهو يسمح بأخذ المعانى إذا حولها الآخذ عن موضوعها الذى وردت فيه إلى موضوع آخر ، وما دام الأمر كذلك فإنه يغرى به ويرى تركه غفلة .

٢ — ابن رشيق . وهو يعالج السرقات الأدبية متأثراً فى ذلك بالنقاد المشارقة وبخاصة القاضى الجرجانى صاحب الوساطة [ ١٦ ] ، على أن له فى أثناء ذلك لفتات فذة هو صاحبها فكراً وصياغة ، ومنهجه القائم على تحديد معانى الكلمات قبل تداولها فى باب السرقات منهج مقنع ، ولو أن كل المتجادلين سلكوا مسلكه لاختصروا نصف وقت المناقشة أو أكثر ، وعنده أنه إذا كان الاختراع وصفاً للمعنى ، فإن الإبداع وصف للفظ .

والشاعر الذى يأتى بمعنى مخترع ، فى لفظ بديع هو الشاعر الذى استولى على الأمد وحاز قصب السبق ،

ومن يقرأ باب الاشتراك يجده مدخلا بل محوراً لدراسة السرقات الأدبية ، ذلك أن منه ما يكون فى اللفظ ، ومنه ما يكون فى المعنى . الأول ثلاثة أنواع والثانى نوعان ، ولا تكون السرقة إلا فى نوعين من هذه الخمسة ، وهى فيهما ذات سمات مختلفة وأسماء متعددة : الاصطراف

(١٥) مشكلة السرقات الأدبية محمد مصطفى هداره ص٢٢٣، ٢٢٨.

(١٦) انظر « القاضى الجرجانى والنقد الأدبى » للمؤلف ص٤١٤ .

والاغارة والغصب والمرافدة والاهتدام والملاحظة والإلمام والاختلاس والموازنة والعكس والتلفيق الخ ، ولا تتصور السرقة إلا فى البديع النادر والخارج من العادة أسلوبا وفكراً ، وإنهما ليظلان كذلك ما لم يبتدلا ، فإذا أرخصهما الاستعمال حتى ابتذلا لم يعد أخذهما سرقة بل إنه قد يستوجبهما أديب لا حق إذا أعادهما الى طرافتهما .

ويفطن ابن رشيق الى أن المعانى تتوالد ويكون بعض منهــا إرهاصا ببعض ، وما أعجب قوله . « والشاعر يورد لفظاً لمعنى فيفتح به لصاحبه معنى سواه لولاه لم ينفتح » وقوله « فالكلام من الكلام يؤخذ وإن خفيت طرقه وبعدت مناسبه » .

وهو ينبه الى السرقة المحمودة بقوله :« والمخترع معروف له فضله متروك له من درجته ، غير أن المتبع اذا تناول معنى فأجاده بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزا أو يبينه إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا أو رشيق الوزن إن كان جافيا ، فهو أولى به من مبتدعه » .

. . .

والاجتلاب غير السرق ، وهو أن يرى الشاعر بيتاً يصلح لموضع من شعره فيجتلبه له .

وأجل السرقات عنده نظم النثر وحل الشعر ، وصاحبه حرى بألا يسمى سارقا .

وإنه ليلتمس العذر لتوارد الخواطر على المعنى الواحد بما لا نجده عند غيره من أنه إما نسيانا يمر الشعر بمسمعى الشاعر لغيره فيدور فى رأسه أنه له ، أو يأتى عليه الزمان الطويل فينسى أنه سمعه قديما ، وربما كان ذلك اتفاق قرائح وعقول رجال توافت على ألسنتها .

ومع أن مامر كاف فى الاعتذار عن توا د الخواطر إلا أنه يمضى فيلتمس له عذراً فنياً بل ومعما فى الفنية قال : —

إن الصانع إذا صنع شعراً ما وقافية ما وكان من الشعراء شعر فى هدا الوزن وذلك الروى وأراد المتأخر معنى فأخذ فى نظمه ان الوزن يحصره والقافية تضطره وسياق الألفاظ يحدوه حتى يورد نفس كلام الأول ومعناه حتى كأنه سمعه وقصد سرقته وإن لم يكن سمعه قط .

ولا يترك ابن رشيق مسألة التوارد دون أن يمثل لها بواقعة مصدقة منه قال : — وأما أبو الحسن التهامى فكثيرا ما أوارده حتى أتهم نفسى فيما أعلم ويعلم الناس أنى سبقته إليه علم ضرورة وبحضرة التاريخ ، غير أن للمشرق فضيلة ومزية .

٣ — ابن شرف . والسرق عنده كثير الأجناس فى شعر الناس ، وهو نوعان رئيسيان سرقة ألفاظ وسرقة معان ، وسرقة المعانى أكثر لأنها أخفى .

والسرقة المحمودة هى ما كانت باختصار فى اللفظ وزيادة فى المعنى ، وعكسها المذمومة .

وهو لا يعد التوارد سرقة ، ولعله أول من أخرجه منها .

٤ — حازم . وقد عالج السرقات الأدبية بالمعلم الدال على طرق العلم بأنحاء النظر فى المعانى من حيث تكون قديمة متداولة أو جديدة مخترعة ، وواضح من عنوان المعلم أنه لم يتعرض لسرقات الألفاظ ولو أنها ستكون أساس التفاضل فى القسم الأول من المعانى. أما المعانى ، فمنها ما هو متصور فى كل خاطر ، ومنها ما يكون تصوره فى بعض الخواطر دون بعض ، ومنها مالا تصور له فى خاطر وإنما يخترعه العباقرة من الشعراء .

والقسم الأول لا سرقة فيه ، ولا حجر فى أخذ معانيه ، لأن الناس فى وجدانها سواء ، ولا فضل لأحد على أحد فيها إلا بحسن تأليف اللفظ ، فإذا تساوى تأليف الشاعرين فى ذلك فإنه يسمى الاشتراك،وإن فضلت عبارة المتاخر عبارة المتقدم فذلك الاستحقاق ، وإن قصرت فذلك الانحطاط .

أما القسمان الثانى والثالث فمتحملان للسرقة أى أنها واردة عليهما وممكنة فيهما ، لكن منها المحمود والمذموم . ومراتب الشعراء فيما يلمون به من المعانى أربعة : اختراع واستحقاق وشركة وسرقة ، والسرقة قبيحة وإن كان بعضها أشد قبحا من بعض .

## — ١٧ —

## القدماء والمحدثون

أى شاعر مهما تقدم الزمن به كان محدثا فى عصره .وعلى الرغم من تفهم النقاد العرب لهذه الحقيقة وإلمامهم بها إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم حول ماسموه قضية القدماء والمحدثين كان ذلك فى المشرق ، وقد سرت عدواه إلى المغرب والنقاد المغاربة الذين تكلموا فيها هم : —

١ — النهشلى . وعنده أنه لا فضل لقديم على محدث ، ولا لمحدث على قديم مادام كل منهما قد عبر بصدق عن عصره

٢ — القزاز بملاحظته أن المعاصرة حجاب،وأن المنافسة بين الطلاب مدعاة إلى الجور والشطط ،فأكثرهم إذا مر به بيت لشاعر من أهل عصره فيه تقديم أو تأخير أو زيادة أو نقصان أو تغيير حركة أخذ فى التشنيع عليه والجهر بتخطئته ولو أنصفه أولو أنصف الحق من نفسه لعلم أن ماعابه صحيح أوله وجه من الصحة.

٣ — الحصرى ،وهو حسن الظن بالمحدثين والمولدين لأن لهم من لطائف

الابتداع وتوليدات الاختراع أبكاراً لم تفترعهما الأسماع يصبو إليها القلب والطرف ويقطر منها ماء الملاحة والظرف .

٤ — ولابن رشيق رأيان فى هذه القضية بناء على أنه مزدوج الشخصية ، فهو ناقد مرة وشاعر أخرى ، وهو ناقداً أميل إلى القدماء ،وشاعراً أميل إلى المحدثين لأنه منهم . ونظرته الأولى موضوعيـــة أو أقرب إلى الموضوعية ، أما نظرته الأخرى فذاتية أو أقرب إلى الذاتية .ولعله بهذا أولهذا كان متعادلا مع نفسه ومنصفاً الحقيقة المجردة بتقريره أن القدماء أحكم بناء وأرسخ عمداً ، أما المحدثون فأرق لفظا وأرق فكراً .

٥ — ابن شرف . وقد عالج قضية القدماء والمحدثين معالجة طيبة بطلبه من النقاد التحفظ عن شيئين هما إجلال القديم واستصغار المعاصر لا لسبب إلا أن ذلك قديم وهذا معاصر حتى تمحص قولهما فحينئذ تحكم لهماأو عليهما .

٦ — وحازم ناقد محايد لا فرق عنده بين قديم ومعاصر بل إنه لا يخفى استياءه من يفضلون المتقدمين على المتاخرين جملة ، وأمثال هؤلاء ليسوا ممن تجب مخاطبتهم أى أنه لا يحترمهم .

وواضح من هذا العرض أن النقاد المغاربة منصفون فهم لا يتعصبون إلا للجودة .

## — ١٨ —
## مقاييس نقدية

صادفتنا ونحن نقرأ النقد الأدبى فى المغرب العربى مقاييس نقدية بارزة ، وهى مقاييس تتردد بين الجودة والرداءة . وقد وجدت أن من الأمانة العلمية بالنسبة إليها أن أنوه بها وأن أدل عليها . وهذه هى : —

١ — للجودة عند ابن شرف علامات منها : حسن التصوير ، واختراع المعانى ، والطبع ، والأصالة ، وصقل الأدب ، وحسن التصرف فى فنونه ، ومن بعد ذلك كله أو نتيجة لذلك كله خلوده بخصائصه الفنية، وعدم وقوفه عند مناسبته.

وللرداءة أيضا علامات منها : — تقصير الشاعر فى فن أو أكثر من فنون الشعر ، وتباين شعره جودة ورداءة وقرب لغة الأدب من لغة العلم ، والتكلف ، واللحن الذى لا يمكن الدفاع عنه ، وخشونة حروف الكلمة ، وتعقيد الكلام ، واختلال الموسيقى ، ومجاورة الكلمة مالا يناسبها ولا يقاربها والافتتاحات الثقيلة ، والكلام المضاد للغرض ، والقافية التى لا ترتبط بماقبلها من الكلام وجفاء الحبيب فى النسيب .

٣ — وأفضل الشعر عند حازم ما حسنت محاكاته وهيئته ، وقويت شهرته أو صدقه ، أو خفى كذبه وقامت غرابته .

وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة واضح الكذب خلياً من الغرابة وما أجدر ما كان بهذه الصفة ألا يسمى شعرا وإن كان موزوناً مقفى إذ المقصود بالشعر معدوم منه .

* * *

## البلاغة فى المغرب

اختلطت البلاغة بالنقد الأدبى فى المغرب العربى مثلما اختلطت به فى المشرق ولما كان كتابنا هذا ليس رصدا للبلاغة المغربية فإننا نجتزىء منها بالقليل على سبيل التمثيل.

١ — النهشلى ، فنحن نفهم من الفصل الذى أورده ابن رشيق له فى باب القدماء والمحدثين أن البلاغة إنما هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

٢ — الحصرى ، وهو يعطى مقياس جودة الرثاء . والرثاء الجيد عنده هو ما خلط فيه المدح بالتفجع على المرثى ، ولا بد من أن يكون بكلام صحيح ولهجة معربة ونظام غير متفاوت .

٣ — ابن رشيق . وابن رشيق ممن ينادون بالشاعر القادر على القول فى كل الفنون ، بل إنه ليريده موحد الدرجة ، لا يكون فى النسيب أبرع منه فى الهجاء ، ولا فى الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ، ولا فى موضع أحسن منه فى آخر ، ويتخيل أنه وجده ، وقد أخذ لهذا يلقنه أصول الصنعة وما يجب أن يتوخاه فى كل غرض : —

• حق النسيب أن يكون عذب الألفاظ قريب المعانى .

• والفضائل النفسية هى المعول عليها فى المدح ، لكن لا بأس من المدح بالفضائل العرضية والجسمية .

• والافتخار هو المدح .

• وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف.

• وللعتاب طرائق كثيرة وللناس فيه ضروب مختلفة .

• وأبلغ الهجـــاء ما خرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض .

• والاعتذار عن طريق الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ لا سيما مع الملوك وذوى السلطان ، والمعتذر الناجح هو الذى يعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه وكيف يمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه .

• وأحسن الوصف ما نعت به الشىء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الأبل ونعوتها والقفار ومياهها ، وحمر الوحش والبقر ، والظلمان والوعول ما بالأعراب وأهل البادية لرغبة الناس فى الوقت

عن تلك الصفات وعلمهم أن الشاعر يتكلفها ، والأولى بنا فى عصرنا (عصر ابن رشيق فالكلام له) صفات الخمر والقيان وما شا كلها وكان مناسباً لها كالكئوس والقنانى والأباريق ونفاح التحيات وباقات الزهر إلى مالابد منه من صفات الخدود والقدود والنهود والوجوه والشعور والريق والثغور والأرداف والخصور ، ثم صفات البرك والرياض والقصور وما إلى ذلك من الأمور التى تناسب المولدين .

ولم يكن ابن رشيق فى هذا الدرس البلاغى نظرياً محضاً ، بل كان نظرياً عملياً يطبق ما يقول على كلام الفحول ، ويمثل له بروائع الشعر .

٤ — ومن ملاءمة الأدب لموضوعه وللمخاطبين به عند حازم تردده بين الإيجاز والإطناب والمساواة تبعا للظروف التى قيل فيها .

ويقوم كل من المدح والذم عنده على أساس تحليلى لفضائل ورذائل الشخص، وهى إما فضائل ورذائل جسم ، وإما فضائل ورذائل نفس .

وهو مع قدامة فى أن المدح والذم الحقيقيين لا يكونان إلا بإثبات أو نفى الفضائل النفسية ، أما الأمور الجسمية فليس فى إمكان الإنسان تغيير شىء منها عما هو عليه .

ويترتب على ذلك أن مدحه بما يستحسن من ذلك مخادعة له ، وذمه بما يستقبح منه تحامل عليه،ولا يغرب عن باله أن مدح الإنسان أو ذمه بما لاقدرة له على تغييره من صفات الجسم قد ورد عن العرب [ ١٧ ] ، ولكنه يجد من الاندفاع فيه باشتراطه كونه مما من شأنه أن توجد الفضائل أبداً بوجوده .

ولحازم عبارة ثمينة فرق فيها بين القاعدة العلمية والقاعدة الفنية . وهذه العبارة هى :—

---

(١٧) أنظر باب الجمال ص ٨٣ — ص ٨٦ فى كتاب ( متخير الألفاظ ) لأحمد بن فارس .

« فقد تبين أن أفضل المواد المعنوية فى الشعر ما صدق وكان مشتهرا ، وأحسن الألفاظ ما عذب ولم يبتذل فى الاستعمال ، وكلا منا ليس واجبا على الشاعر لزومه بل مؤثر حيث يمكن ذلك »

يريد حازم أن يقول : إن القاعدة العلمية ملزمة لصحة التركيب وسلامته من الخطأ ، والقاعدة الفنية غير ملزمة لأنها لتوفير الجمال والإعجاب به ، وأقصى مدها هو « ينبغى » أو « يحسن » .

٥ — وإذا كان الأداء الأدبى لا يخرج عن كونه إيجازا أو إطنابا أومساواة ، فإن ابن خلدون مع المساواة ، ولو خيرناه بعدها بين الإيجاز والإطناب ، فإنه يفضل الإطناب ، شأن الكتاب فى كل زمان ومكان .

. . .

تلك — من وجهة نظرى — أهم القضايا التى عالجها النقد الأدبى فى المغرب العربى . أخذناها من الفصل الأول ، لكننا لم نستنفد المادة النقدية التى اشتمل عليها ، وإنما بقيت به طاقات يمكن أن تكون فصلا مماثلا لهذا الفصل ، وقضايا أخرى بعدد هذه القضايا ، والذى شجعنا على ترك مالم نثبته هنا أنه مثبت هناك ، وغالباً ما كنت أشير إلى رأس الموضوع أو ألخصه تاركا للقارىء الرجوع إليه كاملا أو مفصلا .

لقد جاء النقد فى الفصل الأول أشبه ما يكون بالأثواب الكاملة ، وفى الفصل الثانى كأنه حلل مفصله ، فى الفصل الأول فردت الأثواب واستعرضتها ، وفى الفصل الثانى خطت منها أثوابا نقدية ، ثوباً ثوباً لكل قضية .

قد يكون أحد هذه الأثواب قصيراً أو قد يكون ضيقا ، وليس هذا ذنبى بل ذنب النقد المغربى وذنب من غزله ، فالقضايا أجساد والنقد أنسجة ، ولم يكن

أمامى إلا أن أصنع من هذه الخامات أثوابا مناسبة ، وقد جاء معظمها والحمد لله سابغاً ، والسبب فى ذلك وفرة النقد وتعدد النقاد ، ما كنت أجد ثغرة لدى أحدهم حتى يأتى آخر ويسدها ، وما كان يصادفنى نقص فى ناحية حتى أجد تكمله له فى ناحية .

وهكذا مضى النقد الأدبى فى المغرب العربى على نهجه مدفوعاً بقوته الذاتية ، وبالحيوية التى كانت للنقد الأدبى فى المشرق .

# الفصل الثالث

## أصالة النقد المغربى

مفهوم أن يتتلمذ المتأخر على المتقدم ويستفيد منه ، ومن المنتظر أن يوافقه فيما له من فكر أو رأى ، لكن هذا ونحوه تقليد لا تجديد ، وهو يحسب فى فضل المتبوع والتابع إذا أشبهت الحقيقة الحقيقة واقتربت الطريقة من الطريقة، فإن تخلف ذلك ، كان من الأصالة المحمودة ومن التجديد المفيد أن يستقل المرء برأيه ، وأن ينهج منهجاً خاصاً به . وهذا ما كان من نقاد المغرب ، فكم وقفنا لهم على رأى جديد ومذهب سديد وتفكير مبتكر يقولونه لذاته أو لتصحيح خطأ . ولم نَنْسَ بعد مدى القوة والحيوية بل اللوذعية فى نقد العبدرى ، سواء منه التطبيقى والنظرى ، ولطالما نعى على العالم العربى إقفار معظم الأمصار فيه من أهل العلم والأدب، وهو يصدمنا فى صدر رحلته بقوله :ـ

« وقد تعطل فى هذا العصر موسم الأفاضل ، وتبدد فى كل قطر نظام الفضائل ، وتفرق أهلها أيادى سبا ، وصاروا حديثاً فى الناس مستغرباً ، فعادوا اسماً بلا مسمى ، وحرفاً مادل على معنى ، فالمحدث عنهم فى مشرق أو مغرب كالمحدث عن عنقاء مغرب[1] .

* * *

ومن أصالة النقد المغربى مخالفة النهشلى للنقاد المشارقة فيما سموه «التقطيع» فقد سماه هو « التفصيل »[2] .

* * *

(١) الرحلة المغربية ص ٣

(٢) انظر الفقرة ٢٢ من دراستنا له فى الفصل الأول .

وإذا كان ابن رشيق يشبه نقاد المشرق لشدة تعويله عليهم ، وكثرة نقله عنهم ، فكم وجدنا له من تصويبات لهم وابتكارات لم نجدها عندهم ، وقدرأينا أن القاضى الجرجانى — على فضله — لم يعتصم من نقده ، مما يدل على استقلاله برأيه ، وعدم تبعيته فيه لغيره ، وليس هذا فقط ، بل إنه قدعلا الشعراء والعلماء خارج بلده وفى بلده بقوله : « ومن الشعراء من يقدم ويؤخر ، إما لضرورة وزن أو قافية وهو أعذر ،وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ويقدر على تعقيده ، وهذا هو العى بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب والشذوذ التى يقل مثلها فى الكلام ، فقد عيبت على من لاتعلق به التهمة وهوالفرزدق ، ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم ولايقضى له بالعلم إلا أن يكون فى شعره التقديم والتأخير ، وأنا أستثقل ذلك[٣] » .

وبقوله : « وكم فى بلدنا هذا من الحفاث قد صاروا ثعابين ومن البغاث قد صاروا شواهين . إن البغاث بأرضنا يستنسر[٤] » .

وإذا سلمنا جدلا بأن ابن رشيق مشرقى أى أنه مقلد أكثر مما هو مجدد ، مع أن هذا التسليم هضم أى هضم للرجل ، إذا سلمنا ذلك فبحسبنا — ونحن نثبت أصالة النقد المغربى — أن نقف عند علمين من أعلامه لجدة منهجيهما وحيوية تفكيرهما واختلاف أسلوبهما فى نقدهما عن أسلوب أهل المشرق .

وهذان العلمـــان هما حازم وابن خلدون .

. . .

أما حازم فهو يقوم من شعراء المشرق مقام الأستاذ ويقف منهم موقف الناقد الموجه حين يلقى عليهم نظرة نقدية ممتدة فى الزمان والمكان ، ويقرر أن

(٣) العمدة حـ ١ ص ٢٠٩ .
(٤) العمدة حـ ٢ ص ٢٣٩ .

بصائرهم قد عميت عن حقيقة الشعر منذ مائتى سنة ؛ فلم يوجد فيهم على طول هذه المدة من نحا نحو الفحول ، ولا من ذهب مذاهبهم فى تأصيل مبادىء الكلام وإحكام وضعه وانتقاء مواده التى يجب نحته منها ؛ فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا فى محض التكلم .

. . .

وهو لا يسجل ظاهرة تخلف الشعر المشرقى تسجيلا سطحياً ساذجاً ، وإنما يعللها ويردها إلى جذورها فى الحقل الأدبى وفى أنفس الأدباء بتأكيده أن الطباع قد تداخلها من الاختلال والفساد أضعاف ما تداخل الألسن من اللحن ، فهى تستجيد الغث وتستغث الجيد من الكلام ، وعلاجها هو قمعها بردها إلى اعتبار الكلام بالقوانين البلاغية فيعلم بذلك ما يحسن وما لا يحسن ، ولا شك أن الطباع أحوج إلى التقويم فى تصحيح المعانى والعبارات من الألسن إلى ذلك فى تصحيح أواخر الكلم ، وأرعن جاهل من يظن أن كل كلام موزون مقفى شعر ؛ ومن هذا حاله مثله مثل أعمى أنس قوما يلقطون درافى موضع تشبه حصباؤه الدرفى المقدار والهيئة والملمس فوقع بيده بعض ما يلقطون من ذلك . فأدرك هيئته ومقداره وملمسه بحاسة لمسه ؛ فجعل يعنى نفسه فى لقط الحصباء على أنها در . ولم يدر أن ميزة الجوهر وشرفه إنما هى بصفة غير التى أدرك . وكذلك ظن هذا أن الشعرية فى الشعر إنما هى نظم أى لفظ اتفق كيف اتفق نظمه ؛ وتضمينه أى غرض اتفق على أى صفة اتفق لا يعتبر عنده فى ذلك قانون ولارسم موضوع ؛ وإنما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنفاذ به الى قافية ؛ فلا يزيد بما يصنعه من ذلك على أن يبدى من عواره ويعرب عن قبح مذهبه فى الكلام وسوء اختياره(٥) .

. . .

(٥) منهاج البلغاء صفحات ٠ ، ٢٦ ، ٢٨ .

ومن أصالة حازم فى نقده هشه بعصاه عن الشعر الجيد ، وعن الشعراء المجيدين الذين لا يتكسبون بشعرهم ، أو لا يتكسبون به ممن هم دونهم قال : إن الاستعداد الذى يكون بانطواء السامع على هوى يكون غرض الكلام المخيل موافقاً له فينفعل به ، أمر موجود لكثير من النـــاس فى كثير من الأحوال ، وأما الاستعداد الذى يكون بأن يعتقد فضل قول الشاعر ، وصدعه بالحكمة فيما يقوله ، فإنه معدوم بالجملة فى هذا الزمان ، بل كثير من أنذال العالم — وما أكثرهم — يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة ، وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر ،واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة على حال قد نبه عليها ابن سينا فقال : « كان الشاعر فى القديم ينزل منزلة النبى فيعتقد قوله ، ويصدق حكمه ، ويؤمن بكهانته » .

فانظر إلى تفاوت ما بين الحالين: حال كان ينزل فيها منزلة أشرف العالم وأفضلهم ،وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وأنقصهم ، وإنما هان الشعر على الناس هذا الهوان لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملة فصرفوا النقص إلى الصنعة ، والنقص بالحقيقة راجع إليهم وموجود فيهم ، ولأن طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضاً فرأوا أخساء العالم قد تحرفوا باعتفاء الناس،واسترفاد سواسية السوق بكلام صوروه فى صورة الشعر من جهة الوزن والقافية خاصة من غير أن يكون فيه أمر آخر من الأمور التى بها يتقوم الشعر ، وكان منزلة الكلام الذى ليس فيه إلا الوزن خاصة من الشعر الحقيقى منزلة الحصير المنسوج من البردى ، وما جرى مجراه من الحلة المنسوجة من الذهب والحرير ،لم يشتركا إلا فى النسج كما لم يشترك الكلامان إلا فى الوزن .

ولكثرة القائلين المغالطين فى دعوى النظم وقلة العارفين بصحة دعواهم

من بطلانها لم يفرق الناس بين المسيء المسف إلى الاسترفاد بما يحدثه ، وبين المحسن المرتفع عن الاسترفاد بالشعر ، فجعلوا قيمتهما متساوية ، بل ربما نسبوا إلى المسيء إحسان المحسن ، وإلى المحسن إساءة المسيء ،فصارت نفوس العارفين بهذه الصنعة بعض المعرفة تستقذر التحلى بهـــذه الصناعة ، إذ نجسها أولئك الأخساء واشتبه على الناس أمرهم وأمر أضدادهم ، فأجروهم مجرى واحداً من الاستهانة بهم ، فالمعرة لاشك منسحبة على الرفيع فى هذه الصنعة بسبب الوضيع فلذلك هجرها الناس وحقها أن تهجر ، ولأن النفوس أيضاً قد اعتقدت أن الشعر كله زور وكذب على ما رآه قوم قد حكى قولهم ابن سينا راداً عليهم ، وكان يجب على هؤلاء إن كان لهم علم بالشعر ألا يحملهم الحسد فيما قصرت عنه طباعهم على أن يتكلموا فى ذلك بغير تحقيق ، وكثيراً ما يذم الإنسان مامنعه فيحملهم الحسد على الغض من الشعر ومن أهله بإخراجه عن الحقائق جملة ، وإن كانوا ممن ليس لهم به علم [٦] .

. . .

ومن أصالة حازم فى نقده هذا السلم الذى يتدرج بالكلمة فيه من الابتذال إلى الغرابة ومن الغرابة إلى الابتذال حتى يصل بها إلى مستوى معين يقع فى وسط هذا السلم. قال :— الكلمة على أقسام :—

الأول : — ما استعملته العرب دون المحدثين وكان استعمال العرب له كثيراً فى الأشعار وغيرها .

فهذا حسن فصيح

الثانى : — ما استعملته العرب قليلا ولم يحسن تأليفه ولا صيغته .

فهذا لايحسن إيراده

---

(٦) منهاج البلغاء ص ١٢٤ ــ ١٢٦ .

الثالث : — ما استعمله العرب وخاصة المحدثين دون عامتهم فهذا حسن جدا لأنه خلص من حوشية العرب وابتذال العامة .

الرابع : — ما كثر فى كلام العرب وخاصة المحدثين وعامتهم ولم يكثر فى ألسنة العامة .

فلا بأس به

الخامس : — ما كان كذلك ولكنه كثر فى ألسنة العامة وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن هذا .

فهذا يقبح استعماله لابتذاله

السادس : — أن يكون ذلك الاسم كثيراً عند الخاصة والعامة وليس له اسم آخر، وليس العامة أحوج إلى ذكره من الخاصة ولم يكن من الأشياء التى هى أنسب بأهل المهن .

فهذا لا يقبح وليس يعد مبتذلا مثل لفظ الرأس والعين

السابع : — أن يكون كما ذكرناه إلا أن حاجة العامة له أكثر فهو كثير الدوران بينهم كالصنائع .

فهذا مبتذل

الثامن : — أن تكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى، وقد استعملها بعض العرب نادراً لمعنى آخر .

فيجب أن يجتنب هذا أيضاً .

التاسع : — أن يكون العرب والعامة استعملوها دون الخاصة وكان استعمال العوام لها من غير تغيير .

فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلا وعلى التغيير قبيح مبتذل .

ثم اعلم أن الابتذال فى الألفاظ وما يدل عليه ليس وصفا ذاتياً ، ولا عرضا لازما ، بل لاحقان من اللواحق المتعلقة بالاستعمال فى زمان دون زمان ، وصقع دون صقع[٧] .

* * *

ومن أصالة حازم فى نقده ، بل من أصالة النقد العربى جملة قول حازم بتقصير الأدب اليونانى فى مساعدة ارسطو على نقده قال : « ولو وجد هذا الحكيم ارسطو فى شعر اليونانيين ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظاً ومعنى ، وتبحرهم فى أصناف المعانى، وحسن تصرفهم فى وضعها ووضع الألفاظ بإزائها ، وفى إحكام مبانيها واقتراناتها ، ولطف التفاتاتهم ، وتتميماتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا ، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية[٨] .

* . .

وبعد. فحازم عالم هادف ، وناقد بناء ، انظر إليه وهو يثنى على شخصه عقب شرحه مجارى الأوزان وأنحاء تركيباتها، وكلامه هنا يدل على منتهى ثقته بنفسه قال :

هذا الذى قلته فى مجارى الأوزان وأنحاء تركيباتها وما يسوغ فيها هو الرأى الصحيح الذى تعضده الآراء البلاغية والقوانين الموسيقية . ويشهد به الذوق الصحيح والسماع الشائع عن فصحاء العرب ، فدع عنك ما غيره أو

---

(٧) منهاج البلغاء ص ٣٨٦ .

(٨) منهاج البلغاء ص ٧٠ .

وضعه العروضيون أو الرواة من الأبيات المضحلة التى لا يوجد لها نظير فى الأشعار الفصيحة الصحيحة الرواية ، فقد رد بعض العروضيين ما استشهد به بعضهم من الأبيات الفاسدة ، وزيف بعضهم شواهد بعض .

وكثير مما وضع واختلق أو غير جاز عليهم أو على أكثرهم ، فلهذا يجب ألا يقبل شىء يخالف ما قلناه ؛ لأنا وضعنا هذه القوانين بحسب ما شهدت به أصول علوم جليلة بها يتميز الصريح المحقق من الزائف البهرج فى كل مذهب من مذاهب اللسان ، ومأخذ من مآخذ البيان[٩] .

. . .

هذا حازم .

## أما ابن خلدون

فهو يسجل على أبناء جلدته تقصيرهم فى البيان العربى قائلا : — فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، والسبب فى ذلك أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد فى العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب .

أو نقول : لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشرى وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله ، وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألقابا ، وعدوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مآخذ البلاغة [ المعانى والبيان ] لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما[١٠] .

---

(٩) منهاج البلغاء ص ٢٥٨ـ٢٥٩ .

(١٠) المقدمة ص ١٣٨٥ – ١٣٨٦ .

يقرر ابن خلدون ذلك على الرغم من تنويهه بابن رشيق وتنبيهه على أن كتاب العمدةله مشهور جرى كثير من أهل إفريقيه والأندلس على منحاه(١١)

وعلى ارغم من أن حازما كان قد خلف وراءه كتابه العظيم « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » .

• • •

ولا تقتصر أستاذية ابن خلدون على أبناء جلدته فحسب ، بل إنها تتسع وتمتد حتى تشمل الأدباء العرب بعامة ، والكتاب منهم بخاصة ، وكتاب المشرق على وجه أخص قال : — وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا فى الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق ، وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه وهو غير صواب من جهة البلاغة ، لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب .

والواجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عن أساليب الشعر ، إذ أساليب الشعر تناسبها اللوذعية وخلط الجد بالهزل ، والإطناب ، والأوصاف ، وضرب الأمثال ، وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لاتدعو ضرورة إلى ذلك فى الخطاب ، والتزام القافية أيضاً من اللوذعية والتزيين ، وجلال الملك والسلطان

(١١) المقدمة صفحات ١٣٨٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٩ .

وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافى ذلك ويباينه[١٢]

. . .

وينبغى أن نعلم أن ابن خلدون لا يجافى البديع ولا يخاصمه ، وإذا كان قد عابه على كتاب الدواوين ، فلأنهم ابتذلوه ووضعوه فى غير موضعه ، أو خرجوا به عن القوانين المرعية والقواعد المقررة ، أما فيما عدا ذلك فالبديع ضرب من التحسين والتزيين يعطى الكلام رونق الفصاحة ، ويجعل وقعه لذيذاً على الأسماع .

هذا رأيه .

وهو يمثل للمطبوع الخالى من الصنعة بقول قيس بن ذريح :

وأخرج من بين البيوت لعلنى
أحدث عنك النفس فى السر خالياً

وبقول كثير : —

وإنى وتهيامى بعزة بعدما تخليت عما بيننا وتخلت
لكا لمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأت منها للمقيل اضمحلت

ثم يعلق عليهما قائلا :

فتأمل هذا المطبوع الفقيد الصنعة فى إحكام تأليفه وثقافة تركيبه ، فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسناً .

لكن لاستعمال هذه الصنعة عنده شروطا منها : —

أن تأتى عفوا

لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان أما

---

(١٢) المقدمة ص ١٤٠٦ــ ١٤٠٧ .

تـكلفها ومعاناتها فيخلان بالإفادة ،ولا يبقيان فى الـكلام إلا تلك التحسينات وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر .

ومن شروط استعمالها :

الإقلال منها .

بأن تـكون فى بيتين أو ثلاثة من القصيدة فتـكفى فى زينة الشعر ورونقه[١٢]

• • •

هذا هو إسهام ابن خلدون فى إصلاح الأدب وأصالة النقد ، وقد رأينا أن ثناءه على كتاب المشرق ثناء مؤقت ، وإلا فإنه لم يعفهم من نقده .

وهو فى موقفه من كتابه مثل مواطنه حازم فى موقفه من شعرائه .

• • •

وهكذا نرى المغرب العربى أستاذا للمشرق العربى فى نثر الـكلام ونظمه.

(١٣) المقدمة فصل ٥٩ فى بيان المطبوع من الـكلام والمصنوع ص ١٤٢٧ ــ ١٤٣١ .

# خاتمة

قبل أن ألقى القلم أسجل أننى فى التمهيد لهذا الكتاب قد حددت المغرب العربى جغرافياً ، وتكلمت عنه تاريخياً وعلمياً وأدبياً ، ولما كانت أقسامه الثلاثة تكون رقعة واسعة شاسعة ، فقد وقفت على الحدود الغربية للمغرب الأقصى ، وجعلت أرصد تاريخ الأدب والعلم إلى مدى البصر .

وبعد أن دونت ما رأيت انتقلت إلى المغرب الأدنى ووقفت على حافته الشرقية وبالتحديد عند مدينة السلوم المصرية مكرراً ما عملته أولا .

وبقيت منقطة الوسط وهى المغرب الأوسط أى الجزائر وهذه لا توصى بها ، فمنها كان منطلقى غربا وشرقا ، أى أنها كانت الموقع الأصلى لى وأنا أكتب هذا الكتاب كما قلت فى المقدمة .

. . .

ومن التمهيد دلفت إلى الفصل الأول .

وقد التقيت فيه بثمانية نقاد هم كل من وجدتهم.

وكنت منطقيا فرتبتهم ترتيباً زمنياً .

وقد أتاح لى ذلك معرفة منابعهم ومصابهم ، بل إن المعرفة قد اتسعت حتى شملت ما قبلهم وما بعدهم ، أما ما قبلهم فهو النقد المشرقى وقد قتل بحثاً.

وأما ما بعدهم فهو النقد الأدبى فى المغرب العربى بعـــد ابن خلدون وسيكون ذلك بحول الله تعالى موضوع دراسة لاحقة .

. . .

وفى الفصل الثانى وزعت النقد الموجود فى الفصل الأول على القضايا النقدية وقد بلغت ثمانى عشرة قضية، أتبعتها نماذج من البلاغة المغربية بناء على أن خط السير للنقد والبلاغة خط واحد، فالبلاغة مستمدة من النقد، وما قواعدها إلا تقاليده المتوارثة.

...

ولم أشأ أن أترك الموضوع دون كلمة منصفة للنقد المغربى، وقد قلتها وجعلتها عنوان الفصل الثالث ومادته.

لقد قلت إن النقد المغربى أصيل بالمعنى العلمى للأصالة وهو أن الإنسان قد يبنى على ما حققه أسلافه، وأن العلم كالفن قابل للتطور وقادر عليه، فيستطيع العالم كما يستطيع الفنان أن يتخذ ممن سبقه مثلا يحتذيه، وأن يضم إلى ذلك تجربته وموهبته، وهذه معاً تتحد لتنتج شيئاً أبعد تأثيراً من كل ما تقدم(١).

ومن يدرى؟ فقد يأتى الوقت الذى تخصص فيه جامعات المشرق كرسيا للآداب المغربية: تاريخها ومادتها ونقدها وبلاغتها وبيئاتها ورجالها ... بغية تخريج جيل مستنير فى الدراسات الأدبية لا فرق فى ذلك بين مشرق ومغرب.

أما الانكفاء على النفس، والتقوقع داخل الآداب المشرقية، والانغلاق التام أو شبه التام دون الآداب المغربية، فهذا عمل غير صالح، ثم هو ليس فى مصلحة الحقيقة العلمية، ولا القومية العربية، ولا وحدة المصير والهدف.

ماذا؟!!

هل أقترح ذلك؟

---

(١) مناهج النقد الأدبى ص ٢٩٣.

نعم . ما الذى يمنع ؟ ! !

وإذا كانت هناك عراقيل على عهد الأتراك والإنجليز والطليان والفرنسيين فقد انقشع ذلك كله ووضحت الرؤية .

وجدير بنا بعد أن زالت الحواجز فيما بيننا أن نعمقها ليحيا من حى عن بينة.

* * *

وبعد . فأنا أعترف بما فى كتابى هذا من نقص لكن لا بأس ، فالكمال لله وحده .

وإنى لأجد بعض العذر لنفسى فى قول ابن شهيد الأندلسى : —

« إن الواصف إذا وصف شيئاً لم يتقدم إلى صفته ولا سلط الكلام على نعته اكتفى بقليل الإحسان واجتزى بيسير البيان ، لأنه لم يتقدم وصف يقرن بوصفه ، ولا جرى مساق يضاف إلى مساقه »[٢] .

وهذا القول لابن شهيد ليس على إطلاقه،فأصول البحث ثابتة ،وهى مطلوبة فى جميع الأحوال ، ولقد أصاب « رينيه لويش[٣] » قلب الحقيقة حين قال : « إن قوانين الفكر واحدة فى كل زمان ، ولن يستطيع الباحث إنتاج شىء ما إلا إذا خلع على بحثه جزءاً من نفسه » .

وأقول : بل كل نفسه .

فهذا ما كان .

والحمد لله. عبده عبد العزيز قلقيله

---

(٢) التوابع والزوابع ص ١٢٧ طبعة بيروت ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م تحقيق بطرس البستانى .

(٣) من كبار جراحى العصر الحديث وصاحب كتاب « الجراحة فى خدمة الحياة » وانظر « الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى » ص٦٦ .

# المصادر والمراجع(*)

١ — الأباضية فى موكب التاريخ . على يحيى بن معمر . الطبعة الأولى مصر سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

٢ — ابن حمديس الصقلى د. سعد شلبى . رسالة ماجستير .

٣ — ابن حمديس الصقلى . على مصطفى المصراتى . أحد أعداد سلسلة «إقرأ» .

٤ — ابن خلدون. حياته وتراثه الفكرى ، محمد عبدالله عنان ، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م .

٥ — ابن رشيق الشاعر الناقد وهو العدد ٤٥ من سلسلة أعلام العرب ، طبعة وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٦٥ تأليف عبد الرؤوف مخلوف .

٦ — ابن رشيق القيروانى وهو العدد ٣٢ من سلسلة نوابغ الفكر العربى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ تأليف عبد الرؤوف مخلوف .

٧ — أبو الحسن الحصرى القيروانى الضرير . محمد المرزوقى ، جيلالى بن الحاج يحيى ، تونس سنة ١٩٦٣

٨ — اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الخامس الهجرى ، د. منصور عبدالرحمن رسالة ماجستير .

٩ — إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان تأليف أحمد بن

(*) مرتبة حسب الحروف الهجائية لأسماء الكتب :

أبي الضياف ، وتحقيق أحمد عبد السلام ، منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧١ م .

١٠ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، أبو عبيد الله محمد المقدسى ، طبعة ليدن سنة ١٩٠٦

١١ — أحكام صنعة الكلام ، تأليف أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعى الاشبيلى الأندلسى وتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، طبعة أولى سنة ١٩٦٦ بيروت .

١٢ — الأدب الجزائرى المعاصر د. سعاد محمد خضر . لبنان سنة ١٩٦٧

١٣ — الأدب وفنونه ، د. عز الدين إسماعيل ، الطبعة الرابعة ١٩٦٨ م .

١٤ — الأدب المغربى ، د. محمد الصادق عفيفى ومحمد بن تاويت الطنجى ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٦٩

١٥ — أساس البلاغة ، تأليف جار الله أبو القاسم محمود ابن عمر الزمخشرى وتحقيق عبد الرحيم محمود سنة ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م

١٦ — الاستبصار فى عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف ، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ، طبعة جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٨ م

١٧ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تأليف أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، تحقيق ولدى المؤلف الأستاذين جعفر ومحمد الناصرى طبعة الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ م ، الجزء الثانى وموضوعه الدولتان المرابطية والموحدية .

١٨ — الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة ، د. مصطفى سويف ، دار المعارف بمصر ، طبعة ثالثة سنة ١٩٥٩ م .

١٩ — أطلس المعجزات ، د. صالح خرفى طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٦٨ م .

٢٠ — أفريقيا تتكلم ، تأليف جيمس دفى ، روبرت ا . مانزر ، وترجمة عبد الرحمن صالح وهو العدد رقم ٣٠ من سلسلة من الشرق والغرب، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

٢١ — اقتطاف الزهر واجتناء الثمر. أبو الحسن على بن محمد بن برى (مخطوط) بدار الكتب المصرية ١٤٠٩٤

٢٢ — الامام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية ، د. محمود قاسم ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ .

٢٣ — إنباه الرواه على أنباه النحاه، لابن القفطى، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢٤ — بجاية لؤة المغرب ، عدد من سلسلة الفن والثقافة التى تصدرها الجزائر .

٢٥ — بدائع البدائه ، تأليف على بن ظافر الصابونى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١ م .

٢٦ — بساط العقيق فى تاريخ القـــيروان وشاعرها ابن رشيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩١٣

٢٧ — البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تأليف أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم ، ومراجعة محمد بن أبى شنب ، الجزائر سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨ م .

٢٨ — بغية الوعاة ، تأليف جلال الدين السيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة أولى سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ .

٢٩ — البيان والتبيين ، تأليف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق

حسن السندوبى طبعة ثالثة سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م .

٣٠ — البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تأليف ابن عذارى المراكشى ، تحقيق ومراجعة ج . س كولان ، إ . ليڤى پروڤنسال . دار الثقافة . بيروت .

٣١ — تاريخ آداب اللغة العربية . تأليف جرجى زيدان ، مراجعة وتعليق د . شوقى ضيف . دار الهلال بالقاهرة د . ت . وطبعة بيروت ١٩٦٧ م .

٣٢ — تاريخ الأدب الجزائرى . محمد الطمار . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر . د . ت

٣٣ — تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، تأليف أغناطيوس يوليانو فتش كراتشكوفسكى ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٣

٣٤ — تاريخ الأدب العربى ، تأليف كارل بروكلمان ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، القاهرة دار المعارف ١٩٦٨ م .

٣٥ — تاريخ أفريقية الشمالية ، تأليف شارل أندرى جوليان، ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامه ، تونس سنة ١٩٦٩ م .

٣٦ — تاريخ أفريقية والمغرب للرفيق القيروانى ، قطعة تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثانى الهجرى ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ م .

٣٧ — تاريخ الجزائر الحديث ، د. أبو القاسم سعد الله ، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٣٨ — تاريخ الجزائر العام ، عبد الرحمن جيلالى ، طبعة ثانية ، بيروت ١٣٨٥هـ ١٩٦٥ م .

٣٩ — تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تأليف محمد بن إبراهيم الزركشى ، تونس سنة ١٨٧٢ م ١٢٨٩ هـ .

٤٠ — تاريخ المغرب العربى الكبير، محمد على دبوز، طبعة أولى سنة ١٣٨٤ . ١٩٦٤ م .

٤١ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب — نقد الشعر — من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى ، د. إحسان عباس طبعة أولى ، بيروت ١٣٩١هـ ١٩٧١ م .

٤٢ — تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ، د. محمد رضوان الداية الطبعة الأولى بيروت ١٩٦٨ م .

٤٣ — تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، د. ت.

٤٤ — تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار طبعة بيروت سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م تحت عنوان رحلة ابن بطوطة .

٤٥ — تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض ، تحقيق محمد الطالبي من منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٦٨ م .

٤٦ — التركيب اللغوى للأدب ، د. لطفى عبد البديع طبعة أولى ، القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٤٧ — التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تأليف عبد الرحمن ابن خلدون تحقيق محمد بن تاويت الطنجى طبعة القاهرة ١٣٧٠هـ ١٩٥١ م .

٤٨ — تغريبة بنى هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة، عمر أبو النصر طبعة أولى ، لبنان سنة ١٩٧١ م .

٤٩ — التوابع والزوابع ، تأليف ابن شهيد الأندلسى، تحقيق بطرس البستانى، بيروت سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

٥٠ — توشيع التوشيح ، تأليف صلاح الدين الصفدى ، تحقيق البير حبيب ، طبعة أولى بيروت سنة ١٩٦٦ م .

٥١ — الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، تأليف ضياء الدين بن الاتير ، تحقيق الدكتورين مصطفى جواد ، وجميل سعيد ، طبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م .

٥٢ — الجزائر فى مرآة التاريخ ، عبد الله شريط ، ومحمد الميلى ، الطبعة الأولى قسنطينة ١٩٦٥ م .

٥٣ — الجغرافية ، تأليف ابن سعيد المغربى ، تحقيق إسماعيل العربى ، بيروت سنة ١٩٧٠ م .

٥٤ — جغرافية العالم العربى ، د. محمد طه أبو العلا ، طبعة أولى ١٩٧٣ م .

٥٥ — جمع الجواهر فى الملح والنوادر ، تأليف أبو اسحق الحصرى القيروانى ، تحقيق على البجاوى ، طبعة أولى القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م .

٥٦ — حاشية الأمير على مغنى اللبيب ، تأليف محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الشهير بالأمير ، على هامش مغنى اللبيب طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ .

٥٧ — حدائق السحر فى دقائق الشعر ، تأليف رشيد الدين الوطواط ، ترجمة إبراهيم الشوارى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .

٥٨ — حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ — ١٧٩٢ ، تأليف أحمد توفيق المدنى ، الجزائر د. ت.

٥٩ — الحركة الأدبية والفكرية فى تونس ، محمد الفضل بن عاشور. مصر سنة ١٩٥٦ م .

٦٠ — الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى . تأليف آدم متز ، ترجمة محمد أبو ريده ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٧ م .

٦١ — الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، تأليف محمد الأندلسى الوزير السراج تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس سنة ١٩٧٠ م .

٦٢ — حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس جـ ١ ، جـ ٢ .

٦٣ — حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته ، محمد الخضر حسين ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ .

٦٤ — حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها د. عبد الرحمن ياغى طبعة أولى بيروت سنة ١٩٦١ م .

٦٥ — خريدة القصر وجريدة العصر ، تأليف العماد الأصفهانى القسم الرابع ، تحقيق عمر الدسوقى ، على عبد العظيم ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٦٦ — الخيال فى مذهب محيي الدين بن عربى . دكتور محمود قاسم طبعة معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩ م .

٦٧ — دراسات فى الشعر العربى الجزائرى الحديث ، عبد الله الركيبى ، القاهرة سنة ١٩٦١ م .

٦٨ — دفاع عن الأدب ، تأليف چورج ديهاميل ، ترجمة د. محمد مندور ،

طبعة الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة وهو العدد ٦٦ من مختارات الإذاعة والتليفزيون .

٦٩ — دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى ، تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى ، الطبعة الأولى القاهرة ١٣٨٩ ﻫ ١٩٦٩ م .

٧٠ — دليل متحف سطيف ، إعداد الطيب حفيان ، الجزائر سنة ١٣٨٨ ﻫ ١٩٦٩ م .

٧١ — ديوان حازم القرطاجنى ، تحقيق عثمان الكعاك بيروت سنة ١٩٦٤ م .

٧٢ — ديوان محمد العيد محمد على خليفة من منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر ، مطبعة البعث . قسنطينة سنة ١٩٦٧ .

٧٣ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٥

٧٤ — رحلة التجانى قام بها فى البلاد التونسية والقطر الطرابلسى أبو محمد عبدالله بن أحمد التجانى من سنة ٧٠٦ — ٧٠٨ ﻫ تقديم حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٣٧٧ ﻫ ١٩٥٨ م .

٧٥ — رحلة العبدرى المسماة الرحلة المغربية تأليف أبو عبد الله محمد العبدرى الحيحى ، تقديم وتحقيق محمد الفاسى طبعة الرباط سنة ١٩٦٨ م .

٧٦ — رسائل الانتقاد ، ابن شرف القيروانى ، طبعة الخانجى . مصر سنة ١٩٢٦ م تحت اسم « أعلام الكلام » .

٧٧ — رسائل البلغاء ، محمد كرد على ، الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩١٣ م .

٧٨ — زهر الآداب وثمر الالباب ، أبو اسحق الحصرى القيروانى ، تحقيق على محمد البجاوى طبعة أولى ، القاهرة ١٩٥٣ م .

٧٩ – شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، أبو القاسم كرو ، وعبدالله شريط .

٨٠ – الشخصية الجزائرية عبر التاريخ ، سليمان الصيد ، مطبعة البعث قسنطينة ١٩٧١ م .

٨١ – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، عبد الحى بن العماد الحنبلى ، القاهرة ١٩٥٣ م .

٨٢ – « الشعب » الجزائرية وهى صحيفة يومية ، العدد ٢٤٨٦ بتاريخ ١٨ من شوال ١٣٩١ هـ الموافق ٦ من ديسمبر سنة ١٩٧١ م .

٨٣ – شعراء الجزائر ، د. صالح خرفى ، القاهرة ١٩٦٩ م

٨٤ – شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، لابن رشيق ، جمع وتعليق زين العابدين السنوسى ، طبعة تونس سنة ١٩٧١ م .

٨٥ – شمال أفريقيا فى الماضى والحاضر والمستقبل ، تأليف سعيد العريان بالاشتراك وهو العدد ٨ من سلسلة «اخترنا لك» دار المعارف بمصر .

٨٦ – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القلقشندى ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ م

٨٧ – الصحافة الأدبية وأثرها فى تطور الأدب الحديث بالمغرب الأقصى ، د. محمد الصادق عفيفى رسالة ماجستير .

٨٨ – صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركى ، تأليف نور الدين عبد القادر ، نشر كلية الآداب بجامعة الجزائر ، مطبعة البعث بقسنطينة سنة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م .

٨٩ – صفحات مغربية ، نقولا زيادة ، طبعة أولى ، بيروت ١٩٦٦ م .

٩٠ — الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . شمس الدين السخاوى ، مطبعة القدس بالقاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ ١٩٣٤ - ١٩٣٦ م .

٩١ — طبقات فحول الشعراء . تأليف محمد بن سلام الجحمى : تحقيق محمود محمد شاكر . طبعة دار المعارف بمصر .

٩٢ — طبقات علماء أفريقية وتونس . تأليف أبو العرب محمد بن تميم القيروانى . تحقيق وتقديم على الشابى ، ونعيم اليافى . تونس سنة ١٩٦٨

٩٣ — طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى تأليف رودلفوميكاكى ترجمة طه فوزى ، مراجعة حسن محمود وكمال الدين الخربوطلى. القاهرة سنة ١٩٦١ م

٩٤ — الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوى ، طبعة دار الكتب الخديوية سنة ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

٩٥ — عبد الرحمن بن خلدون ، د. على عبد الواحد وافى وهو العدد الرابع من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة أبريل سنة ١٩٦٢ م .

٩٦ — عصر سلاطين المماليك ، د. محمود رزق سليم ، القاهرة مكتبة الجماميز ١٩٤٧ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٥ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ م .

٩٧ — عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، محمد عبد الله عنان ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

٩٨ — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تأليف ابن رشيق ، وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبعة ثالثة القاهرة ١٩٦٤ م .

٩٩ — عنوان الأريب عمن نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، تأليف الشيخ

محمد النيفر ، طبعة تونس سنة ١٣٥١ هـ .

١٠٠ — عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية . تأليف أبو العباس أحمد الغبرينى . تحقيق رابح بونار . الجزائر ١٩٧٠م .

١٠١ — عنوان المرقصات والمطربات تأليف ابن سعيد المغربى طبعة القاهرة ١٢٨٦هـ

١٠٢ — الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية تأليف أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب القنفذ القسنطينى تحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى تونس ١٩٦٨ م .

١٠٣ — فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس . القاهرة ١٩٤٨ م .

١٠٤ — فقه اللغة للثعالبى . طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة د . ت .

١٠٥ — الفكر والثقافة المعاصر فى شمال افريقية أنور الجندى. المجلس الأعلى بالقاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .

١٠٦ — فن الشعر تأليف أرسطوطاليس . تحقيق وترجمة ودراسة د . شكرى عياد . طبعة وزارة الثقافة المصرية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

١٠٧ — فى الأدب التونسى . محمد الحليوى ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٩ م

١٠٨ — قابس جنة الدنيا محمد المرزوقى طبعة أولى ، مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦٣ م .

١٠٩ — قادة فتح المغرب العربى لمحمد شيت خطاب طبعة أولى ١٣٨٦هـ.١٩٦٦م.

١١٠ — القاضى الجرجانى والنقد الأدبى ، دكتور . عبده عبد العزيز قلقيله الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

١١١ — قراضة الذهب . ابن رشيق طبعة الخانجى بمصر ١٩٢٦ م .

١١٢ — القزاز القيروانى ، المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ م .

١١٣ — الكامل فى اللغة والأدب . أبو العباس أحمد بن يزيد المبرد طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٦٥ م .

١١٤ — كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، تأليف عبد الرحمن بن خلدون طبعة بيروت سنة ١٩٥٩ م تحت عنوان « تاريخ ابن خلدون » .

١١٥ — كتب وشخصيات . د . أبو العيد دودو . الجزائر ١٩٧٠ م .

١١٦ — اللهب المقدس ، مفدى زكريا ، طبعة أولى بيروت ١٩٦١ م .

١١٧ — مؤلفات ابن خلدون . د . عبد الرحمن بدوى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م .

١١٨ — ما يجوز للشاعر فى الضرورة . تأليف القزاز القيروانى تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٧١ م .

١١٩ — متخير الألفاظ ، تأليف أحمد بن فارس ، تحقيق هلال ناجى طبعة المملكة المغربية . د . ت .

١٢٠ — المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، تأليف ضياء الدين ابن الأثير. تحقيق الدكتورين أحمد الحوفى وبدوى طبانه. الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ ١٩٥٩ م .

١٢١ — مجلة الأندلس ، المجلد الأول .

١٢٢ — مجلة الفكر التونسية عدد يناير ١٩٦٧م .

١٢٣ — المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ، حسن حسنى عبد الوهاب سنة ١٩٦٧م.

١٢٤ — محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى فى العصر الحديث د. أبو القاسم سعد الله ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م .

١٢٥ — مدينة « توكرة » تأليف على سالم الترك . ليبيا . د . ت .

١٢٦ — مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل سنة ١٨٣٠ م ، على عبد القادر حليمى الطبعة الأولى ١٩٧٢ م .

١٢٧ — مذكرات أحمد السكندرى ١٩٢٦ م .

١٢٨ — مراكز الثقافة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر . عثمان الكعاك القاهرة ١٩٥٨ م .

١٢٩ — مراكش بعد الاستقلال تأليف روم لاندو ترجمه خيرى حماد . طبعة أولى ١٩٦١ .

١٣٠ — مرآة المحاسن أبو حامد الفاسى ، طبعة فاس ١٩٢٤ م .

١٣١ — مزاب بلد كفاح ، ابراهيم محمد الطلاى ، الجزائر . د . ت .

١٣٢ — مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمرى ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .

١٣٣ — المسالك والممالك ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه ، طبعة مكتبة المثنى ببغداد . د. ت .

١٣٤ — المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، ابن حوقل طبعة ليدن ١٨٧٣م.

١٣٥ — المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، أحمد توفيق المدنى . الجزائر ١٩٦٨م .

١٣٦ — مشكلة السرقات الأدبية ، محمد مصطفى هدارة . طبعة أولى القاهرة ١٩٥٨ م .

١٣٧ — مطالعات فى الشئون الإفريقية تأليف جمال محمد أحمد . . وهو العدد رقم ٢١٨ من كتاب الهلال صفر ١٣٨٩ هـ . مايو ١٩٦٩ م .

١٣٨ — المطرب فى أشعار أهل المغرب ، ابن دحية الكلبي القاهرة ١٩٥٤م .

١٣٩ — معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، تأليف عبد الرحمن بن محمد الدباغ طبعة تونس سنة ١٣٢٠ م .

١٤٠ — معجم الأدباء . ياقوت ، طبعة مرجليوت سنة ١٩٢٣ م .

١٤١ — معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى منتصف القرن العشرين عادل نويهض ، الطبعة الأولى . بيروت سنة ١٩٧١ م .

١٤٢ — المغرب الإسلامى تأليف : لقبال موسى الطبعة الأولى قسنطينة ١٩٦٩.

١٤٣ — المغرب الإسلامى . تأليف الدكتور محمود عبد العزيز سالم . كتاب الشعب العدد ١٣٨ .

١٤٤ — المغرب العربى ، إحسان حقى . بيروت د . ت .

١٤٥ — المغرب العربى تاريخه وثقافته ، رابح بونار . طبعة أولى ، الجزائر سنة ١٩٦٨م .

١٤٦ — المغرب فى حلى المغرب تأليف أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربى تحقيق د . شوقى ضيف طبعة ثانية دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .

١٤٧ — المغرب العربى ( الجزائر - تونس - المغرب الأقصى ) د . صلاح العقاد ، مكتبة الانجلو المصرية طبعة ثالثة ١٩٦٩ م .

١٤٨ — مقدمة ابن خلدون ، تحقيق د . على عبد الواحد وافى القاهرة د. ت .

١٤٩ — المكتبة العربية الصقلية نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع جمعها وحققها المستشرق الإيطالى ميخائيل أمارى طبعة سنة ١٨٥٧م .

١٥٠ — مناهج النقد الأدبى بين النظرية والتطبيق تأليف ديفد ديتشس ، ترجمة د . محمد يوسف نجم بيروت ١٩٦٧ م .

١٥١ — منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تأليف حازم القرطاجنى تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه تونس سنة ١٩٦٦ م .

١٥٢ — موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجرى إلى الاحتلال الفرنسى عثمان الكعاك ، تونس ١٣٤٤ هـ .

١٥٣ — الموجز فى تاريخ الجزائر ، يحيى بوعزيز ، المطبوعات الوطنية الجزائرية ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م .

١٥٤ — المونس فى أخبار أفريقية وتونس تأليف أبو عبد الله محمد بن القاسم الرعينى ، تحقيق محمد شمام ، تونس سنة ١٢٨٦ هـ .

١٥٥ — النبوغ المغربي فى الأدب العربى ، عبد الله كنون . الطبعة الثانية بيروت ١٩٦١ م .

١٥٦ — النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، د زكى مبارك طبعة دار الكاتب العربى بالقاهرة .

١٥٧ — النجوم الزاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، تأليف جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ١٩٣٣م .

١٥٨ — نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، تأليف الشريف الإدريسى طبعة ليدن ١٨٨٥ م .

١٥٩ — النشاط الثقافى فى ليبيا من الفتح حتى بداية العصر التركى د. أحمد مختار عمر ، طبعة أولى ١٣٩١هـ . ١٩٧١م .

١٦٠ — نشرة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م .

١٦١ — «النصر» القسنطينية وهى صحيفة يومية تصدر فى قسنطينة باللغة العربية العدد ٢٧٨ بتاريخ ١٣ من ربيع الثانى ١٣٩٢هـ الموافق ٢٦/٥/١٩٧٢م .

١٦٢ — نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان تأليف أحمد النائب الأنصارى، تحقيق على المصراتى طبعة أولى بيروت ١٩٦٣م.

١٦٣ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب تأليف أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٦٧ م .

١٦٤ — النقد الأدبى الحديث فى المغرب العربى د. محمد الصادق عفيفى . طبعة ثانية بيروت ١٣٩١هـ . ١٩٧١م .

١٦٥ — النقد الأدبى فى العصر المملوكى د. عبده عبد العزيز قلقيلة طبعة الانجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٢م .

١٦٦ — النقد العربى الحديث د. محمد زغلول سلام . طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م .

١٦٧ — نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر واسمه الحقيقى كتاب البرهان فى وجوه البيان ، تأليف أبو الحسن إسحق بن إبراهيم بن وهب الكاتب ، تحقيق عبد الحميد العبادى، وطه حسين. القاهرة سنة ١٩٣٨

١٦٨ — نهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر ١٩٢٥ - ١٩٥٤ ، د. عبد الملك مرتاض ، الجزائر سنة ١٩٧١ م .

١٦٩ — نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، محمد على دبوز جـ ٣ طبعة أولى سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م ، حـ ٢ طبعة أولى سنة ١٣٩١هـ ١٩٧١ م المطبعة العربية بالجزائر .

١٧٠ — نور الطرف ونور الظرف ، أبو إسحق الحصرى القيروانى، مخطوط بالاسكوريال وبمكتبة حسن حسنى عبد الوهاب الخاصة فى تونس .

١٧١ — هدى كامل المبرد ، مجهول المؤلف وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ٥٤ ش أدب ، تحت اسم : قطعة من اختيار الممتع لعبد الكريم النهشلى

١٧٢ — هذه تونس ، د. الحبيب تامر طبعة مصر سنة ١٩٣٨ م

١٧٢ — هذه مراكش ، عبد المجيد جلون ، طبعة مصر سنة ١٩٤٨ م .

١٧٤ — الوافى بالوفيات ، صلاح الدين الصفدى دمشق ١٩٥٣

١٧٥ — ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، حسن حسنى عبد الوهاب القسم الأول سنة ١٩٦٥ والقسم الثانى سنة ١٩٦٦ تونس .

١٧٦ — الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، د. محمد حمدى المناوى ، دار المعارف بمصر د. ت.

١٧٧ — الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ، الشيخ أحمد السكندرى والشيخ مصطفى عنان الطبعة ١٧ دار المعارف بمصر د. ت.

١٧٨ — وفيات الأعيان تأليف ابن خلكان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة أولى سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م

## محتويات الكتاب

## الفصل الثانى

## الفصل الثالث

# كتب صدرت للمؤلف

| | |
|---|---|
| ١ ـ النقد الأدبى فى العصر المملوكى | مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ |
| ٢ ـ القاضى الجرجانى والنقد الأدبى | الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ |
| ٣ ـ النقد الأدبى فى المغرب العربى | مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ |
| ٤ ـ مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد | مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤ |
| ٥ ـ نقدا لنقد فى التراث العربى | مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ |
| ٦ ـ خط سير الأدب العربى | مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧ |
| ٧ ـ لغويات | مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧ |
| ٨ ـ من التراث الأدبى للمغرب العربى | ط (١) عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٩<br>ط (٢) دار أمية للنشر والتوزيع ١٩٨٥ |
| ٩ ـ دراسات فى النقد الأدبى والبلاغة | دار العلوم بالرياض ١٩٨٠ |
| ١٠ ـ أبيات المعانى فى شعر المتنبى | الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٩٨٣ |
| ١١ ـ البلاط الأدبى للمغربين باريس | عمارة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود ١٩٨٣ |
| ١٢ ـ المقنع فى أن « هدى كامل المبرد » ليس « الممتع » | دار الرياض للنشر والتوزيع ١٩٨٤ |
| ١٣ ـ التجربة الشعرية عند ابن المغرب مضمونها وبناؤها الفنى | النادى الأدبى بالرياض ١٩٧٦ |
| ١٤ ـ البلاغة الاصطلاحية | دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٧ |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٠٨٦

ISBN٩٧٧ - ٠١ - ١٨٦٠ - ٥



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com